حياة سيد قطب

رواية

د. نافذ الشاعر

جميع حقوق الطبع محفوظة

حياة سيد قطب

رواية

د. نافذ الشاعر

تقريض

بقلم فضيلة الدكتور وائل عمر بشير (حفظه الله)

بسمِ اللهَّ الذي باسمِه تُستَفتحُ مغاليقُ العلوم، وبفضلِه تتجلَّى على ألسنةِ نزرٍ من عبادِه بدائعُ الفهوم، وتباركَ الذي أودعَ هذه النفسَ البشريةَ من عجيبِ سرِّهِ المكنون، وقيَّضَ مِن هؤلاءِ العبادِ مَن يسبرُ أغوار هذه النفسِ فيستخرجَ منها الجوهرَ المكنون، والصلاةُ والسلامُ على محمدِ بنِ عبدِ اللهَّ، النبيِّ الأُمِّيِّ الذي تعلَّمَ منه البشرُ جوامعَ العلوم، أما بعد:

فقد طلبَ منِّي الأخُ الحبيبُ ورفيقُ العمرِ الأديبُ د. نافذ الشاعر أن أراجعَ له روايتَه الموسومةَ (حياة سيد قطب) من ناحيةٍ لغويةٍ وأسلوبيةٍ بالإضافةِ إلى ما قد أراه من ملاحظاتٍ أخرى تتعلقُ بالفحوى، ولولا أنَّني أعلمُ أنَّه قد أبى اللهُ أن يَتمَّ كتابٌ إلَّا كتابَه لَمَا أقدمتُ على قَبولِ هذا الطلبِ، سيَّما أنه يأتي من أخٍ قد عهِدتُه – ولا أزكِّيه على ربِّه –مِمَّن بسطَ اللهُّ له في الاطلاعِ على شتَّى العلومِ، وحباهُ نظرةً عميقةً في التأمّلِ في بواطنِ الأمورِ، ومنحَه قدرةً عاليةً في استنطاقِ مكامنِ النفوسِ وإخراجِها بينَ عينَي القارئِ كأنَّها الكنزُ المنشور. لكن، ولَّما رأيتُ رغبةَ أخي في أن أراجعَ له روايتَه قبلتُ وأقبلتُ على قراءتِها فما زادتني هذه القراءةُ إلَّا عجباً بكاتبِ هذه الروايةِ، روعةً في الأسلوبِ، وسعةً في الفحوى والمضمونِ، وجمالاً في التصويرِ، وعمقاً في التحليلِ، وبراعةً في سبرِ أغوارِ النفوسِ.

وقد أهديتُه بعضَ ملاحظاتِي الزهيدةِ، حالَها حالَ بضاعةِ العبدِ الفقيرِ، يأخذُ منها ما يشاءُ ويدَعُ ما يشاءُ، واللهُ الموفقُ إلى ما يحبُّه ويرضاه.

أقولُ: لقد– والله – تفاعلتُ جداً معَ كلماتِ هذه الروايةِ واستفدتُ منها كثيراً: تاريخياً ونفسياً، واتضَحت لي معالمُ كثيرةٌ في حياةِ الأستاذِ سيد قطب– رحمَه اللهُّ – لم يكن أحدٌ من قبلُ يسلطُ عليها الأضواءَ خصوصاً في مرحلةِ ما قبلَ انخراطِه في

مجالِ الدعوةِ إلى الله؛ إذ إنَّ جُلَّ الكاتبين كان يركزُ على مرحلةِ انتمائه إلى الإخوان، وعلى ملاحمِ التعذيبِ والإعدامِ.

فجزى اللهُ أخي الحبيبَ، ورفيقَ عمري الأديبَ أبا محمد خيرَ الجزاءِ على هذه الروايةِ التي انسابت من قلمٍ سيَّالٍ، ومشاعرَ متدفقةٍ، وفكرٍ متقدٍ عميقٍ يربطُ الأحداثَ ويحلِّلُها في إتقانٍ وانسجامٍ، ويكشفُ عن البواطنِ والخبايا النفسيةِ للأشخاصِ في سبرٍ عجيبٍ لمكامنِ نفسياتِ أبطالِ هذه الروايةِ، هذا بالإضافةِ إلى الأسلوبِ الوصفيِّ الجميلِ الدقيقِ المسهبِ الذي يُقيمُكَ أمامَ المشهدِ وكأنَّكَ تراهُ أمامَ عينيك، وقد أسرَني الوصفُ الحسيُّ والمعنويُّ لبعضِ شخصياتِ الروايةِ، ذاكَ الوصفُ الذي كانَ يرمي بظلالِه على مكامنِ وسماتِ وخصائصِ هذه الشخصيةِ... وهناكَ الكثيرُ الكثيرُ من مزايا وروائعِ هذه الروايةِ وأسلوبِها الجذابِ الذي وازنَ ببراعةٍ بينَ الواقعيةِ والتحليلِ المنطقيِّ من جهةٍ وبينَ الأدبِ والجمالِ والأسلوبِ القصصيِّ من جهةٍ أخرى.

كتبه: د. وائل بن عمر بشير بتاريخ ٢٧ من ربيع الأول لعام ١٤٤٤ هـ الموافق ٢٣/ ١٠/ ٢٠٢٢ م

استهلال

إحدى الدايات، ممن لم يتعلمن القبالة في كليات الطب ذائعة الصيت، إنما تعلمنها من توليد النساء في قرى الصعيد، قامت في ٩ أكتوبر ١٩٠٦ بتوليد السيدة، البالغة اللطف، فاطمة حسين عثمان، لتنجب طفلها الثاني. إنني لو أتيح لي الحضور آنذاك، لكنت حذرت هذه الداية، كي لا تلحق أي أذى بهذا الوليد، وبالعالم الإسلامي لو حدث له مكروه، لأن السيدة فاطمة حسين عثمان لن تنجب مثله، ولن تنجب أي سيدة أخرى طفلاً على شاكلته طوال عدة قرون.

أنا نفسي أشعر بالذهول! ها أنذا أذكرك أيتها الداية بعد مرور ما ينيف على قرن من الزمان، لا لشيء، إلا لأنك فقط حملت ابن هذه السيدة على يديك.

إن هذا الطفل سيصبح أشهر من كل الملوك والحكام والرؤساء والباشوات والكتاب الذين عاشوا في زمنه، بل سيغدو أكثر شهرة من الذين سيلونهم.

إن تفسير "في ظلال القرآن" الذي قال عنه أشهر خطباء القرن الشيخ كشك: "ذلك التفسير الذي كتبه صاحبه وكأنه وحي يتنزل عليه من السماء". إن هذا التفسير كتب بقلم صغيرك هذا.

وليست شهرته من كتابة تفسير الظلال ذي المجلدات العديدة الضخام، بل لأنه سيكتب كتيبًا صغيرًا، هو آخر ما خطت يداه: "معالم في الطريق". هذا الكتيب سيقلب الدنيا لشدة أثره، ويكون سببًا في تسليم رقبته إلى حبل المشنقة، وسوف تتبناه الحركات الإسلامية، والكل سوف يفسره على هواه ووفق ما يحلو له..

آه.. ليته لم يكتبه!

هذا غيض من فيض؛ إذ يمكنني أن أسمي لك عشرات المؤلفات التي خطها يراعه[١] الساحر، ولن توجد جامعة، من الجامعات العريقة، إلا وسوف تمنح شهادة

---

[١] اليراع: الْقَلَم الْمَصْنُوع مِنَ الْقَصَب.

ماجستير أو دكتوراه تقدم حول هذا الطفل، الذي تحملينه بين يديك الآن. وسوف يكتب علماء من شتى بقاع الدنيا أبحاثاً مفصلة عن مؤلفاته، محاولين تقصي أسرار حياته خطوة فخطوة، وسوف يثبتون أن هذا الإنسان الذي يبدو بين يديك، شاحبًا هزيلاً، بالكاد يتنفس الآن، أنه سوف يؤثر في كثيرين من كتاب القرون القادمة.

إن جميع المكتبات سوف تفخر بعرض كتبه، وإن المطابع، التي يتهددها إفلاس وشيك، سوف ينقذها إعادة طباعة كتب هذا الطفل. وإن المغمورين وطلاب الشهرة، سوف يحاولون شهرة أنفسهم من خلال الطعن فيه وشتمه والنيل منه، وسوف يطلقون على كل من يعشق هذا الطفل لقب "القطبيّوين"[٢] سخريةً به واستهزاءً منه!

لكن هؤلاء جميعًا سوف يلفظهم الزمن، وسيبقى صغيرك هذا خالدًا لعدة قرون. إنه على الرغم من أنه لن تسمى جامعة أو مدرسة باسمه، ولن يطلق اسمه على شارع من شوارع بلده التي ولد فيها. وعلى الرغم من أن أدباء جيله وزملاء القلم- الذين طالما قدم لكتبهم وأثنى عليهم وعرَّف القراء بهم- على الرغم من أن هؤلاء الأدباء لم يقدموا أي كتاب من كتبه، ولم يذكروه ولو مجرد ذكر، ولم يعرِّفوا القراء به، وصمتوا بشأنه صمتاً مريبًا.. على الرغم من ذلك كله، سوف يغدو أشهر منهم طرًا، وسيبقى خالدًا لعدة قرون.

إيه أيتها الداية! لا تحدثيني عن أطفال وجهاء وأثرياء ممن حَمَلْتِهم يوماً على ذراعيك، إنما حدثيني عن هذا الطفل الذي تحملينه بين ذراعيك الآن، لأن هذا الطفل الذي ولدته السيدة فاطمة حسين عثمان، ليس سوى "سيد قطب".

[٢] على الحكاية لا على الإعراب كمضاف إليه، لأنه لقب اشتهر بهذه الطريقة.

١ - الميلاد

بين جبلين صغيرين، في إحدى ليالي الخريف، كانت قرية موشة ترقد هادئة هاجعة. وقرية موشة هي إحدى قرى أسيوط في الصعيد، تطل على بقايا غابة من النخيل ضعيف الأكمام، يفصلها عن بيوت الناس مصرف للمياه يقع على امتدادها، يصب فيه ما يتخلف من مياه الفيضان كل صيف من كل عام، فيبقى راكداً فيه، وتتخلله برك طينية صغيرة، تتمطى فيها الجواميس، ويسبح فيها بط أسود وأوز أبيض، ويلهو فيها أطفال عراة، ضمخوا أجسامهم بالطين فتتخيلهم وكأنهم تماثيل طينية متحركة. أما مصرف الماء فلا يجف أبداً، إذا اختفى منه الأطفال عند الغروب، أعقبتهم الضفادع ليلاً بنقيقها الذي لا ينقطع إلا إذا انبلج ضوء النهار.

هناك في بيت ريفي، مكون من طابقين، ومشيد بالطوب الأحمر، كان يُسمع غناء وزغاريد. وهناك شوهدت حركة نشطة للنسوة اللائي يفدن إلى البيت في سرور وابتهاج. كان البيت هو بيت الحاج قطب إبراهيم الشاذلي، وكانت المناسبة هي ولادة طفل، أطلق عليه اسم "سيد"، تحقيقا لنبوءة درويش القرية الشيخ بَكر، عندما ذهبت إليه خالة الطفل- وأمه حامل به- تسأله عن جنس المولود: أذكر هو أم أنثى؟ فلقيته يومئذ على باب بيته وهو يهم بالخروج، وفي يده عصاه الطويلة، بشعره المنكوش، وذقنه الطويلة الشعثاء، وجسمه الضخم الفارع، فأجابها عن سؤالها بعدما دق عصاه في الأرض قائلا:

- سيد.. سيد.. ياريت يأخد من عمري ويعطي له..!

من أجل ذلك سمي سيد، وعرف فيما بعد "سيد قطب"

كان والده الحاج قطب فرحاً مبتهجاً ومرتبكاً أيضاً، حيث أنه لا يدري ماذا يفعل بالضبط فقد اختلطت المشاعر في نفسه. كان شديد الفرح بهذا الطفل الذي جاءه بعد ثلاث سنوات من قدوم طفلته "سميحة" من زوجته الأولى التي تركتها

عنده بعدما طلقها. والحاج قطب رجل كريم، حسن الخلق، رقيق القلب، ذو حياء، برغم كبر سنه الذي أناف على الأربعين، عزيز النفس، مرفه لا يحب العمل الشاق، يميل إلى العزلة قليلاً. أما دخله فكان أقل مما تتطلبه نفقات بيته، ولهذا كان يعوض ذلك ببيع فدادين من أرضه التي ورثها عن أبيه، وكان هذا مصدر كدر لزوجته، التي خافت من ضياع ثروتهم وفقدان بيتهم، ولقد وقع ما كانت تخشاه وتتحاشاه.

في هذه الليلة نام الحاج قطب في غرفة أخرى غير التي تنام فيها زوجته مع طفلها، ولم ينتبه إلا على صوت يقترب من بعيد ويعلو شيئاً فشيئاً، كان ذلك صوت الدرويش الذي يجوب القرية قبل الفجر، ينشد بصوت أخـَّاذ يهز المشاعر: " الصلاة يا مؤمنين الصلاة".

استيقظ الحاج قطب من نومه على صوت الرجل العذب وهو يداعب أذنيه، فاعتدل في فراشه، وتعجب أن وجد نفسه، على غير العادة، لا ينام بجوار زوجته، إنما ينام في الغرفة الشرقية المطلة على الطريق، لكنه سرعان ما تذكر أن زوجته وضعت طفلاً هذه الليلة، فامتلأت نفسه حبوراً وسروراً، وترك فراشه في خفة ونشاط، وتطلع من خلل النافذة القريبة منه، ومد بصره إلى السماء وقد شعر في نفسه بعاطفة جياشة، وهو يدلف إلى المسجد ليصلي الفجر، ثم رجع إلى البيت وتسلل بخفة إلى غرفة زوجته، لئلا يوقظ الطفل الذي كان نائماً، واقترب منه وقبله وهو يشم منه رائحة زكية، ثم رفع أكف الضراعة إلى الله أن يجعل هذا المولود مباركاً وصالحاً.

عاد الحاج قطب إلى غرفته التي قضى فيه ليلته، وحاول النوم بلا جدوى، وأخذ يتقلب على فراشه إلى أن لاح في الأفق الشرقي خيط أبيض، أخذ ينداح شيئاً فشيئاً حتى ملأ أفق السماء، وظهرت الشمس فكانت كقرص متوهج من الإبريز،

وأخذت ترتفع قليلاً قليلاً، وتبعث بأشعتها إلى الأرض فتبدد ظلامها، وانسلت الأشعة الصفراء من النافذة الشرقية، واستقرت على الأرض.

كانت فاطمة، زوجة الحاج قطب، تناهز العشرين، تقاطيعها جميلة، سمراء البشرة، تنم عن جمال ريفي أصيل، ربعة ناعمة، لم تعتد على العمل في الغيط مثل نساء الفلاحين.. تزوجها الحاج قطب، بعد انفصاله عن زوجته الأولى، التي أنجب منها طلفين: سميحة وإبراهيم.

عاشت فاطمة، زوجة الحاج قطب، شطراً من حياتها مع والدها في القاهرة، قبل أن تعود إلى القرية وتتزوج من الحاج قطب وتستقر في الريف. وكان لها أربعة أخوة؛ اثنان درسا في الأزهر، اشتهر منهما "أحمد" وذلك بالكتابة الصحفية، وعمل الاثنان الآخران في فلاحة الأرض. أما فاطمة فكانت أقرب في طباعها إلى نساء المدن منها إلى نساء الريف، حيث كانت كل عاداتها تنم عن ذلك. فمثلاً هي تأكل مع زوجها وأولادها، في حين أن الرجل في القرية يتعشى مع أفراد أسرته إلا امرأته. والزوجة لا تأكل مع زوجها أمام أولادها؛ إنما تحمل إليهم ما يأكلون، فتوزع الفطائر، وتغرف المرق، وتضع اللحم أمام الزوج، فيدس في يد كل واحد من الأسرة قطعة، ولا يترك شيئاً للواقفة التي تشرف على المائدة، ثم يخرج ليقضي مع الرجال سهرة من سهرات الشبعانين.

أما الأعمال التي تقوم بها المرأة في الريف فلم تكن فاطمة تقوم بها بنفسها، إنما تشرف على الخدم عندما يقومون بها.. الخدم من نساء جيرانهم وأقربائهم الفقراء، الذين كانوا يحيطون بهذه العائلة الصغيرة، وهم لم يكونوا خدماً بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة، إنما كانوا ناساً من الفقراء، بعضهم يمت إلى العائلة بصلة القرابة، وبعضهم الآخر يجاورونهم في المسكن.. كانوا، في فترات من النهار والليل، يقومون بشؤون المنزل، ما عدا إعداد الطعام الذي كانت تنفرد به.. هذا العمل كان

في مقابل أكلة، أو شيء من الوقود المصنوع من روث الدواب، أو مقابل بعض الملابس التي يستغني عنها أهل البيت، أو مقابل كيلات من الحبوب، أو كميات من التبن، وأعواد الذرة الجافة..

لقد كانت حياة هذه الأسرة أقرب إلى حياة الأثرياء منها إلى حياة الفلاحين البسطاء، وهذا ما كلفهم بيع جميع أطيانهم وبيتهم في نهاية المطاف. أما حياة أهل الريف فهي تختلف عن حياتهم تلك. ففي الريف تقدم الزوجة حجر الأساس لبيت الزوجية.. العريس يجهز غرفته، التي يضع فيها أثاث البيت: حصيراً، ولحافين من القطن، وسحارة من الخشب، وحبلاً يثبت في ركن الغرفة لتضع العروس عليه ملابسها. وحينما يقدم لها مهراً يتحول فوراً إلى قطع من الذهب والفضة.. حلق في الأذن، وخزام في الأنف، وكردان في الرقبة، وأساور في اليدين.. بعد أقل من شهر يحمل الزوج ذاك المصاغ إلى السوق ليبيعه، ويشتري بثمنه بقرة صغيرة، فيكتمل أساس البيت الجديد.. الزوجة في الريف هي التي تستيقظ قبل الفجر فتحمل بلاصها، ذاهبةً آيبةً بين المنزل والبئر تملأ الأزيار.. وهي التي تنحني على الأرض تكنسها بسباطة جافة، وهي التي تحلب البقرة، وهى التي تزيح، من تحت البهائم، روثها الذي يحمل إلى الغيط لتسميد الزرع، أو لتصنع منه أقراصاً للوقود، وهي التي تهيئ لزوجها إفطاره قبل أن يستيقظ للعمل.. وهي التي تحمل إليه وجبة الغذاء وسط الحقول، وهي التي تحول اللبن إلى جبن ومش ودهان..

أما بداية حياة الحاج قطب وزوجه فلم تكن هكذا؛ إذ قدم لها مهراً تحول إلى ذهب تزينت به، ثم بيع لاحقاً لسداد الديون. وعند دخولها البيت، وجدته جاهزاً من طابقين، بناه والده الحاج إبراهيم الشاذلي، وجيه العائلة وكبيرها. كان البيت مليئاً بالبقر والماشية، وأجراء من قرى أخرى يعملون في فدادينه الكثيرة. ونساء فقيرات، مقابل أجر معلوم، يقمن بكل الأعمال الشاقة التي تقوم بها زوجة فلاح

في قرية.. قيل أيضا أنها كانت تحفظ القرآن، وتقرأ الشعر، وتقرأ الجرائد التي كان زوجها مشتركاً فيها.

٢ - المجاذيب

على أي حال، في عام ١٩٠٩ ولدت نفيسة، شقيقة طفلنا الصغير، وبمولدها أصبح له أختان الأولى نفيسة، والثانية سميحة- أخته غير الشقيقة- التي ولدت من أم أخرى عام ١٩٠٣ وتكبره بثلاث سنين. كانت شقيقته «نفيسة» هادئةً وقورةً تشبه أمها كثيراً، متعلقة بأخويها، سيد وسميحة، تعلقاً شديداً، ولا تحب مفارقتهما أينما ذهبا، وكثيراً ما كانا يختبئا منها فتبقى تبحث عنهما بحزن وهي تبكي؛ فإذا ذهبا للعب أو القفز تنظر إليهما وتحاول تقليدهما فلا تستطيع، وأحياناً يمسكانها بين يديهما يؤرجحانها وكأنها كيس قطن، وهي تبكي في خوف وذعر.

وفي عام ١٩١٠ كان سيد قد أصبح في سن الرابعة، فبدأ وعيه يتفتح لما حوله، وكان أسبق من أقرانه في إدراك ما يدور حوله، ومنذ بدايات وعيه لفت انتباهه المجاذيب والدراويش الذين يملئون القرية. كان إذا رأى واحداً منهم، أو سمع صوته، شعر بقشعريرة تتخلل عظامه وتحيل دمه إلى ماء بارد. وكان أكثر المجاذيب شهرة شخص يقال له "الشيخ النقيب" تطايرت حوله الأنباء أنه أخذ من يد شيخه شربة يقال لها "شربة الولاية" وهي التي جعلته على ما هو عليه الآن.

كان الشيخ النقيب يتمرغ في الوحل، أو يمزق ثيابه أحياناً، ويهيل على رأسه التراب أحياناً أخرى، ثم ينطلق في القرية صائحاً بصوت مرعب مجلجل: "الله.. الله.. الله.. حي.. حي.. حي". كما كان في كثير من الأحيان يأوي إلى مصطبة، أو ركن منزوٍ فيقبع هناك في صمت مطبق، فلا يأتي جسده بحركة، ولا تطرف عينه بنظرة، ويبقى على ذلك ساعات طوال.

وكان سيد، إذا سار منفرداً أو مع رفاقه في حواري القرية وأزقتها، ولمح هذا الشيخ جفَّ ريقه وتسمرت قدماه، وأصبح أشبه بعصفور يقف أمام ثعبان وهو في حالة تنويم فلا يتحرك ولا يطير، مع أنه يدرك أن فم الثعبان جاهز لابتلاعه بعد قليل.

والحق يقال، إن هؤلاء المجاذيب لم يؤذوا أحداً، بل الآخرون هم الذين كانوا يؤذونهم، وخصوصاً الأطفال الذين يتعقبونهم بالطوب والتصفيق متى رأوهم، وكان هؤلاء المجاذيب دوماً ما يحملون في أيديهم عصاً من سعف النخل، يلهبون بها ظهور هؤلاء الأطفال الأشقياء وجنوبهم عندما يظفرون بهم، وحينها تتقلص ظهورهم وتنحني تحت وقع لسعات هذه العصا وهي تطرطق على ظهورهم.

في تلك السن، لم يكن سيد يشارك هؤلاء الأطفال في هذه الشقاوة، بل على العكس من ذلك تماماً، كان يعجب من تبجح الأطفال وقلة أدبهم وسوء مسلكهم، ودوماً ما تأخذه الشفقة على هؤلاء المجاذيب المساكين. لكنه، في الوقت نفسه، بسبب خوفه من هؤلاء المجاذيب كان لا يخرج من البيت، إلا وجيوب جلابيته مليئة بالخبز والحبوب، فإذا التقى بأحدهم، مدَّ يده إلى جيبه، وأخرج ما فيها، وأفرغه في يد هذا المجذوب، اتقاءً لشره الذي صوّره له وهمه وخياله آنذاك. لكن لا مندوحة عن القول، بأن هذا الطفل المهذب، حسن السمعة، إن لم يكن قد شارك الأطفال الأشقياء، في قذف الحجارة والطوب على هؤلاء المجاذيب، فها هو ذا يقذفهم بكلماته النارية بعد خمسة وثلاثين عاماً من ذلك اليوم، في كتاب من كتبه، التي تتحدث عن ذكرياته في القرية، وكأنه بهذا يثأر لنفسه من الخوف الذي اعتراه منهم وهو طفل صغير.

على أية حال، هل يستحق هؤلاء المساكين كل هذه الرجوم؟ ومن هم هؤلاء المجاذيب؟ وهل لنا أن نعرف حقيقة أمرهم؟

أقول: لا يمكن إنكار كرامات الأولياء لأن هذا شيء متواتر على مدار التاريخ. وإنكار كراماتهم بمثابة إهانة للعديد من أجيال العلماء والمتصوفة والعارفين عبر التاريخ. لقد كان هناك ما يعرف بالدراويش الذين لهم فراسة أقر بها الكثيرون ممن عاصروهم وكتبوا عنهم، فلا يمكن أن يكون كل هؤلاء العلماء مغفلين أو مخدوعين. ولابد أن نعترف أن لكل عصر من العصور، وكل حقبة من الحقب خصائصها وألطافها، وتكون بمثابة إرهاص لما سيكون في الزمن القادم، وكأن الأمور المستقبلية كانت تقدم نفسها بطريقة مسبقة، وهي تشبه الجنين في رحم الأم، أو تشبه البذرة في بطن الأرض قبل أن تنبت ويكتمل نموها وتصبح شجرة كاملة.

***

الشيخ بَكِر، كان أحد هؤلاء المجاذيب.. له كرامات يتناقلها أهل القرية. وكانت والدة سيد تتطلع إلى إنجاب طفل يؤاخيه ويسنده، وبعد مدة حملت بطفل ولم تكن تدري ما في بطنها، فذهبت خالة الطفل إلى الشيخ بَكِر لتستفسر عن جنس الجنين: أذكر هو أم أنثى، فأعطاها عوداً من القصب، وكان هذا رمزاً إلى أن ما تحمله ولد ذكر، فلما وضعته كان طفلاً جميل الطلعة، لكن بدأت تظهر عليه نوبات عصبية ويصاب بالاختناق، وتربد سحنته وتسود، ثم تهدأ النوبة، ثم تعود من جديد. اعتقدوا أن الطفل مصاب بالقرينة التي غاظها جمال هذا الولد ونموه، وأخذت تخنق الوليد. وكان الحل هو الذهاب إلى الشيخ بكر.

وفي إحدى ليالي رمضان اشتد المرض بهذا المولود فأخذته خالته إلى بيت الشيخ بكر. كانت الليلة قمراء، وكان كل شيء يخلع ظلاً على الأرض، وكان ظل النخلة المتمايل بالهواء ينعكس على الأرض المقمرة، ويتحرك فيطول ويقصر حسبما تميل النخلة؛ مما خيل لها أن هناك شبحاً هائلاً يطول ويقصر، ويتمايل يميناً وشمالاً، وبدا جريد النخلة في الظل مثل كرابيج هائلة يحركها ذلك الشبح في يده، ويكاد يهوي

بها عليها. فقدت الخالة تماسكها، وأخذت تجري مذعورة حتى وصلت إلى منزل الولي فطرقته طرقاً عنيفاً أيقظ النائمين، ثم سقطت على عتبته، لكن الشيخ بكر أبى أن يستقبلهم. والشيخ بكر إذا لم يفتح الباب لطارق يطرقه، فهذا معناه أن المهمة التي جاء من أجلها فشلت، وأن حاجته لن تقضى. وكان هذا إيذاناً بفشل المهمة وبنفاذ القضاء، فلفظ الوليد أنفاسه الأخيرة في الصباح.

من تلك اللحظة، سوف يبدأ طفلنا يبغض هؤلاء الأولياء الذين تخلوا عن شفاء أخيه فمات بعد أيام من مولده.

سيد قال- طبعا بعدما كبر وتعلم- إنّ أخاه كان مصاباً بالتيتانوس، الذي نقلته إليه القابلة التي لم تعقم السكين التي قطعت بها الحبل السري، وكان ميكروب التيتانوس عالقاً بالسكين فتسمم الجرح. ولست أدري كيف جزم بهذا؟

عموماً، ما يهمنا في الموضوع أن سيد تعلق بشقيقه الصغير وأحبه حباً جماً، وعندما عادت به خالته من عند الشيخ بكر راحوا يجرون له الإسعافات، لكنها لم تفد شيئاً. وراح سيد ينظر إليه بين الحين والحين لعله ينطق بكلمة أو يفتح عينيه ولو للحظة، ولكن عيني الصغير تظلان مسبلتين، ويظل فمه مطبقاً لا يتحرك ولا يجيب؛ فتضمه أمه إليها، وتلثم وجهه البارد في لوعة وجنون.

ومضت الأيام الباقية من رمضان، وفي صباح العيد نهض سيد من فراشه قبيل الفجر بقليل وارتدى ثيابه في عجلة، وكأنه ذاهب ليلقاه بعد هذه الغيبة الطويلة الثقيلة..

وركب مع الجميع، وساروا إلى حيث ينام صغيرهم المحبوب بين الرمال. وعندما أشرفوا على الوادي الصامت من بعيد كان الظلام يتوارى شيئاً فشيئاً، فتبدو القبور من بعيد كأشباح بيضاء تهتز كلما اهتزت الإبل واقتربت من مكانها البعيد، ونظر سيد إلى والدته فرأى الدموع تترقرق في عينيها وهي شاخصة إلى

الوادي الساكن المقفر من الأحياء. غير أنها لم تبك كما كان يظن، بل ظلت صامتة تنتظر شيئاً..

وصلوا إلى مدافن العائلة، وجلسوا حول قبر صغيرهم العزيز يستمعون إلى «القرآن» وهو يتلى، لعله يبعث إلى قلوبهم بعض الصبر والعزاء.. وذهب الصغار بعيداً يلعبون ويحتفلون بالعيد فوق القبور! ولم يستطع سيد أن يعي من «القرآن» شيئاً، فقد كان شاخصاً إلى الرمال التي تغطي قبر شقيقه في ذهول، ينفذ بخياله إلى ما وراء الرمال، إلى شقيقه النائم وسط التراب، وقد تخيله يتململ ثم ينبش الرمال بيده لكي يفتح القبر، ثم يخرج رأسه من فتحته الصغيرة فيهبّ إليه ويجذبه إلى الخارج ويضمه إليه.

وبعدما انتهت تلاوة «القرآن»، رأى والديه يبكيان في صمت. وخُيّل إليه أنّهم جميعاً بلهاء لا يفقهون شيئاً، فها هو ذا صغيرهم المحبوب لا يفصلهم عنه غير كومة صغيرة من الرمال، وبضعة أحجار فقط هي التي تغيبه عنهم! هل يمكن أن يعودوا ثانية إلى المنزل ويتركوه نائماً هنا؟ إنه شيء غير معقول!

وتأهبوا للعودة وهو لا يزال ذاهلاً في مكانه.. وأقبل سيد يتساءل: كيف لم يخرجوا شقيقهم ليعود معهم إلى البيت وهم عائدون؟ وتجلد الوالدان قليلاً، ثم ضمت الأم طفلها سيد إليها وهي تحاول ألا تجهش بالبكاء، وقد راحت الدموع تنهمر من عينيها في صمت.. أما هو فقد استفاق من ذهوله وتنبه إلى الواقع المرير.

٣ - فيضان النيل والأخ الأكبر إبراهيم

في عام ١٩١١ كان الفيضان قد بلغ ذروته وعزل القرية عن باقي الدنيا، وقطع الطرق الموصلة إليها، وامتزجت جميع الكائنات في القرية، حتى ضاقت بأهلها من رجال ونساء وشباب وصبية وشيوخ. وضاقت أيضاً بالغجر اللصوص، ونسائهم

الغاويات، وأولادهم العفاريت، بعدما قطع عليهم الفيضان طريق تجوالهم بين القرى. وضاقت بالثعابين والعقارب والفئران التي أصبحت صيداً سهلاً للقطط، التي طالما أعياها البحث عنها من قبل فلم تجدها. وضاقت بالناموس والذباب الذي جاء أسراباً يبحث عن البلح المنشور على أسطح البيوت. وضاقت بثعلب ضامر تربص بمعزة ضلت عن حظيرتها فطارده الصبية حتى الجبل. وإذا نظرت إلى السماء وجدت حدأة تحوم تفتّش ببصرها الحاد، عما يسهل خطفه من صغار الدجاج والكتاكيت. ومن فوق أشجار النخيل والسنط وأسطح المنازل بدت الغربان وهي تترصد شيئاً تخطفه. وهناك في الدروب ذاتها أخذ أناس طيبون يبحثون عن غراب أسود، لا يخالط ريشه بياض، ليقدموه إلى أم تطلبه دواء لطفلها الذي تأخر في الكلام.

في تلك الأثناء تم ختان سيد، فلا ختان قبل الفيضان ولا ختان بعده. لذا فإن موسم الفيضان، الذي هو موسم التوقف عن العمل بالنسبة لأهل القرية، يعتبر موسم العمل والارتزاق للمزين الذي يقوم بختان الأطفال، الذين ينتظرون الفيضان منذ عام، ليكون شاهداً يروي للناس من بكى ومن لم يبك من الصبيان. من أجل ذلك تحمل سيد الآلام الشديدة، من هذا الختان بعدما نفدت أدوية ومطهرات الجروح من حقيبة المزين؛ فاستخدم بدلاً منها دقيق السوس، وكانت قد انطبعت في نفسه مقولة "الألم ولا العار"، تلك المقولة المقدسة التي طالما نطقت بها ألسنة الجميع من حوله، فتحمل الألم الشديد خوفاً من العار!

في موسم الفيضان هذا، عوض النيل أهل القرية رزق الأرض بما حمله معه من الأسماك. فحينما انحسر الفيضان كست الأرض طبقة من الأسماك الصغيرة البيضاء، التي فقست أثناء الفيضان، ولم تعرف كيف تعود إلى المجرى الذي جاءت منه الأمهات؛ فتراكمت محبوسة في الحياض والمصارف، فلما انصرف عنها الماء اختنقت من جفاف المياه. حينئذ لا يعاني أهل القرية في اصطياد تلك الأسماك،

فيجمعونها بدون عناء، ويتفرغ الناس في نهاية موسم الفيضان نحو أسبوعين لجمعها. وتتفرغ النسوة لإخلاء أمعائها وتنظيفها وتجهيزها لتؤكل صباحاً ومساءً، مشوية في الأفران، أو مقلية في الدهان. وفي تلك الفترة يكون السمك أكثر من أن تستهلكه القرية حتى لو أكلته ليل نهار، فتنشغل النساء بطرح أمعائه وغسل خياشيمه، وتخليله في ماء الملح داخل البلاليص، ثم تودعه الخزانة التي يحفظون فيها بلاليص البلح والجبن والمش والدهان والخبز وما يلزم المطبخ من ملح وفلفل وبصل وثوم.

***

في أيام الفيضان يصبح الناس أكثر إنسانية، عندما يتحررون من ضغط العمل الشاق، فيتزاورون، ويلهون، ويختلطون على المصاطب وفي المناضر[٣]. وفي ظلال أشجار السنط الباسقة تجدهم جالسين يتسامرون ليتغلبوا على شعورهم بأنهم في القرية محاصرون. وفي خضم هذه السعادة لا بد أن ينحط إليهم من الجبل العمدة والخفراء الأربعة وحصان حكومي يعلوه عسكري، وقد غطى العسكري رأسه بمنديل عريض ثبته بطربوش أحمر يقيه من الشمس الحارقة، ويمشون جميعا مشياً وئيداً كأنهم مخدرون. الحصان في المقدمة، والعمدة يتبعه الخفراء الأربعة.

- السلام عليكم.

يهب الجميع واقفين:

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- عاوزين شوية عيال يروحوا مع الشاويش لغاية النواوره، علشان الجسر انقطع على البلد هناك، والميه غرقت البيوت، والبيه المأمور ضرب إشارة بلم الناس

[٣] تسمى المنضرة، والبعض ينطقها المندرة وهي المضيفة التي تكون لكل العائلات للاجتماعات في مناسبات الأعياد والأفراح والعزاء.

علشان يسدو القطع، وفرض على بلدنا ١٥ واحد، و ١٥ مقطف، و ٧ طواري.. يلا يا رجاله..

كانت تلك سخرة بدون أجر، وإقامة بدون مأوى، وعمل بدون غذاء. ينشط الأغنياء في إقناع الفقراء لتقديم ما يكفي الحكومة من أولادهم الشباب. فإذا جمعوا من لم يحالفه الحظ في الهرب، ربطوا أيديهم جميعاً بحبل واحد في سرج الحصان، فأصبحوا صفاً واحداً مربوطاً، يجرهم العسكري بحصانه نحو ستة كيلو مترات إلى النواورة، حاملين مقاطفهم وطواريهم، بدون تساؤل، بدون اعتراض، بدون كلام، لكن بشعور صامت عميق بالقهر والهوان.

ينصرف العمدة ليبلغ المركز بأن " كله تمام يافندم".

عند ذلك يتهامس الخفراء ويتذمرون وقد يحتجون، لكن بعد أن ينصرف العمدة؛ إذ الخفراء هم المثقفون في القرية، الذين يعلمون من خبايا الحكومة والمأمور والعمدة ما لا يعلمه الآخرون. إنهم ضابطو الجرائم، طابخو التحقيقات الأولية، وفق ما يتفق مع قبر الفتن بين عائلات القرية، طبيخاً لا يملك المحقق- الذي لا يأتي إلا بعد ساعات- إلا أن يأكل هذا الطبيخ ويهضمه. ثم إنهم وسطاء الرشاوى، وشهداء الحق أو الزور حسب مقتضيات الأمور.

كان سيد يشاهد كل هذا ويتألم في صمت، وما ضاعف ألمه في هذا اليوم هو الإمساك بأخيه إبراهيم، الذي لم يفلح في الهرب، بل لم يفكر في الهرب أصلاً، وكأنه فعل ذلك نكاية بأبيه، واقتيد في حبل يجره حصان العسكري. وكان الحاج قطب من أجل ذلك يتكفل بطعام جميع أبناء القرية الذين اقتيدوا لرأب الصدع في الجسر، ويذهب إليهم يومياً، وقد حمل معه السلال المليئة بالطعام والفاكهة.

لقد كان إبراهيم- الأخ غير الشقيق لسيد- مصدر هَمٍّ وكدر للحاج قطب، إذ لم يكن راضياً عن أبيه كل الرضا، بسبب انفصاله عن أمه. حاول الحاج قطب إصلاح ابنه إبراهيم محاولات شتى باءت جميعها بالفشل. ألحقه بالكتاب لحفظ

القرآن الكريم، إلا أنه لم يحفظ ولو سورة واحدة.. أصبح يثير المشاكل في الكتاب ويغري الطلاب بإثارة المشاكل والتخريب فطرده الشيخ. بعد ذلك وضعه الحاج قطب في الغيط ليساعد العمال ويشرف على عملهم، إلا أنه أثار المشاكل مع العمال، وصنع بهم المقالب التي كانت تصرفهم عن العمل.

كان أخوه إبراهيم أقرب إلى جده في السمت منه إلى أبيه، كان سيد يحب أخاه، ويحب أن يكون مثله في الرجولة والفتونة والجرأة والثقة بالنفس، لكنه كان يكره فيه التمرد وصعوبة المراس. وكثيراً ما كان أبوه يضربه بالخيزرانة ويحبسه في البيت. حدث ذات مرة أن ضربه أبوه، وربطه في المنضرة بالحبال الغليظة بسبب السهر والتدخين وذهابه إلى بيت "حرحور" زوج الغجرية. توجع سيد وحزن لما أصاب أخاه من الضرب الأليم، وصمم على إخراجه من محبسه وفك وثاقه، وبقي يحتال حتى عرف مكان المفتاح وفتح المنظرة.. أحضر سكيناً وقطع بها الحبال، ثم خرج الأخ، ومن يومها لم يعد إلى البيت. لقد كان سيد يحب أخاه الكبير حباً جماً، وكان الأخ الكبير يعطف على هذا الأخ الصغير، لأن زوجة أبيه فاطمة- التي يدعوها خالته- كانت تعطف عليه، ولا تعامله معاملة زوجة الأب.

كان سيد دائم التساؤل: لماذا يضرب أبوه أخاه الكبير ولا يضربه هو؟ هل لأن أمه في البيت تحامي عنه، بينما أمُّ أخيه ليست فيه لتحامي عنه؟ أو هل لأن أباه يثقله شعور بأن هذا الشاب يزحزحه عن مكانه شيئاً فشيئاً، وأنه سيحل مكانه عاجلاً أم آجلاً، كما حل أبوه مكان جده؟ أو هل لأن الأب لا زال يعتبر ابنه طفلاً صغيراً، مهما كبر ونبتت له لحية أو شارب، وأن الابن لا يزال ينظر إلى أبيه على أنه شاخ، وانقضى شبابه منذ زمن طويل، مهما كان عفي البدن صحيح الجسم؟

لقد كان يخطر له مائة تعليل وتعليل، ولا يرى واحداً منها مقنعاً!

كان الحاج إبراهيم الشاذلي، جد سيد، رجلاً عظيم الثراء، ولكن ثروته تضاءلت بعدما وزعت على ورثته، وبقي للحاج قطب قدر لا بأس به، لكن هذا القدر كان يتناقص باستمرار، لأنه كان متلافاً مضيافاً من أجل المحافظة على وجاهته ومظهره الاجتماعي في الريف.

أما فاطمة- زوجة الحاج قطب- فكان لديها قلق دائم، وهاجس قوي من المستقبل الغامض، ولديها شعور مرهف بأنه سيصيبهم مثل ما أصاب أسرة والدها الحاج حسين عثمان، فقد كانت أسرة والدها مماثلة لأسرة الحاج قطب في حب الوجاهة والاهتمام بالمظهر الاجتماعي، مما جعلهم يبيعون أطيانهم في سبيل هذه الوجاهة. وقد صدق حدسها، فاضطر الحاج قطب إلى بيع بيته تحت ضغط الحاجة والدين ليشتريه أحد الأقباط في القرية، لكنه تهدم بعد ذلك، عندما كره ورثة هذا القبطي دخوله أو الاعتناء به. لعل ذلك من لطف الله وتقديره كي لا يعلق صليب في بيت صاحب تفسير الظلال.. هذا البيت الذي طالما أحيا فيه كبار القراء ليالي رمضان بتلاوات القرآن ومدائح النبي عليه الصلاة والسلام.

في تلك الأثناء أراد الحاج قطب، استكمالاً للوجاهة، إرسال طفله إلى المدرسة الأولية، بدلاً من إرساله إلى الكتاتيب. لكن طفله المدلل، لم تكن تهمه الوجاهة ولا يفقه معناها، فلم يرغب لا بالذهاب إلى الكـتَّاب ولا بالذهاب إلى المدرسة، إنما آثر أن يظل في الدار يلعب مع أخته الكبيرة «سميحة» التي كانت لديها ذخيرة لا تنضب من الألعاب الجميلة والحكايات المسلية. لكن الحاج قطب ليس بالرجل الذي يستسلم بسهولة، فاستقر عزمه على إرسال سيد إلى المدرسة في خريف عام ١٩١٢، وراح ينشغل في إعداد الملابس الخاصة لهذه المدرسة، فاشترى له طربوشاً بدل الطاقية التي كان متعوداً على لبسها، واشترى له حذاءً جميلاً بدل حذائه القديم، كما فصل له قفطاناً بدل الجلابية. وكانت المدارس سيئة السمعة في بداية عهدها، لأنها لم يكن يذهب إليها إلا أولئك الذين فشلوا في حفظ القرآن الكريم،

ولم تكن المدارس تقسم الأطفال الوافدين حسب قدراتهم العقلية أو العلمية، إنما كان التقسيم يتم حسب طول شواربهم ولحاهم وأجسامهم، وحسب مكانة الأب ووجاهته، فأبناء الأثرياء وأصحاب المراكز، دائما يصنفون ضمن الفرقة الرابعة، أكثر الفرق تقدما. ونظراً لأن سيد لم يكن ضخم الجسم، ولم تنبت له لحية ولا شارب آنذاك، فقد صنف في السنة الأولى التحضيرية.

٤ – مدرسة القرية

مرت ساعات على مولد نهار خريفي من عام ١٩١٢، ودبت الحياة في بيت الحاج قطب، واستيقظ كل من فيه.. وفي فناء البيت سرحت الكتاكيت الصفر تنبش الأرض بحثاً عن الغذاء، ومن الحظيرة القريبة سمع ثغاء ماعز وخوار بقرة، ومن الجرن الملحق بالبيت سمع هديل الحمام، وشرعت العصافير تزقزق وهي ترفرف بأجنحتها على شجرة النخيل المنتصبة في فناء البيت بشموخ. بلا شك كان هذا جو يشيع البهجة والسرور في أشد النفوس كآبة، لكن هذا الجو الريفي الجميل أفسده طفلنا عندما رجع من المدرسة باكياً، فلما سأله والده عن سبب بكائه أخبره بأنه تم وضعه في السنة الأولى التحضيرية بدلاً من السنة الرابعة، وبهذا حُرِم من الجلوس بجوار ابن خالته الذي كان في السنة الرابعة.. بكاء سيد لا شك كدر الحاج قطب وأخرجه من عالمه الذي كان مستغرقاً فيه، لكن كيف سيحل هذه المشكلة؟ إذن لابد من اللجوء إلى الأصدقاء الذين طالما أطعمهم الفطائر والحلوى التي تعدها زوجته.

كان الحاج قطب يهتم بالأصدقاء، وخصوصاً الأصدقاء الذين يقفون بجانبه ويساندونه وقت الشدة وشعاره الدائم: "الصديق وقت الضيق"، فذهب إلى صديقه عم منصور وأفضى له بالأمر، وكان عم منصور شخصية اجتماعية لبقة، يتميز بقدرة عجيبة على الإقناع وتلطيف الأجواء، والحاج قطب يلقبه "حلَّال

العقد". ولما أخبر الحاج قطب صديقه عم منصور بالحكاية قال له بلهجته المطمئنة المريحة التي يجيدها دوماً:

- ولا يهمك يا حاج قطب، كل عقدة ولها حلَّال.. بكرة نروح للناظر وربنا يدبر من عنده.

في الصباح ارتدى الحاج قطب قفطانه النظيف، الذي لا يلبسه إلا في الأعياد والمناسبات السعيدة، ووضع طربوشه الأحمر الجميل، ولمع حذاءه، ولم ينس أن يوصي زوجته أن تعد أشهى ما لديها من الفطائر وأنواع الحلوى التي لا يأكلها إلا الأثرياء. فلما دخلوا المدرسة استقبلهم المدير والفقيه والعريف بترحاب واهتمام، وأخذوا يختلسون النظر إلى الصرة التي كان يحملها الزائر في يده، وقد رشح السمن من وراء القماش المغلفة فيه، وجلسوا يتحدثون.

كالعادة بدأ حلال العقد بإشاعة جو من المرح في المكان، وبعد الترحاب والسلامات، بدأ يمهد للموضوع ثم أخبر المدير بلطف عن سبب زيارتهم، وكان المدير شخصاً ذكياً يستميل الجميع ويسترضيهم لأن في ذلك دعاية حسنة لمدرسته الجديدة، لكن بالرغم من ذلك فقد كان صاحب ضمير حي، يسعى إلى بث الثقافة وتنوير العقول، وكان من الصعب أن يمرر شيئاً ليس في مكانه الصحيح.

لكني، لست أدري بأي عقارٍ سحري سَمَّمَ عم منصور المدير كي يوافق على كل ما يطلبون! لعلها لجاجةُ حلال العقد وذلاقة لسانه، أو لعلها دماثة خلق الحاج قطب وفطائره التي تقع عليها بعض التبعة أيضاً. لكن المدير أدرك بسليقته أن الحاج قطب إذا اقتنع بشيء فلن يثنيه أحد عن قناعته، فشرع يبين للحاج قطب مميزات وجود طفله في السنة التحضيرية الأولى، كي لا تضيع عليه أساسيات هامة لا بد لكل طالب أن يتعلمها، فاقتنع بذلك وارتاحت نفسه، وخصوصاً عندما أحس بصدق المدير وإخلاص نصيحته، وعند ذلك قال:

- خلاص على بركة الله.. الخيرة فيما اختاره الله.

ومن الآن فصاعداً، سوف يهتم المدير والفقيه والعريف بهذا الطفل ويدللونه، ومن جرَّاء هذا التدليل طالما سينعم العريف والفقيه بخيرات بيت الحاج قطب المضياف، وأصبح الفقيه هو الذي يقرأ القرآن في بيت الحاج قطب في كل عام في شهر رمضان.

***

منذ أن التحق سيد بالمدرسة، أقام حول نفسه عالماً خاصاً عاش فيه ولم ير سواه. أما العالم خارج المدرسة، وخصوصاً تدبير معيشتهم، فلا يعلم عنه شيئاً. لا يعلم من العالم خارج المدرسة سوى الغيط الذي يذهب إليه كل جمعة، يقفز، ويجري، ويمرح، ويطارد القنبرة وأبو فصادة، وأبو قردان.. أو يعبث مع العمال الذين يشتغلون في الغيط وهم يغنون بكلمات ممطوطة منغمة:

هو فين يا ناس .. سوق البخوت

أشتري لي بخت

كذلك يعرف خارج المدرسة تلك البقرة الحبيبة إلى قلبه، التي لا يبيعونها ولا يستبدلونها مثلما يفعلون مع المواشي الأخرى، بسبب لبنها المدرار، وزبدها الكثير.. وقد ربطته صداقة وثيقة بهذه البقرة، وأصبحت كأنها أخت من أخواته، فمنذ أن جاء إلى الدنيا وهو يراها في البيت، ويسمع خوارها في أوقات الليل والنهار..

ثم هناك البئر الملحقة ببيتهم الفسيح، التي يُستقى منها الماء لشرب بهائمهم، كي لا تخرج خارج بيتهم الفسيح الجميل. إنه ليزدهي بوجود هذه البئر في البيت

ويباهي بها صبيان الحارة، ويرى الناس يتملقونه ويدللونه، حين يفدون ببهائمهم ليسقوها من حوض بئرهم الخارجي.

كان يصحو في الفجر هو وأخته نفيسة والكل نيام، ويجيئان إلى المكان المظلم في آخر الفناء، ويحلان البهائم من مرابطها ويجيئان بها إلى الحوض الذي بجانب البئر لكي يسقياها قبل أن يصحو أحد ويراهما، فقد كان محرماً عليهما مثل هذا العمل، الذي كانا يريان فيه شيئاً جميلاً يتمنيان لو يقومان به بدل الخادم المكلف به. وكم وقفت نفيسة وسيد وحاولا أن يملآ الحوض من البئر غير مباليين بخطر السقوط في البئر، وكم خرجا إلى الشارع الساكن قبل شروق الشمس وجريا فرحين، وقد خيل إليهما أن الكون كله مازال نائماً وهما وحدهما أيقاظ..

وأمام بيتهم الفسيح حوش واسع، في زاوية من زواياه حظيرة مواش، وفي جانب من جوانبه غرفة واسعة غير مسقوفة لتخزين التبن وأعواد الذرة الجافة وحطب القطن، التي كانت ترتفع إلى قرب الدور الأول، فيصعد هو وأخته نفيسة ويثبا من السطح فوق التبن دون أن يتعرضا للأذى، ثم يجريا فيصعدا سلم البيت من الناحية الأخرى للقفز من جديد وهما يتسابقان..

وفي الدور الأسفل يوجد كانون طهي، عبارة عن ثلاثة صفوف من اللبِن على شكل حرف U لوضع الإناء النحاسي فوق حوافه الثلاثة، وتبقى الجهة الرابعة مفتوحة لوضع أعواد الذرة وحطب القطن.. وفي الدور الثاني فرن آخر غير الفرن الذي بالدور الأول، يستعمل الفرن الذي بالدور الأول للدفء في الشتاء، بينما الثاني لطهي الخبز في الصيف. وفي الخارج، أمام هذا البيت، ساحة واسعة بطول البيت يلعب فيها مع أصدقائه ألعاب الكرة، وطرطقت، ودارت، والتحطيب، والعضمة..

لا زال سيد يذكر ذلك اليوم عندما عاد من المدرسة فوجد أمه تبكي. لقد دهش لذلك! صحيح إنه كان دائماً يرى على محياها هالة من الحزن الشفيف. وصحيح إنه

كان يراها تتكلف البشاشة، دائمة السرحان والاكتئاب، لكنه لم يرها تبكي من قبل وتسح الدموع من مآقيها في غزارة.

- ما لك يا أمي؟ سألها بحزن..

- لا شيء يا ولدي متعبة قليلاً!.. أجابته وهي تضمه إلى صدرها في حنان.

بكى الطفل لبكاء أمه، وبكت أختاه الصغيرتان الواقفتان بجانبه: «سميحة»، التي تكبره بثلاث سنين، ونفيسة، التي تصغره بمثلها، وعند ذلك ضمته إليها في حنو وطلبت منه أن يكف عن البكاء، فوجد الفرصة مواتية في هذا الحنو الزائد، ليعرف سبب البكاء، فسألها مرة أخرى عن سبب بكائها، فقالت بعدما أخذت عليه عهداً أن يكون رجلاً ويعمل على إزالة سبب بكائها:

- لقد باع أبوك اليوم قطعة أرض.. يجب أن تكون رجلاً وترجع ما باعه أبوك!

ذهل سيد لهذا الطلب ووقع في حيرة: كيف يرجع ما باعه أبوه؟ وقبل أن يمكث في ذهوله طويلاً قالت له:

يجب أن تكبر وتذهب إلى مصر، وتتعلم وتصبح أفندياً يكون لك مرتب، وتحرص على القرش، ولا تبذر مثل أبيك وأخيك إبراهيم، وتدخر مبلغاً تشتري به هذه الأطيان التي بعناها..

سرح سيد في الأفندي الذي سيكونه، وفي مصر التي سيذهب إليها، وفي المرتب الذي سيقبضه.. لكن صوت أمه المحزون أعاده إلى الواقع المرير مرة أخرى:

- يا ولدي لا تكن مسرفاً مثل أخوالك.. فما إن مات جدك الحاج "حسين عثمان"، حتى باعوا أطيانهم وبيوتهم جميعاً، ولم يبق لهم إلا بيت صغير يسكنون فيه.. وعما قريب سوف يبيعونه هو الآخر!

هنا بدأ يفهم الكلام الذي كان يسمعه من الناس ولم يدرك معناه.. كان يسمع الناس يقولون بسخرية لاذعة، أو بحسرة مصطنعة:

– الحاج حسين عثمان كان واسع الثراء، وما كاد يموت حتى بعثر أولاده ثروته يميناً وشمالاً، ولم يبقوا شيئاً، ولم يفلح منهم إلا ابنه أحمد، الذي تعلم في الأزهر وأصبح مدرساً، واشتغل بالصحافة، وأقام في القاهرة هو وأمه، جدة سيد.

منذ هذه اللحظة سيهيم سيد حباً في الأفنديات، وفي السفر إلى القاهرة، ويسعى لأن يكون موظفاً له راتب، ويعيد إلى أمه بسمتها، ويزيل عن وجهها غلالة الحزن التي يراها تزداد حين يخيم الليل، حين لا ينير البيت إلا مصباح خافت من الجاز، يريق نوره الضئيل الباهت على جدران البيت، فتتراقص ظلاله على الجدران كالأشباح، ويخيم على البيت ومن فيه شعور دفين بالشجن والأسى..

شهر واحد في العام كان يرى البهجة لا تنقطع من بيتهم وتغيب فيه الأحزان، ذلك هو شهر رمضان. في هذا الشهر تتلألأ الأنوار في الشوارع، ويتزاور الناس، ويقرأ المقرئون القرآن الكريم طوال الشهر، وتعلق المصابيح على أبواب جميع بيوت القرية، ليهتدي بها المارة الذين يسهرون ويتأخرون في السهر. ثم تتكرر هذه البهجة وتغيب هذه الأحزان من بيتهم في أيام طارئة من العام مثل: المولد النبوي، ويوم عاشوراء، وليلة النصف من شعبان.. ثم تخمد الحركة الطارئة، فيعود الحزن إلى وجه الأم الحنون.

لقد كان سيد يحب هذه المناسبات التي كانت تزيل الحزن والشجن من نفس أمه. هذا الحزن الذي يهيجه جو القرية، خصوصاً في نفوس النساء من وراء الأبواب الموصدة حين يرخي الليل سدوله، عندما تهجع القرية، فلا تسمع من حولك إلا حفيف الرياح، ونباح الكلاب، ونقيق الضفادع، ونعيب البوم، وطقطقة الشجر، وصوت أقدام تحث الخطى على الطريق الترابي سرعان ما تختفي. أما الرجال فهم أقل كآبة من النساء حيث يقضون سحابة نهارهم في الغيطان بين الأشجار، وخرير المياه، وشقشقة الطيور، فإذا عادوا للبيوت وتناولوا العشاء

خرجوا يتسامرون، فإذا رجعوا للبيت ألقوا أنفسهم وناموا بعد أن أنهكهم التعب بالنهار والسهر بالليل..

٥ - انقلاب الشيخ أحمد

كانت المدرسة، التي التحق بها سيد، لصيقة ببيت العمدة، تتكون من أربع غرف كبيرة متراصة يقابلها فناءٌ واسع، طليت حيطانها بالجير الأبيض، وطليت أبوابها ونوافذها باللون الأخضر، وفـُرِش فناؤها بالرمل النظيف.. وفي وسطها انتصبت شجرتان ظليلتان يقال لهما "ذفن الباشا"، وفي غرفها دكك مرصوصة يجلس عليها الطلاب، وأمامهم قمطرة فيها الكتب والكراسات، وعلى الجدران علقت ألواح سوداء، يكتبون عليها بقطع الطباشير ما يشاءون. أما في ردهة المدرسة فكانت أعجوبة الأعاجيب: صوان مرتفع عريض من الخشب المتشابك، بداخله "زير" وضع تحته إناء من الصفيح يتلقى الماء المقطر. ويمتلئ الزير بالماء العكر، لكنه ينضح ما فيه، فيتحول، في إناء الصفيح، إلى ماء رائق كالبلّور، لم تذقه القرية قط. تلك هي "المزْيَرَة" الأعجوبة، والتي يحرسها الفراش، الذي كان أيضا يدرس الأولاد في السنة التحضيرية الأولى، وكان هو الذي يحمل أكواباً من الصفيح يملأها ماء رائقاً يقدمه بدون مقابل لمن يطلبه من التلاميذ.

ولقد كانت "المزيرة" سبباً في تهافت كثير من أهل القرية على زيارة المدرسة، لأن عهدهم بالأزيار في بيوتهم أن توضع على الأرض، فلا تلبث أن يغطيها فطر لا يقل اخضراراً عن لون شبابيك المدرسة وأبوابها، ولا يشربون إلا من جوفها بإناء من الفخار يسمونه "المنطال" خلدوه في أغنية صعيدية تقول:

عطشان يا صبايا... دلونى ع السبيل

أدى السبيل قدامك.. وعليه المناطيل

كان سيد سعيداً بمدرسته أيما سعادة، وفجأة في خضم هذه السعادة وقع انقلاب عظيم ارتجت له القرية ارتجاجاً، فقد تم الاستغناء عن سيدي الشيخ أحمد قارئ القرآن، صاحب الكُـتَّاب، الذي كان قد ترك كـتابه وراح يقرئ القرآن في المدرسة الجديدة. وانطلقت الإشاعات تهز القرية بأن الحكومة تريد محو القرآن بعدم تحفيظه في مدارسها، وسرت هذه الإشاعات سريان النار في الهشيم. قيل آنذاك إن مصدر الإشاعات هو سيدي الشيخ أحمد مقرئ القرآن، حسبما أكد شهود غير موثوقين.

أما من جانبي، فلست أؤكد هذا الخبر أو أنفيه، وذلك استناداً إلى شخصية سيدي الشيخ أحمد نفسها، الذي كان شخصية فكاهية، تمتاز بالطيبة الظاهرة والأصالة العريقة، يتصرف بتلقائية بدون لف أو دوران، محبوباً من جميع أهالي القرية ومحل ثقتهم، رجالا ونساء.. وبسبب وجوده بعث كثير من أهل القرية أولادهم إلى المدرسة. وعلى إثر خروجه منها غادر عدد عظيم منهم المدرسة.

ومن سوء طالع سيدي الشيخ أحمد، أن جاء إلى بيت الحاج قطب وحذره من بقاء سيد في مدرسة الكفر والضلال، التي من خلالها سوف تسرق الحكومة دين الأطفال وهم لا يشعرون، وأكد أنه ابتداء من الغد سوف يعود لكـتابه ويتولى تحفيظ القرآن فيه.

في حقيقة الأمر، لم يقتنع الحاج قطب بكلام سيدي الشيخ أحمد، فقد كان شخصية متنورة، وعضواً في لجنة الحزب الوطني، لكنه كان خجولاً ومجاملاً ولا يحب أن يجرح شعور أحد قصده في حاجة، ناهيك عن جرح شعور سيدي الشيخ أحمد.

على أي حال، وعد الحاج قطب سيدي الشيخ أحمد بأن الطفل من الصباح سوف يكون في الكـُتاب. ثارت زوبعة في المنزل وأصرت والدته على بقائه في المدرسة، لكن والده وعد، ولا يجوز أن يرجع الرجال في وعودهم. ولم يكن بد من

أن ينفذ سيد رأي أبيه ويتوجه منذ الصباح إلى الكتاب. ولك أن تتخيل ضيق صدر هذا الطفل واكتئابه وهو ذاهب إلى كـُتاب سيدي الشيخ أحمد. هذا الاكتئاب الذي لم يفلح أن يخفف من وطأته الحفاوة والبشر الذي استقبله بهما سيدي الشيخ أحمد، كما لم يفلح أن يخفف من وطأته إجلاسه بجانبه على الفروة التي يجلس عليها، بينما أجلس التلاميذ الآخرين على الحصيرة في وسط الكتاب، أو على المصطبة التي بجانب الجدار.

سرح خيال سيد، يقارن في صمت، بين مدرسته النظيفة الأنيقة، وبين ما يراه أمامه الآن: هنا لا يرى شيئا.. لا مقاعد، لا قماطر، لا حجرات، لا جرس، لا صفوف، لا كتب، لا كراسات، لا ألواح.. ما يراه فقط لوحاً من الصفيح يكتب فيه التلاميذ بحبر مصنوع من زهرة الغسيل، أو من هباب المصابيح، أو من رماد صوف الماعز المحروق.. أما طريقة مسح هذه الألواح فكانت بأن يتفل التلميذ على الكتابة ثم يدعكها بطرف ثوبه.

باختصار، لقد امتلأت نفس هذا الطفل اشمئزازاً مما رآه، وشعر بغربة مريرة ذليلة، وحينما عاد إلى المنزل كان قد صمم على ألا يعود إلى هذا المكان أبداً، مهما أصابه من التهديد والتبكيت، وأفضى بهذه الرغبة إلى أمه فشجعته على ذلك، بطريقتها الذكية دون أن تبدي ذلك صراحة.

وفي الصباح كان والده يعتقد أنه ذاهب إلى الكتاب، لكنه أخذ طريقه إلى المدرسة مهرولاً كأنما يتعقبه ذئب مفترس. وصل إليها مبكراً جداً، فلم يجد أحداً هناك. كان بابها لا يزال مغلقاً، فأسند ظهره على جدارها إلى أن توافد التلاميذ، ولما سألوه عن سبب غيابه بالأمس راح يشرح كيف وجد الكُتاب قذراً لا يطاق، وراح خياله المحموم يضخم الأمور أكثر مما هي عليه، وفجأة انقلب داعية إلى المدرسة ضد الكُتاب. وكان الناظر الذكي قد شم الخبر، فسأله وهو يعرف الجواب:

– قل لي يا سيد.. كنت غائب ليه امبارح؟

أخذ سيد يقص على الناظر، والدموع تنهمر من عينيه، ما قصه على التلاميذ قبل قليل، فطمأنه الناظر، ووعده بأنه سيذهب إلى والده اليوم لإقناعه بالبقاء في المدرسة، فاستراح كل الراحة، وحينما حان موعد الانصراف ذهب إلى الناظر ليذكره بوعده وكأنما الناظر كان بحاجة لمن يذكره، فأبلغه أنه قادم على إثره، وهكذا كان.

حضر الناظر مع زميليه إلى بيتهم وأقنعوا والده- وهم يحتسون الشاي ويأكلون الفطائر- بأن سيد تلميذ نبيه وهو خسارة في الكـُتاب، وأنهم ينتظرون له مستقبلاً طيباً في المدرسة، وأحس والده أن تلك الزيارة فرصته التي جاءته من السماء، ليزيح عن كاهله عذاب النفس الذي يحسه بسبب إجبار طفله على شيء لا يريده لا هو ولا والدته، وأيضاً ليتخلص بلباقة من إلحاح سيدي الشيخ أحمد، ويعتذر له عندما يأتيه بأن هؤلاء ليسوا من أهل البلدة وأنهم ضيوف، فاضطر إلى قبول رجائهم، وأعطاهم كلمة لا يمكن الرجوع فيها.

جاء سيدي الشيخ أحمد، كما هو المتوقع، وكان في هذا اليوم، له وجه غير الوجه الذي عرف به من قبل. كان من قبل سهلاً ليناً يسترضي الجميع ولا يصر على انتزاع شيء من أحد بغير طيب نفس. أما اليوم فإن على سحنته تعبيراً غريباً غير مألوف، وملامح صلبة كالصخر. حتى الشاي الذي كان مدمناً على شربه، والفطائر التي في مقابل فطيرة واحدة منها كان يعلم التلميذ أسبوعاً أو يزيد.. كل هذا لم يمد إليه يداً، وبقي كما هو موضوعاً أمامه.. لقد تأذى الحاج قطب من تأنيب الضمير الذي داخَلَه في هذا اليوم، وسوف يحتاج إلى زمن طويل حتى يتخلص من هذا الشعور المُمِض[٤] الأليم، كلما تذكر وجه سيدي الشيخ أحمد وتعابيره وهو يحاول، دون جدوى، استمالة الحاج قطب إرسال سيد إلى الكتاب ثانية.

---

[٤] مُمِضٌّ مُحْرِقٌ

عند ذلك، انصرف سيدي الشيخ أحمد وهو يحوقل ويستعيذ من رسل الكفر والضلال، وكانت نقمته على تلميذه الهارب أشد عندما وشى به بعض التلاميذ بأنه يشوه سمعة الكـُتاب ويحرِّض التلاميذ على تركه والالتحاق بالمدرسة، عند ذلك رفع سيدي الشيخ أحمد يديه حتى بدت يداه المعروقتان من أكمام قفطانه، وقال بطريقته المسرحية:

– الهي أشوفك يا سيد يا ابن قطب وأنت مِدَّلْدِل في حبل المشنقة من الكفرة اللي عمالك تدافع عنهم!

وانفجر الصبية مقهقهين.

والسؤال الذي لم أعرف له جواباً: هل الأقدار تبدي أية أمارات كي تـُخطِر أولئك المسوقين إلى مصير وجيع، أم تدعهم يتابعون طريقهم دون تخوف أو توجس إلى أن ينقادوا إلى مصيرهم انقياداً تاماً؟

***

كان سيدي الشيخ أحمد، إمام مسجد القرية، لين العريكة سهلاً، صاحب نكتة، حافظاً للقرآن الكريم، يشتهر بقدرته السحرية على فض الخصومات والنزاعات التي تحدث بين أهل القرية، كما يشتهر بفتاويه الظريفة، التي يتملص بها من أي سؤال محرج يوجهه إليه أحد المصلين. حدث ذات مرة أن سأله أحد المصلين عقب صلاة العصر:

يا سيدي الشيخ أحمد. أنت وقفت للعمدة لأنه ألقى السلام، ولكن العسكري لم يلق السلام، ولم ينزل حتى عن ظهر الحصان.. طب افرض يعني إن العمدة لم يكن موجوداً، هل يجوز شرعاً أن نقف للعسكري وهو لم يلق السلام؟

يرد سيدي الشيخ أحمد بلباقته المعهودة وهو شبه غاضب:

- يا ولدى الله يهديك .. الوقوف يكون واجباً عند قدوم ولي الأمر أو أتباعه، على مجالس المسلمين، والعمدة من أولياء الأمر، والعسكري من أوليائه، حتى الحصان تابع لولي الأمر.. ويعني ح تخسر ايه لما توقف؟ قف يبني الله يهديك"

ضحك رجل آخر وقال بخبث:

- يعنى يا مولانا لو فات علينا حصان الحكومة من غير عسكري برضه نقف؟

فلما أدرك سيدي الشيخ أحمد السخرية رد على السخرية بمثلها قائلا:

- أنت يَلِّلي بتضحك.. ألم تذهب إلى أسيوط؟ فقال الرجل: رحت!

فعاجله سيدي الشيخ أحمد بإجابته التي كانت حاضرة:

- طيب لما رحت ما شفتش ناس أسيوط المديرية، الناس المتعلمين، ماذا يفعلون حين يمر من أمامهم جحش عمدة أسيوط؟

صمت جميع من في المسجد، فبادرهم سيدي الشيخ أحمد بسؤاله:

- ألا يقف أهل أسيوط إذا مرَّ الحمار ولو لم يكن العمدة راكبه؟ أي والله. طيب اتقوا الله.. والسلام عليكم.. ويقوم خارجاً من المسجد.

ومن مواقفه الفكاهية أنه ذات يوم دعي إلى وليمة، فلما فرغوا من الطعام قال أحد المتعلمين "أكل طعامكم الأبرار، وأفطر عندكم الصائمون، وصلت عليكم الملائكة.." عند ذلك قاطعه سيدي الشيخ أحمد قائلاً: "إلا جبريل فإنه لا يصلي على المضيف حتى يقدم الشاي"!

وكان سيدي الشيخ أحمد إذا جلس على المصطبة أمام دكان الشيخ سعيد وسأله ماذا تشرب يا سيدي؟ رد عليه قائلاً:

ولست بشارب شاياً بقرش ... ولكن أشرب الشاي البلاشا

٦- الأفنديات في مدرسة القرية

على أية حال، لم تكن طبيعة سيد الهادئة، الشاخصة دوماً إلى عالم المثل، تميل لهذه النماذج العملية من الشيوخ، ولا يتمنى أن يصبح مثل أحدهم يوماً من الأيام، كان مصاباً بولع لا براء منه تجاه الأفنديات، أصحاب الطرابيش والسترات الاستانبولين، القادمين من البندر، وهم المدرسون الذين تخرجوا من مدرسة المعلمين بعد إتمامهم السنة الرابعة في المدارس. كان يعتقد أن هؤلاء الأفنديات يعلمون ما لا يعلم، ويدركون ما لا يدرك، لهم حياتهم الخاصة المليئة بالغموض والأسرار.

ها هو ذا طفلنا جالس في الفصل يستمع إلى عبدو أفندي الذي يدرس اللغة العربية. كان عبدو أفندي قد نسي ساعته في الدار، فانتدب سيد لاشتهاره بالأمانة، وأعطاه المفتاح ليذهب ويحضرها من على الطاولة التي بجانب فراشه. انطلق سيد يسابق الريح، غير مصدق نفسه بأنه يحمل مفتاح غرفة عبدو أفندي، اندفع إلى الطريق الترابي وهو يخرخش بالمفاتيح بيديه ويظهرها لكل من يقابله، حتى إذا وصل الدار، دخلها وهو متهيب متوجس كأنما يدخل إلى محراب مقدس، أو منزل مسحور مليء بالأسرار، وأخذ يصعد الدرج مبهور الأنفاس، ثم فتح باب الحجرة المقدسة، وشم هناك رائحة لذيذة تختلف عن رائحة الغرف التي يعرفها، وتناول الساعة وخرج وكأنه الشاطر حسن يخرج من داخل الكنز المسحور!

لقد أصبح سيد متيماً بحب المدرسة، بسبب وجود الأفنديات، وبسبب بنائها الأنيق وغرفها الجميلة، ولسبب آخر أيضاً، ألا وهو المتعة التي يشعر بها أيام فيضان النيل. فقد كان الماء يغمر القرية شهرين في العام، وتستحيل المدرسة إلى شبه جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات في هذين الشهرين، وتبقى الجهة الرابعة وحدها طريق الوصول. عندها يصعب على الأفنديات، الذين يسكنون البندر، أن

يحضروا للمدرسة مبكرين، خصوصاً يوم السبت من كل أسبوع، لأنهم يكونون في زيارة أهليهم في البندر، أما باقي الأسبوع فيبيتون في القرية، فلا يصعب عليهم الوصول إلى المدرسة مبكرين. كان المدرسون يوم السبت يستقلون المراكب والقوارب الشراعية، التي لا تصل غالباً، إلا بعد أن ترتفع الشمس، وتكون الساعة قد أشارت إلى ما بعد العاشرة صباحاً.

وهاهم أولاء التلاميذ صباح يوم السبت يقفون على الشط، ويقفزون في الهواء، ويتصايحون في فناء المدرسة، ويدخلون ويخرجون من الفصول كما يحلو لهم. يعتلون المقاعد ويتلصصون من النوافذ المطلة على مياه الفيضان، ولا يحسبون حساباً كبيراً لسيدنا عبد الله الفراش المتواجد وحده في المدرسة.

لقد أخذت سيد الدهشة من جرأة زميله العفريت مسعود النميس، عندما خلع ملابسه، وألقى بنفسه في الماء من النافذة، فسبح ثم تسلق نافذة الفصل، فلم يجد ملابسه التي أخفاها أحد زملائه مازحاً، فيدور التلميذ يبحث عنها وهو عريان في كل مكان في المدرسة حتى يهتدي إليها أخيراً.

ظلت هذه الحالة العابثة المرحة تسيطر على التلاميذ حتى لاحت مركب تتهادى في عرض الفيضان، وفي لمحة عين جلس كل تلميذ في مقعده، وأمامه مصحف أو كتاب يقرأ فيه، واستتب النظام وخفتت الأصوات. اقتربت المركب أخيراً، فتبين أنها فارغة ليس على متنها أحد من الأفنديات، عندها نفخ في الصور مرة أخرى، وعادت الضجة بأعنف مما كانت، وعاد القفز والوثب إلى الماء من النوافذ، وكان هذا المشهد الصاخب يتكرر صباح كل سبت طوال أيام الفيضان.

أما عبد الله الفراش، الذي كان محبوباً من التلاميذ جميعاً لطيبته وحنانه، ويلقبونه بسيدنا عبدالله، لأنه كان عريفاً في الكتاب، وظل يحتفظ بهذا اللقب مدى حياته، حتى بعد أن ترك الكتاب وأصبح فراشاً في المدرسة، كان ذلك الرجل

الطيب الوقور، سيدنا عبد الله، يراقب هذا الصخب ولا يحرك ساكناً، ولا ينتهرهم أو يوبخهم، إنما يتركهم يلعبون ويمرحون وكأنه غير موجود.

لكن على الرغم من هذه المتعة التي تجلبها المدرسة لطفلنا الصغير، إلا أن هناك أياماً لا تخلو من أحداث، تعكر صفو التلاميذ والمعلمين، وتكدر مزاجهم، وتلقي الذعر في قلوبهم، وتخلع على المدرسة ظلاً قاتماً وجواً خانقاً.

حدث في أحد أيام الخميس من نهاية العام أن كان الجو حاراً وخانقاً، وكان سيد يشعر بالاختناق والضيق، وينتظر قرع جرس الانصراف بلهفة. في تلك اللحظات المملة إذ بالضوء الذي كان يغمر غرفة الفصل قد انكسف، وكأن السماء قد تلبدت بالغيوم السوداء، فأذهبت ضوء النهار. نظر سيد حوله ليرى شيئاً مرعباً غطى النافذة! رأى رجلاً فارع الطول بوجه أسود، قاسي الملامح، حاد النظرات، ممتلئاً بالغيظ الكظيم. كان هذا "عبد العليم مدكور" مفتش الوزارة الذي كان قد أوقف حماره تحت نافذة الفصل وتسلق النافذة ثم قفز منها إلى داخل الفصل. ارتاع سيد وجمد الدم في عروقه، ولولا أن وضع الرجل طرف أصبعه السبابة على فمه، إشارة له بالتزام الصمت، لندت منه صيحة ذعر لهذا المنظر العجيب.

كان عبدو أفندي في تلك اللحظة، واضعاً طربوشه على قمطر التلميذ الذي أمامه، جالساً على مقعده في تراخٍ ظاهر، وقد أخذته تهويمة لذيذة، ولم ينتبه إلا على قول المفتش بتهكم وقد انفرجت شفتاه عن ابتسامة صفراء:

ما شاء الله.. ما شاء الله!

اضطرب عبدو أفندي، وقام يمسك طربوشه بيده، ويحاول أن يرتدي بدلته باليد الأخرى فلا يستطيع..

٧ – حرحور ومخاوف الفتى الصغير

كان طفلنا الصغير تسيطر عليه مخاوف كثيرة لم يستطع التخلص من آثارها حتى بعدما كبر. ففي بواكير حياته سيطرت عليه أسطورة العفاريت فقاومها وحاول التغلب عليها من خلال كتاباته التي نفى فيها السحر وهاجم الأولياء والمجاذيب وربط بينهم وبين السحرة برباط وثيق. ثم سيطر عليه خوف من "حرحور" ذلك اللص الفاتك، ولد الليل، الذي كان لا يتورع عن الفتك والقتل.

كان يمر ببيت حرحور إذا عاد من المسجد أو ذهب إلى بيت جده. وحرحور هذا رجل فارع الطول، عريض المنكبين، بشارب كث، وفم واسع، وشفتين سوداوين، وعينين ناريتين، دائمتي الاحمرار، ووجه أسمر طويل، برز شدقاه، يعتمر دوما لبدة صوف وشملة لا يخلعهما، صيفاً ولا شتاء، يجلس أغلب الأوقات على مصطبة بيته وبجانبه النبوت أو مغزل الصوف. ومن باب بيته المفتوح، تشاهد امرأة غجرية تبصبص بعينيها وتبتسم للغادين والرائحين.

في هذا اليوم عندما نظر سيد إلى حرحور، تذكر قول أمه وبعض النسوة في بيتهم، بأن بنات حرحور وزوجته الغجرية يخطفن الرجالة، وأن شقيقه إبراهيم، الذي يحبه كثيراً، كان يتردد على هذا البيت اللعين الذي أفسد أخلاقه ولحس دماغه.. لقد امتلأت نفسه بالكراهية لهذا المخلوق الجالس على المصطبة الآن، وأمامه كأس الشاي المغلي الذي صار حبراً، يرتشف منه على مهل بشلاليفه السوداء بصوت ممدود ومسموع. لقد صوَّب سيد إلى هذا المخلوق نظرة تمتلئ بغضاً ومقتاً، ظناً منه أنه بهذه النظرات يخيفه، ويُشْعره بمدى ما تنطوي عليه نفسه من الاشمئزاز والنفور منه بسبب إفساده أخلاق أخيه إبراهيم، لعل وعسى يرعوي ويكف هو وبناته وزوجه عن استقبال أخيه في بيتهم. لكن هذا الشيطان أدرك مرامي نظرات سيد، فإذ به يضحك بخبث قائلاً له بعدما تجاوزه بخطوات:

– ابقى اتوصى بينا في الجنة، يا عمنا سيد، علشان احنا برضه بلديات!

ثم ضحك ضحكة تألم سيد لجفافها ووقاحتها.

منذ هذا اليوم سيتحاشى سيد المرور بهذا البيت اللعين، حتى بعدما كبر وغادر القرية، كان يتمنى أن يقابل الشيطان ولا يقابل هذا المخلوق البغيض.

شاهد سيد ذات يوم حرحور في أحد الأفراح، عندما بدأ الطبل يدق وقد اندفع من بين الرجال إلى الحلبة حاملاً عصاه، يريد أن يبارى قائلاً: "سو"، ورد عليه حامل الطبل "سو"؛ ودق على الطبلة إيقاعاً راقصاً، فرقص حرحور بعصاه رقصة رصينة لا تتحرك فيها إلا قدماه، وأخذ يستعرض مهارة تحكمه في العصا. فلما انتهى انبرى له "صميدة" وقبل التحدي، وكان لصاً مثله. وقف الاثنان كل منهما يواجه الآخر وعصاه مدلاة يلامس طرفها الأرض. ثم دق الطبل دقة قوية إيذاناً بالقتال، ومن وراء ظهور الرجال انطلقت زغاريد النسوة، فرفع كل منهما عصاه مادًّاً بها ذراعه إلى أقصاه، وبدأا في الدوران مشياً إلى الخلف، ثم زادت سرعة دورانهما حتى كادت أن تكون جرياً. وفى لحظة خاطفة اندفعا إلى وسط الحلبة والتحما وبدءا الضرب بالشوم[٥].

بدا للمتفرجين، أن كلاً من حرحور وصميدة، يريدان النيل من بعضهما البعض. وكان حرحور يصد الضربة بعصاه ويردها كيفما استطاع، مصوباً هدفه نحو رأس صميدة، لكنه لم يصبه.. كما أن صميدة لم ينل من حرحور شيئاً، فقد كانا صديقين ومتواطئين. كان جسماهما يدور مسرعاً ومبطئاً، يتقدم ويرتد، يلف ويقفز ويلتحم، وتصاحبه العصا متناسقة مع حركات الجسم ومناوراته، فهي تلف وتدور، تعلو وتهبط، تهاجم وتدافع، في مناورات توهم الخصم بالضرب، وليس الضرب غايتها، إنما تستدرجه إلى مواضع تبدو فيها ثغرة فتكون الضربة الحاسمة.

---

[٥] الشوم: العصا الغليظة.

وبلغت مهارة حرحور قمتها عندما كشف رأسه مرات متحدياً صميدة، وهو واثق أن عصاه ستأخذ موقعها الدفاعي قبل أن تنقض عليه عصا صميدة.. وكان الواقفون، بين الفينة والأخرى، يحبسون أنفاسهم أمام هذين الممثلين البارعَين.

إن "التحطيب" أو النزال بالشوم، ليس قتالاً بل إعداد الناشئة للقتال. لهذا يعلّم الآباء أبناءهم تقاليد هذه اللعبة وقواعدها وهم بعد صغار لا يحملون الشوم بل البوص وسعف النخيل.. وما فتئت القرية تدرب أولادها وهم صغار على ما سيحتاجون إليه حينما يكبرون. تقدم لهم ألعاباً قاسية لتحصنهم ضد قسوة الحياة الجادة، كما يُلّقح الجسم بالميكروب ليتحصن ضد الإصابة بمرضه.

ومن حين إلى حين تجد الطاقات المكبوتة تتفجر معبرة عن وجودها، في معارك هستيرية بين العائلات ينتحلون لها أتفه المبررات. جحش قضم بصلة مثلاً. فيتنادى أصحاب الجحش وأصحاب البصل في شجار في الغيطان أو الحارات.. فإن يكن في الغيطان فسلاحهم العصي من جريد النخل أو الشوم، وإن يكن في الحارات فالنساء من فوق الأسطح يقذفن الطوب، يضربن ولا يصبن. وتتخابط العصي وقلما تصيب، كأنهم في مباراة تحطيب، ويصيح كل فريق بالفريق الآخر:

– روح يا ولد الكلب اجري من قدامي لحسن نكسر راسك!

وينهمر سيل من البذاءات والمعايرات والتهديدات والشتائم، يصاحبها صراخ النسوة وبكاء الأطفال الذين يتفرجون إلى أن يحضر سيدي الشيخ أحمد حاملاً بيرق الأشراف، يرفعه فاصلاً بين العائلتين، وهو يدعوهم إلى حفظ دماء المسلمين. فيهدأ الجميع بعد أن تكون الطاقات المكبوتة قد استنفدت في تشنجات هستيرية. فتطمر الجروح بمسحوق البُن أو التراب، وينسون جميعاً قصة الجحش والبصلة، ويقضون بقية نهارهم في حديث عن وقائع المعركة وكيف كانوا جميعاً منتصرين!

لقد تعلق سيد بلعبة التحطيب منذ صغره، فاستولت على فؤاده وامتزجت بنفسه.. كان يتمنى أن يمارس هذه اللعبة، أما وإن أمراض جسمه حالت دون

ذلك، فإنه سيمارسها بعدما يكبر كأفضل ما تكون الممارسة وكأعنف ما يكون العنف، ولن يجرؤ أحدٌ على الوقوف أمامه أو تحديه، كما سنرى لاحقاً.

٨- شغف خاص

منذ بداية وعي سيد استبد به شغف بكل ما هو غامض ذو طابع خاص؛ كأن يرى أن حفظ تلميذ من مدرسة القرية للقرآن الكريم شيء ذو طابع خاص؛ لأن المتعارف عليه أن الكـُتاب يعتني بتحفيظ القرآن، بينما المدرسة تهمله، ولا تجد تلميذاً من تلاميذ المدرسة يحفظه، وكي يتميز سيد بهذا الطابع الخاص أرهق نفسه، وراح يسهر الليل إلى منتصفه يحفظ القرآن، بجانب الدروس الأخرى، وما كاد العام يكتمل حتى حفظ ثلث القرآن، حفظاً جيداً، يباهي به من يتحداه، وفي نهاية السنة الرابعة كان قد حفظ القرآن كله، وهو لا يزال طفلاً في العاشرة.

وفي دائرة الشغف ذي الطابع الخاص كانت تقع حياة الأفنديات الخاصة المليئة بالغموض والأسرار، أولئك الأفنديات الذين كانوا يعلمون ما لا يعلم، ويدركون ما لا يدرك. وفي دائرة الشغف ذي الطابع الخاص كان الفيضان الذي يحدث في شهرين من السنة في كل عام. وفي دائرة الشغف ذي الطابع الخاص جاء أخيراً التحاق سبع بنات بالمدرسة عام ١٩١٦. والتحاق أولئك البنات السبع، أضفى على المدرسة جواً خاصاً. ومع أن هؤلاء البنات صغيرات لا يتجاوزن العاشرة، ولا يتميزن بشيء خاص عن بقية بنات القرية إلا أن مجرد وجودهن في المدرسة، أوجد فيها جواً غريبا، وسحراً خاصاً.

كانت "ثريا" إحدى هؤلاء البنات التي استحوذت على قلبه، وهي فتاة خمرية اللون، حيوية النظرات، رشيقة الحركات، ناعمة الصوت، لماحة وذكية، ذات خَفَر[٦] وحياء، ذكرها فيما بعد في إحدى قصائده:

---

[٦] الخَفَر شدة الحياء

في خفة الطير، في نضرة الزهرِ
لاقيتها عَرَضَاً، بسامة الثغر
فتانة تغري، بالسحر والطهر
تهفو فتحسبها، لحناً هفا يسري
أسكرتِ وجداني، من لونكِ الخمري
عجباً لما ألقى من لغزكِ السحري!

ولقد أبدتْ ثريا اهتماماً خاصاً به، لكونه تلميذاً مؤدباً يدافع عن كرامة البنات عند تعرضهن للكلمات النابية، أو الحركات العابثة من أولاد المدرسة، وهذا ما جعله شهماً في نظرها ونظر الفتيات جميعاً. وفيما بعد، سوف تكثر زيارات ثريا لبيتهم مع ابنة عمه، برفقة البنات الأخريات لصداقتهن مع أخته «سميحة»، التي لم تكن هي المقصودة بالزيارات حسبما صرح بعد ذلك. والجدير بالقول أنه لم يتبادل مع ثريا، خلال تلك الزيارات ولو كلمة واحدة، إنما هي زيارات خاطفة، إلا أنها تركت في نفسه أثراً لا يَمَّحِي.

كانت طاحونة عويس خربة معطلة، وزاد خرابُها في وحشة منظرها، خاصة في الليالي غير المقمرة حينما يسود الظلام، فاستقر في الأذهان أنها مسكونة بالعفاريت.. كانت هذه الطاحونة إحدى الطواحين الكثيرة العتيقة في القرية، والتي كان البقر هو الذي يستخدم فيها غالباً، وقد بَطَل العمل فيها عندما أنشئت المطاحن الآلية. ومنذ ذلك الحين تحولت المطاحن العتيقة إلى أوكار للُّصوص والقتلة وأولاد الليل، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منها ليلاً، ونسج الناس حولها الكثير من الأساطير.

وفي القرية كل شيء كان يوحي بأسطورة العفاريت: الظلام الذي يخيم عليها بعد الغروب، فتصبح شوارعها مظلمة حالكة الظلام، فلا يرى السائر فيها موضع قدمه، ولا يأمن أن يصطدم في كل خطوة بمجهول. وطرقات القرية المتعرجة كمسار الثعبان، بحيث لا يدري السالك ما وراء كل ثنية وكل منعرج إن كان أمناً وسلاماً، أم شراً وعدواناً، فهو أمام كل ثنية يتوقع مجهولاً غير مأمون، وساعد في ذيوع أكذوبة العفاريت ما شاع عن الأولياء بأن لهم القدرة على ربط العفاريت وتقييدها، وتناقلوا عنهم خوارق ومعجزات أصبحت كأنها بديهة من البديهيات.

والحقيقة أن سيد كانت لديه عقدة خوف من العفاريت مما جعله يهاجمها ويسخر منها بعدما كبر، لكن برغم هذا الهجوم وهذه السخرية إلا أنه ظلت في نفسه بقايا خوف راسبة من هذه العفاريت. تلك العفاريت التي كانت هي السبب في وفاة صديقه "جمعة"، ذلك الطفل السمين الساذج الوديع، طيب القلب، بخدوده المنتفخة المشربة حمرة، وعينيه الواسعتين الساذجتين، وصوته الناعم. كان جمعة يتيم الأم، تولت جدته "خضرة" تربيته والعناية به، وكانت جدته تقضي يومها في بيت الحاج قطب تساعد زوجته في أشغال الدار.

حدث ذات ليلة قمراء أن خرج سيد ورفاقه بعد الغروب ليجلسوا فوق المصطبة بجانب البيت الطيني المهجور، أمام طاحونة عويس.. ومن بيوت القرية ارتفع دخان الكوانين الذي يحمل رائحة الروث الجاف المحترق ورائحة الملوخية الجافة والبامية والحميض.. واطمأنوا بالقمر الساري المنير، والسكون الشامل في القرية.. وكان أحدهم يقص حدوته، تلك الحدوتة التي جعلتهم مستغرقين فيها كأنهم أطياف صغيرة.

في تلك الأثناء قفز أمامهم من نافذة الطاحونة العالية قط أسود وانطلق مسرعاً، وما كان من الصبية إلا أن ركضوا في كل اتجاه مذعورين يتصايحون بصوت واحد: عفريت!

سقط جمعة مغشياً عليه كالأموات، ثم حملوه وهو جثة هامدة إلى بيته، فطرقوا الباب وفتحت جدته خضرة لتستقبل حفيدها جثة، وهي مضطربة مذعورة، وعبثاً حاولت أن تستعيد الجدة المسكينة لحفيدها عافيته بكافة الوصفات؛ فقامت برش الملح عند المصطبة التي كان جالساً عليها، ولجأت إلى الأولياء، وأقامت حفلة زار، وأخذ الطفل يهزل يوماً بعد يوم، وبعد ثلاثة أشهر كان قد فارق الحياة.

وسار سيد في جنازة رفيقه يبكي، وكانت هذه أول جنازة يشهدها في حياته، وحُفرت هذه الحادثة في ذاكرته لا تمّحِي، ولم يعد إلى الجلوس على تلك المصطبة إلا بعد مضي ثلاث سنوات، حينما بلغ العاشرة، وصارت له في العفاريت عقيدة جديدة.

٩ – الموالد والأعياد

القرية كلها في حركة غير مألوفة.. غصت الشوارع والأزقة بالرجال والنساء، الفلاحات في ثيابهن الداكنة فرحات مستبشرات، والفلاحون بجلابيبهم الواسعة الرمادية والسوداء والزرقاء.. فاليوم هو المولد النبوي، وبعد العصر جاء موكب القراء تحملهم عربة حصان، ونزلوا أمام بيت الحاج قطب كي يحيوا هذه الليلة مثل عادتهم في كل عام.

جلسوا في دوار البيت وقدمت لهم صينية عليها أبريق شاي وأبريق قرفة قبل شروعهم في التلاوة، وبعد المغرب قدمت لهم وجبة طعام من اللحم والأرز والفاكهة، فأكل بعضهم في احتشام وحياء، وأكل بعضهم في نهم وجشع، ثم وزع الباقي على الفقراء الذين حضروا إلى البيت.

في الحقيقة لم ترق لطفلنا طريقة بعض القراء في الأكل، فقال إن بعضهم كان يقسم الرغيف الكبير إلى أربعة أقسام، ويغمس كل ربع في صفحة الطعام بجشع

ونهم، بحيث يبتلع أكبر قدر ممكن من الإدام، ثم يرفعه والسمن يسيل على كفه وكراعه، وينقط على ملابسه، ثم يقذفه في فمه الواسع، بينما تكون يده مشغولة بتحضير القضمة التالية.. وهكذا حتى يصل إلى الرغيف التاسع أو العاشر في مثل لمح البصر، وكانت الفاكهة توزع عليهم بسخاء حتى ليبلغ نصيب أحدهم رطلين.

هكذا وصف سيد القراء في كتابه "طفل من القرية"، وأغلب الظن أنه كان يتأسى بالدكتور طه حسين في هجومه على القراء في كتابه "الأيام"، حتى لكأن سيد بهذا الهجوم يرد الجميل للدكتور طه حسين، حينما وقف بجانبه في الأزمة التي نشبت بينه وبين وزير المعارف "أحمد نجيب الهلالي" عام ١٩٤٢ مما اضطر سيد لتقديم استقالته، ولكن طه حسين تدخل وأقنع سيد بالعدول عن هذه الاستقالة، والذهاب للتفتيش في مدارس الصعيد ريثما تهدأ الأزمة.

بلا شك أن طائفة القراء في القرية كانت محسودة، لأن قارئ القرآن كان مكفول الرزق معظم أيام السنة، وهو يظفر من الطعام بما لا يظفر به كبار أثرياء القرية في كثير من الأحيان، ثم هو ينال بعد ذلك كله أجراً قد يبلغ خمسة قروش في كل ختمة. ولم تكن ليلة المولد النبوي هي كل الأيام السعيدة في حياة القراء، فقد كانت سهرة رمضان موسما طويلا سعيدا لطائفة القراء، فأكثر من عشرين بيتا في القرية كانت تقيم هذه السهرة، التي يحييها ما بين الأربعين والستين قارئا، ثم يتناولون في كل ليلة سحورا فخما.. كذلك في المآتم، ويوم عاشوراء، وفي العيدين، وفي اليوم السابع والعشرين من رجب..

كان القراء إذا صلوا الفجر، جلسوا في دوار البيت يتلون القرآن بصوت خفيض حتى تطلع الشمس، وعندئذ، يقدم لهم طعام الإفطار، وغالبا ما يكون من الأرز المطبوخ باللبن، أو من العسل والجبن مع خبز القمح في بعض الأحيان، أو مع الفطائر في أحيان أخرى، ثم يظلون يقرأون القرآن إلى قبيل الظهر، فيخرجون إلى الصلاة، ثم يعودون ليجدوا غداء من خبز القمح ومن الجبن والعسل، فيأكلون

ثم يقيلون إن كان الوقت صيفا، أو يستريحون قليلا ويشربون الشاي والقرفة والحلبة إن كان الوقت شتاء، ثم يذهبون إلى صلاة العصر أو يصلون في البيت، ثم يعودون للبيت، فيظلون يقرأون القرآن إلى المغرب بصوت عال يسمعه معظم أهل الحي.

كان الشيخ "عبد الفتاح الشرقاوي" يأكل في تعفف وأدب، وهو أشهر قراء القرآن الذين ذاع صيته في هذه القرية وكل القرى المجاورة.. كان ندي الصوت، قمحي اللون، أقرب إلى السمرة، فارع الطول، طويل الوجه، حليق اللحية، كأنه أفطس الأنف، واسع الفم، عريض الشفتين، صغير العينين. وعلى الرغم من هذه الصفات التي لا تكون معياراً مثالياً للجمال عند البعض، إلا أنك لا تشبع من النظر إلى وجهه خصوصا وهو يقرأ القرآن، فقد كان يتحكم بطبقات صوته بشكل مدهش عجيب، وكان إذا شرع في تلاوة القرآن، تراءى لك عالم آخر غير العالم الذي تعيش فيه، تراءى لك عالم من السحر والجمال، وتراءت أمامك أنهار وبحار وأشجار تشدو عليها طيور، وتراءت أمامك مروج خضراء يغلفها الضباب، وشعرت بأن صوته ينساب إلى داخلك انسياب الماء الرقراق على الصخرة الناعمة، بلا مشقة ولا نتوء ولا اضطراب..

كانت والدة سيد تتسمع من وراء الشيش لتلاوة الشيخ عبد الفتاح الشرقاوي، وكانت تزجر سيد إذا نَدَّت منه حركة أثناء تلاوته، وكان الخدم في البيت يحرصون على عدم الإتيان بأي حركة تزعج استغراقها في الاستماع، وإن كانوا لا يفهمون ما يقرأ، وكان أهل القرية المتواجدون في الدوار ينصتون بخشوع إلى تلاوته ويرددون: "الله الله.. ربنا يفتح عليك كمان وكمان".

بعدما كبر سيد لم يزل يشعر بالأسف لأن الفونوغراف لم يكن معروفاً لديهم آنذاك، كي يسجل هذا الصوت الآسر للشيخ عبد الفتاح الشرقاوي. إنه كثيراً ما يستبد به الحنين إلى سماع صوته ولو في قراءة آية واحدة، وكثيراً ما يشعر بنفسه إلا

وهو يدندن بصوت أقرب إلى صوت الشيخ عبد الفتاح الشرقاوي، ثم يختفي سريعاً مثلما جاء سريعاً. كان قديماً يزعم، جهلاً منه، أن هؤلاء القراء ينالون أكثر مما يستحقون، لكنه أدرك بعد فوات الأوان أن كل ما كانوا ينالونه ما هي إلا أشياء تافهة لا تساوي سماع آية واحدة يتلوها الشيخ عبد الفتاح بصوته الحنون الرقراق وكأنه آتٍ من الفردوس.

وقع صباح ليلة المولد النبوي حادث غريب من نوعه في بيت الحاج قطب، يبين شغف سيد وولعه بكل شيء ذي طابع خاص، وقد أخرت الحديث عنه لأنه بحاجة إلى توضيح وتفصيل:

ففي الصباح التالي ليوم المولد النبوي بقيت أصناف متعددة من الطعام في المنضرة بعدما أكل القراء، واجتمع أفراد العائلة في الضحى لتناول طعام الإفطار، فأكلوا شيئاً من اللحم مع الجبنة والخبز، وتناول بعضهم شيئاً من البطيخ.. ولم تمض ساعة حتى انتابهم مغصٌ وقيء ودوار، وأخذ والد سيد وأمه وأختاه تظهر عليهم دلائل التسمم واحداً بعد الآخر، وارتفعت صيحة واحدة تقول: (الأكل مشموم) يعني زحفت عليه بعض الزواحف كالبرص والثعابين.

انتشر الخبر في جميع أنحاء القرية، وبدأ الناس يفدون إلى بيتهم أفرادا وجماعات، وازدحمت الدار، على سعتها، بالوافدين من الرجال والنساء. أما والده فكان قد فرش له في الدوار المستقل عن قسم الحريم، وأما والدته وأختاه فكن في قسم الحريم، الذي لم يبق فيه موضع قدم لكثرة الزائرات والعائدات. أما الخدم فلم يفرش لهم لا في قسم الحريم ولا في الدوار، لأنهم ببساطة شديدة أكلوا من نفس الطعام فلم يتأثروا إطلاقا!

بسبب ذلك، افترض البعض أن السبب هو الحسد؛ لأن هذه العائلة محسودة على مستوى معيشتها، وعلى كمية اللحم والسمن التي يستهلكونها، وعلى أصناف

الفاكهة التي يشترونها. وهذه الخيرات لابد أن تثير أحاسيس الحسد في نفوس أهل القرية، وهم في ذلك معذورون.

الغريب أن سيداً كان سعيدا وهو يرى الغادين والرائحين والخارجين والداخلين، ويرى اهتمامهم به وهو الولد الوحيد لهذه العائلة.

ومن بين هذا الجمع استولى على اهتمامه رجل أنيق نحيف، أبيض البشرة، يرتدي جلبابا أبيض نظيفا، مفصلا على طريقة أهل البندر، لا على طريقة أهل القرية، وينتعل في قدميه النظيفتين شبشبا بادي الأناقة. كان هذا الرجل "فرغلي أفندي"، حكيم القرية الذي كان يأمر وينهى في رفق ولطف وظرف، ثم يقوم بإذابة مادة في كمية من اللبن ليشربها المرضى.

وفرغلي أفندي تومرجي تم فصله من مستشفى البندر، فافتتح عيادة في غرفتين نظيفتين فوق دكانين في سوق القرية، وكانت تحيط به هالة من الغموض والسحر، واعتقد أهل القرية أنه لا يعجزه شيء في الطب؛ فهو يعالج أمراض العيون، وأمراض البطون، وأمراض الصدور، ويجبر كسور العظام، وينظف خراج الدمامل.. شيئا واحدا لم يكن يقدم عليه وهو بقر البطون وتشريح الجثث، لم يكن ذلك عن عجز- لا سمح الله كما يتناقل أهل القرية- إنما عن رقة قلب وعمق إيمان!

ولم يكن فرغلي أفندي يتقاضى أتعابا كبيرة، إنما قرشا أو قرشين بما في ذلك ثمن الدواء، وكانت هذه القروش تكفي لمعيشته وزيادة لأنه يبيت في عيادته التي لا يدفع مقابل أجرتها شيئا، ثم هو لا يتناول الطعام على حسابه، إنما هو كل يوم ضيف عند أحد أصدقائه المتنورين الذين يؤمنون بالطب الحديث، وما أكثرهم في القرية.

وبعدما تم على يديه شفاء الحاج قطب وأسرته من التسمم، طارت شهرته وذاع صيته، واقبل عليه الكثيرون حتى من غير المؤمنين بالطب الحديث.

١٠ – حملة صيد العفاريت

بعد غروب شمس يوم الخميس اجتمع في المدرسة سبعة أشخاص، وبعدما زحف الظلام خرج هؤلاء السبعة، وهم "حسن البندراوي" يرافقه سيد وخمسة من التلاميذ الآخرين، وساروا في الطريق الطينية المتربة التي بللها الندى، وهبت ريح ناعمة حركت سعف النخيل، ونقلت إلى أنوفهم رائحة طحالب الترع من حولهم، ورائحة دخان أعواد البوص الذي أشعلته فلاحة لتجهز الطعام، ووصل إلى أسماعهم نقيق الضفادع في البرك.. راح الجمع يتوغل ناحية "الضرب الضيق"[٧] يقدمهم الناظر. هناك رُوِّع التلاميذ عندما استقبلتهم عيون كثيرة؛ حمراء وزرقاء تتوهج في الظلام، كانت هذه العيون تقفز وتثب وتجري هنا وهناك، وتمر بين أقدامهم، وتتمايل عن أيمانهم وعن شمائلهم.. كانت تلك أرانب، لكنها بلا شك عفاريت جاءت بصورة أرانب! ذعر التلاميذ وبدأت تند منهم كلمات وصرخات تدل على مدى ذعرهم، وعند ذلك صاح بهم الناظر:

– هذه أرانب حقيقية لا تخافوا، اقبضوا على واحد منها.

تمكن الناظر ومن معه من القبض على أرنب، فأعلن انتهاء الحملة والعودة إلى المدرسة.

كان سيد يتوقع، بل بالأحرى يتمنى، في كل لحظة أن ينقلب هذا الأرنب عفريتا، أو قطا، أو كلبا، ثم يفلت من بين أيديهم، فقد كان الحديث عن العفاريت، برغم خوفه منه، له لذة محببة إلى نفسه، وسوف يجدون في هذا الحادث– إن حصل– لأشهر قادمة، مادة مثيرة لسمر الليالي..

[٧] الضرب الضيق: عبارة عن حجرة تبرع به أحد أفراد القرية لفتح طريق، فأزيلت جدران الحجرة وبقي السقف، وكان هذا أضيق مكان في الطريق، ولذلك سمي الضرب الضيق.

لكن واأسفاه فإن الأرنب لم ينبس ببنت شفة، ولم يتحول إلى شيء آخر، إنما بقي أرنبا كما هو، وتم وضعه في فصل من فصول المدرسة، وفي الصباح جاء صاحبه واستلمه وانتهى الأمر.

بعد ذلك تشجع سيد في اجتياز شوارع القرية بعد العشاء، وأخذ يصلي في المسجد تشبها بالرجال.. كان آنذاك في العاشرة من عمره، وكان لا يسير إلا وفي جيبه علبة ثقاب، وغالبا ما يجلس بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة أمام دكان الشيخ سعيد مع أولاد الحارة، يراقب الصبية الذين يكبرونه وهم يتخاطفون سيجارة، أو يرصون كرسي معسل، أو يتراهنون على كسر أعواد القصب بسيف اليد، أو يتراهنون على أكل قطع الصابون وشرب الجاز..

وحدث ذات ليلة أن كانت أمه وأخواته في عرس سعاد ابنة عمته، ونسيت أمه شيئا من أشيائها في المنزل وأرادت إحضاره، فتطوع سيد وذهب لإحضاره، ولما وصل إلى الدرب الضيق، سمع صوت اصطدام في قوالب الطوب المرصوصة هناك، ثم نظر فرأى وهجا يوصوص من فتحات الكومة، فاخرج علبة ثقاب وهو خائف وجل، فأشعل عودا فاختفى التوهج وسكنت الحركة، فلما انطفأ العود عادت الحركة، وتسمرت رجلاه في مكانهما من الذعر، فلم يجرؤ على التقدم أو التأخر حتى طال الوقت، وأخذ يشعل أعواد الثقاب في سرعة متتابعة، وعند ذلك أدركته عناية الله، فجاء رجل من جيرانهم، تصادف مروره من نفس الطريق فسار معه..

عموماً فإن الفضل في شجاعة هذا الطفل ترجع لهؤلاء الأفنديات الذين خلصوه من العفاريت، وخصوصاً "حسن البندراوي" ناظر المدرسة، ذلك الشاب المثقف الذي أحبه سيد فصدقه ووثق به، وصحبه في هذه الرحلة الاستكشافية عقب ما أخبره بعض التلاميذ أن هناك عفاريت تظهر بصورة أرانب في الدرب الضيق بعد منتصف الليل، فوجد الناظر الفرصة سانحة ليخلص التلاميذ من

الاعتقاد بالعفاريت، وطلب منهم أن يرافقوه ليلا إلى الدرب الضيق، ووافق ستة منهم من ضمنهم سيد.

لكن على الرغم من هذا كله فإن الخوف من العفاريت كان أعمق في نفس هذا الصبي من أي ثقافة تعلمها، وستظل العفاريت التي رافقت طفولته وصباه، ترافق خياله على مدى الحياة.

١١- كُتب الأسرار

وصل "عم صالح" إلى القرية حاملاً على كتفه زكيبة حافلة بالكتب، وجلس يرصها في سوق القرية. كان عم صالح رجلاً في الأربعين، متوسط الطول، ربعيّاً أقرب إلى النحافة منه إلى الجسامة، يرتدي دوما جلابية بنية وطاقية بيضاء، بشارب محفوف، ووجه مدور، ولون أقرب إلى لون الكاكاو.. تعلم في الكُتاب وحفظ بعض السور، لكنه لم يداوم على الحفظ، فترك الكُتاب وعمل في فلاحة الأرض، ولم يكن له غيط يعمل فيه فاشتغل عند الفلاحين ثم ترك الفلاحة، وبدأ يتاجر في الكتب.. كان صارماً لا يتنازل ولا يتهاون ولا يتعاطف، لكنه يفي بوعده إذا وعد.

أفرغ عم صالح زكيبته التي تحتوي على قرابة ثلاثين كتاباً، وأخذ يرصها صفوفاً صفوفاً، حسب قيمتها المادية، وأحيانا يرصها حسب موضوعاتها.. ومن بين هذه الكتب: البردة، وسيدي إبراهيم الدسوقي، والسيد البدوي، والأميرة ذات الهمة، وسيدي محمد البطال، ودلائل الخيرات، ودعاء النصف من شعبان، ودعاء ليلة القدر، وشرلوك هولمز، وسنكلر، واللص الشريف، والتحلية والترغيب في التربية والتهذيب، وبدائع الزهور في وقائع الدهور، والنحو الواضح، وعنترة أبو الفوارس، وألف ليلة وليلة..

يمكث عم صالح في القرية ثلاثة أيام أو أربعة حتى يبيع ما لديه من كتب، وقد أصبح سيد زبوناً دائماً عنده، وطوال الشهر يدخر مصروفه لهذا اليوم الذي يأتي فيه للقرية بالكتب المختلفة، فإذا لم يف المصروف بثمن الكتب، استعان بوالده الذي يدفع له ما يريد عن طيب خاطر.

في إحدى زيارات عم صالح للقرية، علم سيد أن لديه كتبا سرية لا يكشفها إلا للخواص، وهي كتب السحر أمثال: أبو معشر الفكي، وشمهورش، وشمس المعارف الكبرى للبوني.. ومن العسير على سيد أن يطلب هذه الكتب، أو يفاتح عم صالح بهذا الأمر. لك أن تتخيل شعور إنسان محترم يشتري من بقال أشياء عادية يعرضها على رفوف بقالته، ثم يعلم أن هناك أشياء لا يعرضها ويتكتم عليها كالخمور، فيأتي هذا الزبون، الذي يشهد له الجميع بالاحترام، ويطلب من البقال زجاجة خمر! هكذا كان شعور سيد عندما فاتح عم صالح برغبته في هذه الكتب، عند ذلك صوب عم صالح إليه نظرة طويلة، ولمعت في عينيه الصغيرتين نظرة شيطانية، ولاحت على شفتيه ابتسامة ظفر، ثم قال:

- لكن هذه الكتب غالية الثمن!

فرح سيد بهذا الرد، فقد اجتاز العقبة الكبرى، وبدت الصفقة قريبة، فقال:

- سأدفع لك ما تريد!

زادت سعادة عم صالح، فقد عثر أخيراً على صيد سمين، وتمنع قليلا حتى يوهمه أن ما لديه من الكتب خطير ثم قال:

- لكن يجب أن تعطيني عهدا ألا تستخدم هذه الكتب إلا في الحلال وما يرضي ربنا!

تنفس سيد الصعداء فقد تمت الصفقة أخيرا، وحصل على الكتب، ولم تكف مدخراته، التي ادخرها طوال الشهر لهذه الكتب، فاستعان بوالده فأعطاه خمسة

قروش وهي ليست بالمبلغ اليسير في ذلك الحين، وعاد سيد بهذا الكنز الثمين، الذي لم يحالف الحظ أحداً من أقرانه بالحصول على مثله، وانكب على هذه الكتب يقرأها بنهم شديد.

وهكذا، من نافذة الثقافة التي ظن أنها ستخلصه من العفاريت، من تلك النافذة تسللت إليه العفاريت مرة أخرى.. تلكم هي عبقرية العفاريت التي تغير جلدها، وتبدل سمتها، كي تلاءم العقول جميعا في كل زمان ومكان.

لا شك أن هذه المؤلفات، التي شاعت في تراثنا الإسلامي، كتبت بذكاء وخبث ودهاء، يمكنه أن يغرر بأشد العقول ذكاء، ولا شك أن من قام بكتابتها فريق محترف من الزنادقة والدهريين.

كان كتاب "أبو معشر الفلكي" كتابا في التنجيم، يكشف عن الحظوظ البخوت، ويقدم لكل إنسان معلومات عن صفاته وأخلاقه وخصومه وأحبابه وسائر ما يتعلق به. أما كتاب "شمهورش" وكتاب "شمس المعارف الكبرى" فهما كتابان يمتلئان بالرسومات والرموز والأحرف السريانية والعبرية والأشكال الهندسية، ويحويان طريقة عمل الأحجبة والتمائم التي تستخدم في المحبة والبغض، وكشف المسروق، ورد الغائب، والطلاق والزواج، وفك الربط، وما يجلب السعود، وما يذهب النحوس..

على أي حال، فإن الصبي ذا الاثني عشر ربيعا، بدأ يقرأ هذه الكتب وتسامع به نساء القرية وشبانها، فلقبوه بالشيخ سيد، وأقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير، وذلك لأسباب، منها أنه لا يأخذ أجراً لقاء الأحجبة التي يعملها، وأيضا لأنه صبي صغير يدخل البيوت وتقابله النسوة والفتيات بدون حرج، وبدون أن يثير وجوده بينهن تساؤلا كالذي يثيره وجود شخص كبير، ومنها أنه لم يبلغ الحلم بعد، ولا تتحرج المرأة أو الفتاة أن تفضي إليه برغباتها وأسرارها ومخاوفها..

كان الشيخ سيد يحضر من المدرسة فيجد التوصيات بطلبه من عدة بيوت، ولقد أشعرته الطلبات التي تتوالى عليه، والأبواب التي تفتح له، بلذة غامضة ونشوة عجيبة.

أما موضوعات النساء فكانت تدور حول الحب ودواعيه، وكان يتفق أن تتحقق بعض الأعمال التي يعملها، لكنه على الرغم من ذلك لم يخالف وصايا عم صالح وعهده الذي عاهده عليه، عندما استأمنه على هذه الكتب الخطيرة؛ فلم يطع ضرة تريد لزوجها أن يطلق ضرتها، ولا سلفة تريد أن تلحق الضرر بسلفتها، إنما كان يستجيب لرسائل المحبة بين الأزواج، ورد المطلقات، وفك المربوط، وإغراء شاب بخطبة فتاه تهواه..

عموما، كانت تلك السن، من أكثر سني حياته رضا عن نفسه واغتباطا بسعة ثقافته..

لكنْ صوتٌ آتٍ من أعماق نفسه كان يؤرقه ويكدر صفو هذا الرضا، ألا وهو اعتماد هذه الكتب على تحضير الجان وتسخير العفاريت، وهو بفضل ناظر المدرسة "حسن البندراوي" أصبح لا يؤمن بوجود العفاريت، فكيف استطاع أن يخمد هذا الصوت المنبعث من أعماق نفسه؟

هنا عادت وتسللت عقيدة العفاريت إلى عقله من الباب الخلفي، لكنه أخذ يعمل على تقنينها، ويضع لها الضوابط والشروط حتى يريح عقله وضميره المتعبين، ويضع حداً للمعركة التي كانت دائرة في ذهنه بين معتقداته القديمة التي لم تفده شيئاً، وبين معتقداته الجديدة التي بدأت تجلب عليه المنافع المعنوية، والشهرة والفخار بين الأقران. لكن سيد، في جميع الأحوال، كان صادقا مع نفسه؛ فلم يتحول إلى "نصاب" كما وصف "طه حسين" نفسه عندما كان بمثل سنه، عندما اختلى في المنضرة وأغلق بابها، ووضع بين يديه قطعا من النار وأخذ يلقي فيها البخور ويردد: "يا لطيف يا لطيف.."، وطال به هذا وهو ينتظر انشقاق الحائط

وحضور الجان بين يديه، ولكن شيئا من ذلك لم يكن، فقرر أن يخرج من المنظرة مضطربا يمسك رأسه بيديه، ولا يكاد لسانه ينطق بحرف واحد، فتلقاه صاحبه يسأله هل الجن حضر؟ فأجابه بصوت متهدج وألفاظ متقطعة، وأسنانه تصطك اصطكاكاً: "لقد دارت بي الأرض حتى كدت أسقط، وانشق الحائط وسمعت صوتاً ملأ الحجرة من جميع نواحيها ثم أغمي علي، ثم أفقت فخرجت مسرعا"[٨].

على أيه حال، بعدما مرت سنتان على قراءة سيد لهذه الكتب بدأ يدرك أنها لا تحوي إلا الزيف والدجل، لكنه على الرغم من ذلك، لا زال يستجيب لمن يقصده بعمل ويكتب له وصفة من تلك الوصفات الموجودة في هذه الكتب، وهو غير مقتنع بها، لكنه كان يشفع ذلك بدعاء الله في سجوده وصلاته أن ينجح هذا العمل الذي يعمله، وكان من الموافقات أن تتم بعض الأمور على يديه لحكمة لا يعلمها إلا الله سبحانه، ربما ليتمثل فيه قول أحد العارفين: (إذا أراد الله أن يظهر فضله عليك، خلق ونسب إليك)!

من هنا، بدأ يزهد في قراءة هذه الكتب بعدما جرب أشياء كثيرة فيها فلم تصح، ومع ذلك لم يصارح أحداً بهذه الآراء كي لا يتهموه بالكذب والخداع، وخوفا من أن ينصرف اهتمام الناس عنه وتسقط مكانته بينهم.

بقيت هناك معلومة ربما تكون مفيدة وهي أن عم صالح كان يعير الكتب، مقابل مليم لكل كتاب، بشرط أن تكون القراءة بجانبه، فهو فلاح حريص ليس من السهل الضحك عليه أو التغرير به، وبالتالي لم يكن يسمح لأحد أن يستغفله فيذهب بالكتاب المستعار بعيدا عنه إلا لهذا الصبي الذي كان يعيره ما يشاء من الكتب، التي كان عم صالح على يقين تام أنها سوف تستهويه فيقرر شراءها.

ومع مرور الأيام تكونت لدى سيد مكتبة ذاخرة فأصبح يعير كتبها لأصدقائه، وبالطبع لم تكن كتب السحر ضمن هذه الكتب.

---

[٨] كتاب الأيام: طه حسين (ص ٨٥)

قال بعض الذين يبحثون عن أية معايب ليلصقوها بالآخرين: إن سيد كان يعير الكتاب مقابل مليم كما كان يفعل عم صالح، وهذه أكذوبة، لأن عقلية سيد لم تكن يوماً من الأيام عقلية تاجر حتى لو أراد ذلك، فلم تكن الأمور المادية تهمه على الإطلاق، وقد رأينا أنه لم يكن يأخذ أي مقابل مادي لقاء الأحجبة والتمائم التي كان يعملها لمن يطلبها من الشباب والنساء.

١٢- الريس بركات

في عام ١٩١٦ غطت مياه النيل وجه الأرض، خلال شهري سبتمبر وأكتوبر، محدثة لجة ارتفع فيها الماء إلى متر ومترين، فأصبحت القرى كأنها جزائر متناثرة في وسط محيط، وانقطعت الطرق بين القرى، وتعذر التواصل بينها إلا في صغار المراكب وخفاف القوارب. وكان منظر اللجة من الجبل منظراً ساحراً فريداً، حينما تحول الوادي كله إلى لجة متصلة، وبدت القرية كجثة هائلة طافية على ظهر النيل.

بعدما انقضى شهر أكتوبر بدأت مياه الفيضان تتناقص يوماً بعد يوم، ونظر الناس إلى النيل نظرة مودة وحب، وهتف طفل من القرية بأسى وهو يتأمل النيل الهابط في حسرة، وقد خمدت أمواجه العالية فقال:

- مسكين خلاص همد!

يقولها وكأنه يتحدث عن إنسان حي؛ تربطه به آصرة قرابة، ومودة صداقة.

فلما انحسرت عن القرية لجة الماء، بدت الأرض مكشوفة، تغطيها طبقة بنية، سوف تـُنبت طعام عام قادم للناس والماشية، في هذا الوادي الشاسع الخصيب. عندئذ يخرج الناس يغرسون أرجلهم في الطين، يبذرون الحب الذي يحملونه على أكتافهم، ويغطونه بطبقة طين يجرفونها بالمسحاة.

في تلك الأثناء هبط أفواج من العمال، من القرى الجرداء القاحلة التابعة لمديريتي قنا وأسوان. كان يطلق على هؤلاء العمال "غـُرْبْ" وهو جمع غريب.

يختلف هؤلاء الغـُرْب، عن أهل القرية التي يعيش فيها سيد.. يختلفون في أشكالهم، وملابسهم، وكلامهم، وأغانيهم الحافلة بالشجن والشجى.. كانوا يفدون جماعات جماعات، وعلى رأس كل جماعة شخص يسمى ريس.

جاء إلى بيت الحاج قطب، مثل كل عام، جماعة من عشرة أشخاص يتقدمهم الريس "بركات". وسرعان ما حدثت ألفة ومودة بين سيد وبين الريس بركات، الذي كان متوسط الطول، مفتول العضلات، لوَّحت الشمس صدره ووجهه، ذا شارب مفتول، وشفتين رقيقتين، وأنف معكوف كمنقار صقر.

كان سيد يتعمد أن يصحو في الصباح الباكر ليحصل للعمال- إرضاء للريس بركات- على أكبر كمية من الفطائر المصنوعة من دقيق القمح والسمن واللبن، يدسها في جيوبه، ثم يذهب بها إليهم فوق إفطارهم الذي يحصلون عليه من البيت، وكانت ترضيه أيما رضا ابتسامة الريس بركات. تلك الابتسامة التي يجعلها بذكائه البارع، تفوق أي كلمات يمكن أن تقال في هذا المقام.

اعتمد الحاج قطب على هؤلاء العمال في الزراعة طوال الموسم، وكان أشد ما يربط سيد بهذه الجماعة أغانيهم الشجية التي تقطر مرارة وأسى، لكنها في رجولة وتحمل، وتجيش لدى سماعها مشاعر الصبي الصغير وأحاسيسه، فيستمع إليها وهو شبه مسحور، وقد اختلطت في نفسه الصغيرة انفعالات لا يدري كنهها، يحاول التعبير عنها فلا يقدر، ويحن لتلك الأغاني وينتظرها من العام للعام، ولا زال يذكر منها:

يا تاجر الود هو الود شجره قَلْ ولا سواقي الود جفت وماءها اختل
أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل وأيام بنلبس حرير وأيام بنلبس فل
وأيام ننام على الفراش وأيام ننام ع التل وأيام بتيجي على ولاد الملوك تنذل

كان سيد هو الوسيط بين والده، وبين هؤلاء العمال الكبار فيما يطلبونه، كما أصبح بمثابة سكرتيرهم الخاص؛ يكتب لهم رسائلهم إلى بلدتهم النائية، ويقرأ لهم ما يرد إليهم من رسائل تحدثهم عن أبنائهم وأهليهم هناك. وعندما جاءوا إلى القرية أول مرة وشاهدوا منازل القرية ذات الطبقات الثلاثة والأربعة قالوا:

- دي من علامات الساعة يابوي!

وكان أجرهم اليومي يتراوح ما بين القرشين، والقرشين ونصف، وعندما سألهم الصبي: هل هذه القروش القليلة التي يأخذونها تكفيهم طوال العام؟ رد واحد أو أكثر بلهجته الصعيدية:

- أُمَّال يابوي! أنت تحسب كل الناس مرتاحين زي بَيـَّكْ؟

كانوا يقولونها دون أن تلمح في عيونهم، ولا لهجتهم شيئا من الحسد أو الحقد.

وكان العمال يضحكون من لثغة سيد في حرف الراء، ولكنهم يحبونه، وهو كذلك يحب الجلوس معهم في الطابق السفلي عندما يعودون من عملهم، ثم يحمل إليهم طعام العشاء الذي أعدته والدته لهم في الطابق الثاني. كان الطعام من نفس طعامهم الذي يشتمل على اللحم والخضار والفاكهة. لكن في هذا اليوم- وكان ذلك في بداية الشتاء- كان العمال قد قرروا طبخ طعامهم بأنفسهم كي يضاف ثمن هذا العشاء إلى أجرتهم اليومية؛ لأنهم يرون أن النقود أصلح لهم ولعائلاتهم من أكل اللحم والخضار والفاكهة، إذ ما يفيدهم أكل اللحم والفاكهة بينما أطفالهم جوعى!

في تلك الليلة طلب الريس بركات من صديقه الصغير أن يحضر حلتهم النحاسية ليطبخوا فيها عشاءهم، ثم استأذنوا في استخدام الفرن الذي في الدور الأسفل، وأوقدوا النار ووضعوا الماء في الإناء حتى بدأ يغلي، فألقوا فيه حفنة من الملوخية الجافة وقليلا من الملح، ثم بدأوا يحركون الطعام هنيهة بعود من أعواد الذرة بعدما جردوه من اللحاء، ثم أنزلوه عن النار، وإذ بالأيدي جميعا تتسابق إلى

الغرف من الإناء، فأخذ بعضهم يشربه في نهم ظاهر، وبعضهم ينتحي بإنائه ناحية، ثم يفت فيه الخبز الغليظ الجاف ويتناوله بيده في شره ونهم..

ذهل الصبي ولم يصدق عينيه أن طعاما يمكن أن يطبخ بلا لحم ولا سمن ولا ثوم ولا بصل.. وطار إلى الطابق الثاني يخبر أباه وأمه وأختيه، فظنوه يمزح، فطلب من والده مرافقته إلى الدور السفلي ليرى بنفسه، فرافقه ورأى حقيقة الأمر، فراح يفرك يديه من العجب والحيرة، وأعلن أنهم منذ الغد سيأكلون في الدار كالسابق، وتبقى الزيادة التي منحها لهم كما هي. وإذ بالألسنة تتوجه إلى الله بالدعاء لهذا الرجل الكريم بطول العمر وحسن الختام.

كتب سيد قطب في مذكراته، بعدما أصبح في الأربعين، حينما لم يبق لهم بيت ولا أطيان في القرية آنذاك، تحديدا في عام ١٩٤٦:

(..إنه سارقٌ لهؤلاء الغـُرْب وأمثالهم من الملايين الكثيرة التي تنبت الزرع في هذا الوادي، ويجوعون.. لو كان في الوادي قانون عادل لقاده إلى السجن، قبل أولئك الكثيرين الذين يعتبرهم القانون لصوصا ومجرمين!).

هل كان سيد يحاول أن يقنع نفسه بفكر الاشتراكيين الزائف البراق، الذي كان قد ملأ السوق آنذاك، وينادي بنزع أملاك الأغنياء وإعطائها لمن لا أملاك لهم!. هل قال هذا الكلام، من وحي عقدة لديه أنه بلا فدادين ولا أطيان؟ فمن المعلوم أن والده الحاج قطب باع الفدادين والأطيان، ولم يُبق له شيئاً يرثه من هذه الفدادين الضائعة عندما كتب هذه العبارة؟

وهل كان كارل ماركس، عند كتاباته عن تاريخ الصراع بين الطبقات المستغِلة والطبقات المستغـَلة، هل كان يعي أنه ينطلق من وحي عقدته أنه يهودي بلا وطن؟ وبالتالي سعى لتهيئة العقول لقبول أن تنزع أرض فلسطين من الدولة العثمانية، التي هي بمثابة دولة محتكرة للأراضي الشاسعة، وتجعلها قسمة بينها وبين أولئك اليهود المحرومين من أي أرض!

١٣- نفيسة وسميحة

لم تكد تمر بضعة أيام من رمضان عام ١٩١٧ حتى راحت الأختان غير الشقيقتين، سميحة ونفيسة تستعدان لاستقبال العيد بكل ما في نفسيهما المتفتحتين من أمل واستبشار، فقد اشترى لهما والدهما ثياب العيد الجديدة الزاهية مع إخوتهما الصغار. وذهبتا معاً ما إلى الحائكة لتفصيلها كعادتهما في كل عيد.

فعلى الرغم من أن سميحة لم تتعد الرابعة عشرة من عمرها ولم تتعد أختها نفيسة التاسعة والنصف، فإنهما تشتركان في أعمال المنزل الكثيرة التي تتطلبها حياة القرى.. ففي الليل عندما يصعد والدهما وأعمامهما إلى سطح المنزل كعادتهم في كل مساء بعد تناول الإفطار لكي يتمتعوا بالهواء النقي من دخان المواقد والأفران. عندما يصعدون ثم يحتاجون إلى شيء ما من الطابق الأسفل تذهبان معاً لإحضاره، فإحداهما تحمل مصباح الجاز والأخرى تقوم بالعمل المطلوب، وفي أثناء صعودهما السلم تخيف كل منهما الأخرى بما يختبئ في زوايا الدار من (عفاريت) فتقفزان الدرج قفزاً وهما تضحكان في جلبة لطيفة محبوبة.

هكذا هما في كل شيء وفي كل عمل من الأعمال خارج الدار أو داخلها. وأخذتا تتحدثان عما ستفعلانه في العيد، بعد أن يذهب والداهما وأعمامهما وجدتهما إلى المقابر لزيارة قبر جدها الذي مات منذ سنوات كثيرة، ومازال الجميع يذهبون إلى قبره بالهدايا والهبات في كل عيد.

إنهما ستصحوان عند بزوغ الفجر، وتتناولان طعام الإفطار مع الجميع، وما إن يركب والداهما ومن معهما الإبل ويتجهوا نحو المقابر حتى ترتديا ثيابهما، وتقبل صديقاتهما فيخرجن جميعا إلى حيث الرحبة الواسعة في طرف القرية الغربي، حيث نصبت الزينات والأعلام الصغيرة، وامتلأت الساحة بالطبول والمزامير، ومختلف أنواع اللعب والحلوى.. هناك سيقضين بضع ساعات، ويبتعن ما حلا لهن من لعب وحلوى بأصنافها الجميلة المتعددة.

وعندما يقبل المساء سيجتمعن أيضًا أمام الدار، ويلعبن كل ما يحلو لهن من الألعاب، ويغنين كل ما يحفظن من أغاني العيد والأعراس.. وأخيرًا سيجلسن على المصطبة، وتروي كل منهن ما لديها من أحاديث ممتعة، حتى يتأخر الليل ويوشك المصباح الذي ينير لهن المكان أن يحرق آخر ما في جوفه من الجاز. عندئذ سيتفرقن كل إلى بيتها بعد أن يتواعدن على اللقاء في الليلة التالية.

هذا ما تنويان فعله في العيد، فهو آخر عيد تحتفل به سميحة وأختها نفيسة على هذا المنوال. فقد علمت سميحة من والدها أنها ستحجز في المنزل قريباً فلا تخرج للعب ولا إلى الطريق العام، كعادة بنات العائلات في الريف عندما يبلغن الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمرهن.

وعادتا من منزل حائكة الثياب فرحتين مستبشرتين، فقد قالت لهما: إنها ستزين ثيابهما (بالخرز والترتر) الجميل. وانقضى النهار وجاء الغروب، وتناولوا الإفطار، وصعدوا إلى سطح المنزل كعادتهم يستريحون ويتسامرون. وجلست سميحة ونفيسة في الجانب الشرقي من السطح، الذي يفصل بين شرقه وغربه، ممشى طويل تظلله بضع نخلات قد نبتت في جانب من فناء البيت، وراحتا تعيدان ما قالتاه عن العيد واللعب والصديقات، وراح إخوتهما الصغار وأبناء عمهما يجرون ويلعبون في الممشى الذي يفصل بين جزئي السطح، ويجلسون معهما تارة، ويذهبون إلى باقي أفراد العائلة تارة أخرى بين الضجيج والصياح بأصواتهم الصغيرة الرقيقة...

وانقضت من الليل ساعات، وبدأ السكون يقترب رويداً رويداً من المكان، فقد خفت حركة الأطفال شيئاً فشيئاً حتى تلاشت، إذ ناموا جميعاً الواحد بعد الآخر، ولم يعد يسمع من أصواتهم إلا غطيط نومهم الآتي من بعيد..

وابتدأ القمر يتراءى من خلال سعف النخيل، ويلقي بضوئه الضئيل على الجانب الآخر من السطح، فتبدو ظلال النخيل من بعيد كأشباح الموتى، تتحرك في بطء في هالات من النور الخافت المخيف. وإذا بنفيسة تحدق قليلا في الفضاء

والظلال ثم تنتفض في ذعر، وتلتصق بسميحة، وتدفن رأسها في صدرها خوفاً وتقول لها: إنها تخاف من ظلال النخيل، وتتخيلها أشباحاً تقترب منها وتبتعد، فتضمها سميحة في حنان كحنان الأم، ثم تهدئ من خوفها ورعشتها، بالرغم مما بعثه هذا الخوف في نفسها هي من قلق ورهبة. وما إن هدأت قليلا حتى أخذت تسألها ورأسها ما يزال مسنداً إليها، أسئلة غريبة مخيفة، لقد سألتها: أما يخاف الموتى في القبور من الظلام الحالك من حولهم؟ ولم ترد سميحة على هذه الأسئلة إلا بكلمة واحدة: لا أدري. فقد ملا الخوف والذعر نفسها أيضا، فنهضت وسحبتها من ذراعها، وأسرعت إلى حيث يجلس الجميع.

لم تبارح أسئلة نفيسة خيالها، بل راحت تبعث إليها بشتى الصور المخيفة المفزعة. ونامتا في هذه الليلة وكلتاهما تتوسد ذراع الأخرى، من الخوف الذي استولى على نفسيهما معا. وعندما أقبل الصباح بدد بنوره تلك الهواجس التي استولت عليهما بالأمس، لكن عندما أقبل المساء عادت إليها تلك الصور التي بعثتها إلى نفسها أختها نفيسة، غير أنها كانت أقل رهبة في نفسها من الأمس..

ومضت ثلاثة أيام ازداد تعلق كل منهما بالأخرى، وأضحى ثقيلا على نفسيهما أن تفترقا في عمل من الأعمال، فهما دائماً تتحدثان عن المستقبل القريب الذي تستعدان له، وعن المستقبل البعيد وما سيكون فيه من أحداث..

وفي الليلة الرابعة نامتا متأخرتين عن ميعاد نومهما بساعات. فقد كان في المنزل بعض أقاربهما، وقالت سميحة إنها ستنام كثيراً في الغد، وستتركهم ينادونها حتى يضيقوا بها فيتركوها تنام. وتوسدت كلتاهما ذراع الأخرى، وهوَّم على وجهيهما النعاس، ثم راحتا تغطان في نوم عميق. غير أن سميحة ما لبثت أن استيقظت مذعورة صارخة وقد أمسكت بجانبها الأيمن، واستيقظ الجميع على صوتها، وأخذوا يفتشون الفراش في مكانها، وما لبثوا أن عرفوا السبب في صراخها، إنها عقرب قد اندست في فراشها ولدغتها بضع لدغات، وامتلأ جسمها بالسم..

وراحوا يجرون لها الإسعافات المعتادة في الريف، ولكنها لم تفد شيئا، فاعتزموا أن يذهبوا بها إلى المدينة في الصباح لكي تعرض على طبيب من أطبائها. وما إن بزغ النور حتى ذهب والدها إلى مكان وقوف السيارات لكي يحضر إحداها سريعاً. لكنه عندما عاد كانت سميحة قد غطت في نوم عميق، والجميع حولها ينادونها وهي لا تسمع لهم ولا تلبي النداء.. وراحوا يعدون العدة لرحيلها من بينهم حيث لا تعود..

راحت نفيسة تنظر إليها بين الحين والحين وهي تصرخ وتسألها: ماذا ستفعل وحدها في العيد؟ وماذا ستفعل بالثياب الجديدة وباللعب وبكل ما كانتا تعدان؟

وعندما رأت نفيسة الناس وهم يحملون نعش شقيقتها الحبيبة تشبثت به وهي تسألها: ماذا ستفعل، وكيف ستنام في الظلام الذي خافته وارتعدت منه منذ أيام؟

لقد مرت الأيام عليها وهي لا تدري كيف مرت وكيف ستمر. لقد تركتها سميحة ونامت هناك وسط الظلام الموحش والسكون الرهيب. تركتها تذهب وحدها إلى الفراش، وهي تبكي وتمد يدها بجانبها باحثة عنها فلا تجدها، فتمسك بوسادتها وتضمها إليها، وتروح تقبل مكان رأسها بينما الظلام يخيم على المكان، ويغمر العالم والحياة، وتظل تبكي وهي مغمورة في الفراش، ثم يعلو نشيجها حتى يسمعها من في البيت فيأتون إليها مسرعين.

إنها لتكاد تجن كلما تذكرت تلك الكلمات التي قالتها لها سميحة وهي تمسك بيدها وقد أفاقت ساعة من الإغماء ورأتها تبكي. لقد قالت لها وهي تضم يدها: عندما أموت يا نفيسة لا تدعيني وحدي، بل تعالي إلي كل يوم واجلسي معي لأني أخاف الظلام والوحدة والسكون..

١٤- نضوج مباغت

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، خريف عام ١٩١٨، حدث تطور كبير في فكر هذا الصبي، فقد أصبح يتعامل مع كتب السحر ببرود وفتور، وبدأ وعيه الوطني ينضج شيئا فشيئا، وتحول عن رغبته ليكون قائدا روحانيا، يغير الأشياء بالأمور الغيبية، إلى رغبته ليكون قائدا وطنيا يغير الأشياء بخطبه النارية، والفضل في ذلك يعود إلى ناظر المدرسة "حسن البندراوي" ذلك الشاب الذي كان يتقد وطنية وحماساً، وقد انعقدت بينه وبين الحاج قطب في تلك الأيام صداقة متينة، فكان يزور بيتهم بشكل دائم.

كان شعور القرية أثناء الحرب العالمية الأولى متجهاً إلى تأييد تركيا "المسلمة" ضد الحلفاء "الكفرة". وغزا قلبَ الصبي شعورٌ غامض بدأ يختمر شيئاً فشيئاً، وانتابه إحساسٌ مبهم أنه عما قريب سوف يحدث شيء ما. ومما زاد هذا الشعور وضوحاً وجلاء، كثرة الاجتماعات السرية التي تعقد في بيتهم. كان يومها في سنته الأخيرة في المدرسة، وكان والده يناديه لقراءة الجريدة للجمع المحتشد في بيتهم الذي حضر لاستماعها؛ فيحضر سيد يسير بخطواته المبتدئة المضطربة في بادي الأمر، ثم ينطلق محلقا ومتألقا في قراءته، في اللحظة التي كان شعاع الشمس الربيعية، يعكس على مقاطع الزجاج الملون بريقا متوهجا، يخفي ألف لون ولون.

قراءته المتألقة تلك لفتت نظر "حسن البندراوي" ناظر مدرسته، فأعاره كتابين وجد فيهما طرازاً آخر غير ما تحويه مكتبته من كتب، أحدهما: ديوان شعر لرجل اسمه "ثابت الجرجاوي"، والآخر: كتاب تاريخ لمحمد بك الخضري. كان الديوان يحوي قصائد وطنية، أدرك سيد فيما بعد، عندما أصبح ناقدا لا يعجبه العجب، أنها في غاية الركاكة والسذاجة، أما في ذلك الحين فكانت في نظره ضرباً من الإعجاز، وقد ألهبت قصائد هذا الديوان الروح الوطنية في نفسه. تلك الروح التي أيقظها

الجو العائلي الذي يعيش فيه، وأيقظها الجو العام المليء بتيارات خفية كانت على وشك الانفجار، وبقيت ذاكرته تحفظ أبياتا من هذه القصائد مثل:

وطني عزيز لا أروم سواه مهما تسور العدا ميناه
أمسي وأصحو من عناه على لظى بيدي نشيده للملا معناه

وزادت قيمة هذا الديوان، في نفس سيد، عندما علم أن صاحبه سجين سياسي، وأن هذا الديوان تمت مصادرته بحكم الأحكام العرفية. أعجب سيد بالكتابين، ولم تكن مكتبة ليشتري منها ما يشاء من الكتب، فماذا يفعل ليحصل على هذين الكتابين؟ لو كان في أيامنا هذه لذهب إلى أقرب مكتبة واشتراهما، فإن لم يجدهما بحث عنهما في الإنترنت، فإن لم يجدهما قام بتصويرهما، لكن هذا كله مستحيل في الوقت الذي أعار فيه المدير الكتابين للصبي.

نعم.. يسهل التخمين الآن في العمل الذي قام به سيد للاحتفاظ بالكتابين؛ راح يجمع الأوراق البيضاء من كراساته القديمة، حتى صارت كراسة ضخمة، وأخذ في صبر ودأب عجيبين ينسخ هذين الكتابين حتى انتهى منهما، ثم حفظهما جميعاً، وظل يذكرهما بعد سنوات وسنوات..

بعد مرور أربعة شهور على انتهاء الحرب العالمية الأولى، وتحديدا في مارس عام ١٩١٩، صدق حدس الصبي فقامت الثورة المصرية بقيادة الزعيم الوطني، معبود الجماهير، سعد زغلول، الذي أشعل الثورة في كل أرجاء مصر. كان سعد زغلول فلاحا من أبناء الريف، حفظ القرآن الكريم في الكتاب، ثم التحق بالأزهر، فكان هو المثقف الوحيد الذي لا يختلف اثنان في خبرته الواسعة بألاعيب السياسة، وأحوال الاجتماع، مع ما يتحلى به من ذكاء ودهاء، وبلاغة خطاب، وقوة منطق، وإصرار فلاح عنيد يتحدى ولا يلين. أضف إلى ذلك، ماضٍ نظيف لم يلوثه غدر أو نفاق..

تم نفي سعد زغلول إلى جزيرة مالطة، فتحركت مصر كلها.. غادر الطلاب معاهدهم، وأغلقت المحال التجارية، وتجمعت طوائف الشعب في مظاهرات مدوية، وأضرب الأزهر وخرج طلابه في مظاهرة كبيرة، وانضم إلى المظاهرة كثير من الدهماء، تدفقوا معها كالسيل، فأخذوا يقتلعون الأشجار، ويحطمون واجهات المحال وزجاج المصابيح، ويعتدون على الترام.. تعطلت وسائل النقل، وكانت طلقات الرصاص تئز في شوارع القاهرة، وتضرجت الشوارع بالدماء، وراح الجنود الإنجليز يعتدون على المتظاهرين، وبعدما أطلقت النيران على المصلين الخارجين من مسجد الحسين بعد صلاة الجمعة، انطلقت المظاهرات تجوب شوارع القاهرة منددة بالإنجليز، وأخذت عربات الاحتلال تطوف بالشوارع تحصد الأرواح حصدا، وأخذ الناس يقيمون في الطرقات سدودا من الحجارة، ويحفرون الخنادق، وينصبون الفخاخ للسيارات العسكرية.

ثم انضم إلى الثورة سائر طوائف الشعب: المحامون، والصناع، والأطباء، والطلاب، وعمال السكك الحديدية، وعمال الترام.. وقطعت السكك الحديدية، وأسلاك البرق، وصارت القاهرة بمعزل عن باقي المدن والقرى..

على أية حال، أيًّا كان ما يحدث في القاهرة فقد كانت الحياة في القرية تجري بوتيرتها المعتادة، إلى أن وقف ناظر المدرسة "حسن البندراوي" أمام صفوف التلاميذ يلقي خطبة نارية، قال فيها: "إن المدرسة ستغلق أبوابها إلى أجل غير مسمى، لأنه هو وزملاؤه ذاهبون للمشاركة في الثورة"، وأغلقت المدرسة!

عاد سيد إلى بيته ولديه من أوقات الفراغ ما تكفي لإشعال الثورة في نفسه، وعزف عن القراءة.. كان دوما يرى أمام ناظريه، على المصطبة، صندوق الصفيح، الذي وضع فيه كتبه، وجعل يمسحه بالجاز بين حين وآخر، حماية لكتبه من العث والصراصير، وأخذ ينظر إلى كتب السحر التي كان غارقا فيها فوجدها كاذبة

خادعة أشبه بالمخدرات التي تغيب الإنسان عن واقعه، وتجعله يعيش في عالم وردي، غير واقعي، من صنع الخيال.

عموما، من الآن سوف ينشغل سيد مثل أستاذه بالثورة، لأن شعوره يتناغم بشكل تلقائي مع هوى الجماهير، ويتناغم مع التيار الساري في المجتمع. فعندما كان هوى الجماهير يتجه إلى المدارس، بدل الكتاتيب، بادر إلى دخول المدرسة، وأصبح داعية لها. وعندما كان هوى الجماهير يتجه إلى كتب السحر ويعظم المشتغلين بها، اتجه الصبي إليها يستعين بها بشكل لا شعوري.. والآن عندما أصبح هوى الجماهير يتجه إلى المشاركة في ثورة سعد زغلول، اتجه هواه إلى المشاركة في هذه الثورة والانخراط فيها، وأصبح خطيبا ممتلئا بفورة الثورة وحماستها، يكتب الخطب وأبيات الشعر، التي يحاكي فيها قصائد ديوان ثابت الجرجاوي، التي قال عنها فيما بعد، إنها في غاية الركاكة والسذاجة، ويلقي في المجامع والمساجد الخطب والقصائد التي عجب، فيما بعد، كيف كانت تؤثر في الناس كل هذا الأثر.

هكذا كانت سريرة سيد قطب بوصلة حساسة يستكشف بها، بشكل غريزي، حاضر أيامه ومستقبل حياته، وتتطابق تطابقا تاما مع الحاجة الروحية لعصره، ويستكشف بها هوى الجماهير، وتوجهه دوما- ولن تخذله- إلى الغاية التي يطلبها الجماهير من شخص ما، كي ينوب عنهم في التعبير عنها بدلا منهم.

إن كثيرا من المجالات الطارئة التي يشتغل بها بعض الناس، وتجعلهم فاتحة خير أو شر، ويذيع من خلالها صيتهم في الأفاق.. هذه المجالات سوف يخلفهم فيها من يحسنها، ويطورها، وينميها، ويجعلها تفوق بأضعاف أضعاف ما فعله داعيتها الأول.. ومع ذلك، لن يكون لهم تلك الشهرة المدوية والصيت الذائع اللذان كانا لداعيتها الأول، وكأن لسان حال الجماهير يقول "سبقك بها عكاشة"!. هذا لأن هوى الجماهير يكون قد شبع منها وتجاوزها بمراحل، وبدأ يتطلع إلى مجال لم تتضح

معالمه بعد، يتطلب من شخص عبقري أن يفتتحه ويستكشفه ببوصلته الحساسة، ويدلي فيها بدلوه، وتلكم هي العبقرية الخلاقة التي توهب ولا تكتسب.

١٥- ميلاد محمد قطب

في إحدى ليالي أبريل الربيعية عام ١٩١٩، وبعد شهر من اشتعال ثورة سعد زغلول، كانت فاطمة زوجة الحاج قطب، تقاسي آلاما شديدة وتئن وتتوجع، وهي ممددة في فراشها، لكنها كانت تتجلد وتتحمل في صمت. اتجه الحاج قطب إلى فراش زوجته، وأخذ ينظر إلى وجهها الأسمر الشاحب، فألفى عليه أمارات الألم والتعب، وسألها: ما بك؟

قالت: أحس ألماً شديداً، يبدو أنني سأضع الليلة..

فقد كانت حاملاً منذ تسعة شهور، ولكنها لم تسترح طوال مدة الحمل شأنها شأن المرأة في الريف. فالمرأة في الريف هي الساقية، والراعية، والطاحنة، والخابزة، ثم هي تلد الأطفال، وما لم ترتطم بصخرة فإنها لا تفقد جنينها من كثرة العمل والحركة؛ فهي في حركة دائمة دائبة، لا تهدأ ولا تستقر. كانت زوجة الحاج قطب تشرف على شئون بيتها وزوجها وأولادها، كما تشرف على الخدم الذين يقومون على ضروريات المواشي والبهائم والأغنام والدواجن..

وعندما رأى الحاج قطب زوجته على هذه الحالة خفق قلبه وأحس ارتياعا، وكان في حيرة من أمره، لا يدري ماذا يفعل. هبط على الدرج وسرعان ما كان خارج البيت.

وفي عتمة أبريل، وفي الضباب المشبع بالرطوبة، كان قنديل مضاء يركض ناحية بيت من بيوت القرية. وما هي إلا لحظات حتى رجع القنديل وفي ظله رجل وامرأة يسيران، كان الرجل هو الحاج قطب، والمرأة هي "بخيتة" الداية.

عندما وصلت بخيتة الداية وجدت فاطمة تئن وتتوجع، ومرت ساعات وهي تقاسي آلاما شديدة، دون أن تفعل لها شيئا، فأحس الحاج قطب بخوف، واضطربت الداية، وأخذ قلبها يدق في قلق، وبجانبها كانت تقف الحاجة خضرة، جدة الطفل جمعة صديق سيد، الذي مات من سنتين. في تلك الأثناء، خطر للحاجة خضرة خاطر فأسرعت خارجة من البيت، وراحت توسع الخُطى، وما انقضت دقائق معدودة حتى عادت إلى دار الحاج قطب، وصعدت إلى الحجرة التي ترقد فيها زوجته، وأخرجت مفتاحا كبيرا من ثيابها، ووضعته تحت رأسها ثم قالت في ثقة واطمئنان:

- جئتك بمفتاح الفرج!

لقد جاءتها بمفتاح مسجد القرية. وعند الفجر ذهب الضيق وجاء الفرج، وارتفعت وأوأة المولود، فأنعشت القلوب، ودغدغ صوت المولود مشاعر الحاج قطب وامتلأت نفسه نشوة، وأحس غبطة وسروراً، وخرجت الداية متهللة الوجه منبسطة الأسارير، وهي تقول:

- مبروك يا حاج.. يتربى في عزك!

عند ذلك أخرج الحاج قطب كيس نقوده الأبيض، ووضع في يدها قطعة نقود أكثر مما تتقاضاه داية في مثل هذه المناسبات.

بعد مرور أسبوع على مولد الطفل "محمد قطب"[٩] كان النسوة يطبخن ويجهزن طعاماً كثيراً لليلة "السبوع".. وُضِع الإناء النحاسي الكبير على النار وبه سمن كثير، وأخذت الحاجة خضرة تحرك المغات، أما زوجة الحاج قطب فكانت تدق البندق، لتعد كأسا من المغات لكل من يأتي للتهنئة بالمولود.

[٩] أخطأ بعض الكتاب ومنهم عادل حمودة في كتابه "سيد قطب من القرية إلى المشنقة" حيث ذكر ص ٢٥ أن محمد قطب هو الأخ الكبير لسيد قطب وأنه أخوه غير الشقيق.

وجيء بشمعة كبيرة مشتعلة وضعت بجانب رأس المولود طوال الليل، تيمنا بأن نورها سيهديه السبيل، ويبدد الظلمات التي تعترضه في مستقبل حياته، وأخرج الحاج قطب كيس نقوده ووضعه فوق رأس المولود حتى يشب غنيا. أما الداية فراحت تبدل ثياب الطفل، ثم أخذت الجزء الذي جف من سرته، وأخرجت من جيبها قرشا، وأخذت قليلا من الملح، وسبع حبات فول، وصرت الجميع في صرة صغيرة وعلقتها تميمة في صدر المولود، ثم وضعت والدته في صدره تلك التميمة التي أحضرتها الغجرية المغربية لأخيه "سيد" بعد أسبوع من مولده، وظلت في رقبة سيد إلى أن دخل المدرسة فخلعها، بعد سخرية الأفندية واستهزائهم منها.

اليوم في "سبوع محمد قطب"، غص المكان بالنساء والصبيان، ثم وضع المولود في غربال، وأخذت الداية تغربله حتى يذهب عنه الخوف، ثم وضع الغربال على الأرض، وقامت فاطمة زوجة الحاج قطب، تتخطى المولود سبع مرات حتى لا يسقط شعره، ولما تمت المرات السبع، رُفع المولود من الغربال، فأخذت الداية بخيتة الغربال وهمت أن تدحرجه، فنظرت فاطمة إلى الغربال في وجل وقلق، ثم قالت بحزم:

- سيبي عمره لربنا يا حجة بخيتة..!

لقد تذكرت فاطمة ما حدث ليلة سبوع سيد منذ ثلاث عشرة سنة.. لقد جرت عادة النسوة على دحرجة الغربال على الأرض؛ فإن وصل إلى نهاية الغرفة واصطدم بالحائط، اعتقدوا أن المولود سيعمر طويلا، وإن سقط قبل أن يصل إلى الحائط، فهذا نذير شؤم بأن عمر المولود قصير. فلما أخذت الداية الغربال، ليلة سبوع سيد، وقامت بدحرجته، انطلق الغربال مسرعا إلى غايته، وفي تلك اللحظة التي كان يسير فيها الغربال مسرعاً نحو الحائط، دخل أطفال صغار يجرون في لهو ومرح فاصطدم الغربال بقدم أحدهم ووقع على الأرض، فانقبض صدر الأم، وظهر العبوس على وجه الحاضرين جميعا، واعتقد الجميع أن هذا فأل سيئ بأن هذا

الطفل لن يمتد به الأجل إلى نهايته، إنما ستعرضه الحوادث التي تكبح سرعته وانطلاقه.

في وسط هذا القلق بادر الحاج قطب يخفف من قلق زوجته قائلا:

- إن هذه مجرد تخاريف وخزعبلات..

ثم راح يهدأ من روعها، لكنها كانت دائمة التشاؤم، وأخذت تتضرع إلى الله، وتسأله أن يبعد شبح التعاسة الماثل أمام ناظريها- والتي هي الوحيدة دون الجميع- تتطير منه. كما وتذكرت في تلك اللحظة قول ولي القرية الشيخ بَكر عندما قال:

- سيد.. سيد.. ياريت يأخذ من عمري ويعطي له..!

ومع أنها فرحت من بداية كلماته، إلا أنها تشاءمت من نهايتها. من أجل ذلك علقت في رقبة سيد تميمة جلبتها غجرية مغربية، وبقيت في رقبته لم يخلعها إلا عند دخوله المدرسة، ثم وضعتها في صدر أخيه محمد في هذا اليوم، وسوف تبقى في رقبته حتى دخوله الجامعة!

ومما أحزن فاطمة أيضا عدم حضور والدتها؛ لأنها تقيم في القاهرة في بيت ابنها أحمد حسين، والآن المواصلات مقطوعة بسبب الثورة، ولا يمكنها الحضور في الوقت الذي كانت فاطمة بحاجة لمن يقف بجانبها ويساندها. وحضور الحاجة زينب، والدة فاطمة، يشيع البهجة والسرور في البيت كله، فقد كانت حلوة الحديث، تعرف حكايات كثيرة مشوقة جذابة، ترويها بصوت هادئ عذب، فكان سيد يفرح بزيارتها أيما فرح، ويبقى ملاصقا لها، ينصت إلى حكاياتها في شغف وسرور، وكان لا ينام إلا في جوارها عندما تكون في زيارتهم، لكنها اليوم لم تأت وهذا أكثر ما يؤلمه، وقد نغص غيابها فرحته، تلك الفرحة التي كانت تشمل البيت جميعا.

١٦- إلى القاهرة

بعد شهور قليلة من عودة سعد زغلول من منفاه، ابتدأ عهد المفاوضات الطويل، وبدأت الثورة تخف حدتها وتقل غبطتها، وعاد الناس إلى مشاغلهم الاعتيادية بعد هذه الهبة الجماهيرية التي قلبت، أحوال الناس الاعتيادية، رأسا على عقب.. شعر سيد بالملل والضجر من الخُطب التي خلت من الإثارة وأصبحت بلا جدوى، فقد تجاوزها الزمن.. بدأ الملل يغزو قلوب الناس ويتطلعون إلى شيء جديد، بعد أن عادت الأمور إلى سابق عهدها، فعادت المواصلات التي كانت مقطوعة، ورجعت الحركة التي كانت متوقفة، وعزم سيد عام ١٩٢٠ على السفر إلى منزل خاله "أحمد حسين" في حي الزيتون بالقاهرة، ليقيم فيه ويواصل دراسته من هناك.

وكلما اقترب موعد السفر، كان كل شيء حول سيد يوحي بأن مهمته خطيرة. كان يرى ذلك في لهفة والديه، وفي قدوم النسوة لتوديعه، وفي الوصايا التي تسكبها أمه في أذنيه.. لقد كان قبل ذلك يستعجل مجيء هذا اليوم البهيج، فلما اقترب الموعد بدأ سيد يشعر بأن الأمر لم يعد مدعاة للبهجة، وخصوصاً بعدما أخبره والده بأن موعد سفره في صباح الغد.

لم ينم الفتى في تلك الليلة إلا قبيل الفجر، ولاح ضوء النهار في الأفق من وراء غيط الذرة، وبدت أشعة الشمس يلتمع نورها في أعالي أشجار الكافور المبللة بالندى، وتصاعد من سطح الترعة بخار أثيري يشق طريقه إلى أعلى، وانتشرت أوراق البشنين[١٠] على سطح الترعة، وقفزت فوقها ضفدعة، ومالت شجرة السنط العجوز بجذعها على قلب الترعة حتى وصلت إلى قرب البر الثاني فاتخذها

[١٠] البشنين هي "زهرة اللوتس"، أطلق عليها قدماء المصريين سشنن وتحورت لبشنن، ثم تحورت لسوسن، وهي زهرة مائية تولد من جديد كل يوم مع شروق الشمس وتتفتح أوراقها تبحث عن النور وتغلق أوراقها مع الغروب وتغطس تحت سطح الماء وتختفى في الظلام فصارت رمزا للحياة والبدايات الجديدة في الحضارة المصرية القديمة.

الفلاحون قنطرة، وهبت رائحة الجوافة من جنينة العمدة مع ندى الصباح نفاذة قوية.

في تلك الأثناء كان والدة سيد تعد له طعام الإفطار؛ فطائر القمح بالسكر واللبن، ولم يكد يجلس لتناول الإفطار حتى طرق الباب رفيقا سفره يستعجلانه للخروج لإدراك موعد القطار.. كان الفتى موزع النفس، شارد الفكر، لا يدري أهو مستبشر بالسفر إلى القاهرة التي يحلم بها سنوات، أم هو آسٍ على فراق عالمه الذي صاحبه سنوات. واحتضنته أمه فأحس في حضنها بكل حرارة قلبها الملهوف، ولم تطلقه إلا بعدما انتزعه والده من حضنها برفق، ومشى به إلى العربة المنتظرة في الخارج، دون أن يتكلم، ولو تكلم لخنقته العبرات، وأفشت ما بداخله من اللوعة والشجن.

ركب سيد العربة الناعسة التي يجرها جواد أشهب، ثم سارت والأب ينظر إليها، حتى اختفت في سحابة غبار الطريق، بين الحقول الخضراء وأشجار النخيل الباسقة، فدخل الأب إلى البيت متثاقلا حزينا، ومما زاد في حزن العائلة رؤيتهم المائدة وفوقها الفطائر التي لم يمسها الفتى، فنظروا إلى هذه المائدة وكأنها ذكرى مقدسة من طفلهم الذي رحل، يحرم عليهم نقضها أو إزالتها، وانخرط من في البيت جميعاً في بكاء مرير.

وصلت العربة محطة القطار وركب سيد القطار مع رفيقيه، وهو ينظر فيما حوله دهشا والقطار يمضي مسرعا نحو القاهرة، وانشغل بمتابعة الحقول الخضراء الممتدة على جانبي السكة الحديدية، حتى ملَّ من كثرة النظر، ثم نام على كرسيه فلما استيقظ كان قد أحس بالجوع فأخرج الفطائر التي زودته بها أمه، وعندما نظر إليها شعر بأن أمه وضعت في صنعها قلبها الساذج، وملأتها بالحب والعطف والحنان، وتذكر جهد أبيه لتوفير نفقات تعليمه، مما زاد سيد تصميما وعزما على العلم حتى يحصل على الراتب الذي يعيد الأطيان التي بيعت، ويعيد البسمة إلى وجه أمه

العطوف، ويرفع رأسه أمام أهالي القرية جميعاً، عندما يعود أفندياً يُعلّم في مدرسة القرية..

كان يحلم بكل هذا، بينما يواصل القطار سيره الحثيث نحو القاهرة، ويدوس بعجلاته هذه الأحلام السابقة لأوانها بغير رحمة، ولا يكاد يلقي نظرة على مناظر الحقول، ولا يتحدث إلى رفيقيه بكلمة، وأصبح لا يسمع إلا صوت العجلات الهادرة على قضبان السكة الحديدية.

وأخيراً، وصل القطار إلى محطة القاهرة في غسق الليل، ومن هناك استقل الصبي ورفيقاه عربة إلى حي الزيتون الذي تنتشر فيه حدائق الزيتون والموالح والأشجار، فكان أشبه بعزبة كبيرة.

وصل الثلاثة إلى شقة في الطابق الثاني في حي الزيتون، فلما طرقوا الباب فتح لهم رجل فارع الطول، ممتلئ الجسم، قمحي اللون، بشارب أسود خفيف، لا تبدو على سحنته أنه فلاح عاش في الريف، فكان أقرب إلى أهل المدينة منه إلى أهل الريف، كان ذلك "أحمد حسين" خال الطفل، الذي استقبلهم استقبالا شعر الصبي أنه بارد بعض الشيء، ثم استأذن رفيقاه بعدما أسلماه لخاله، ومضيا إلى مكان سكناهما في عين شمس.

نام سيد ليلته في حجرة جدته التي يحبها كثيراً، وقضى ليلته يحدثها عن أمه وأحوال القرية. وفي الصباح وعده خاله بأن يبحث له عن مدرسة تناسبه، فلما عاد خاله كانت المفاجأة المحزنة بأن عمره لم يصل بعدُ إلى الخامسة عشرة، ولن يُقبل في المدرسة هذا العام، ويجب الانتظار إلى العام القادم.

كره سيد العودة إلى القرية بعدما علم أهل القرية جميعا أنه ذاهب لتحصيل العلم ونيل الشهادة، فكيف يعود بدونها، فطلب من خاله أن يبحث له عن مدرسة أخرى، فلما بحث وجد مدرسة خاصة وافقت أن تقبله في هذه السن، لكنها كانت

بعيدة عن مكان سكناه، وتكلفه مبالغ طائلة أكثر مما تحتمل أسرته، لذلك فضل الانتظار إلى العام القادم في بيت خاله، فهل شعر بالملل من هذا الانتظار؟

كانت الأحداث التي تجري في مصر، في تلك الفترة، كفيلة بأن تنسيه نفسه عشرات السنين، حتى لو جلس بدون مدرسة، ولن يشعر حينئذ بالوحدة والفراغ. كان هناك الخلاف القائم بين الوفد، بقيادة سعد زغلول، وبين الوزارة بقيادة عدلي باشا، حول المفاوضات مع الإنجليز ومن يديرها. وكل فريق يتمنى لصاحبه الإخفاق في المفاوضات، وكان سيد مثل خاله وعامة الشعب يميلون مع الوفد ضد القصر.

في هذه الأثناء انشغل سيد بقراءة الكتب المختلفة التي تزخر بها مكتبة خاله، بالإضافة لقراءة الصحف التي تملأ البيت، ومن هنا بدأت مدارك سيد تتفتح على الأحوال السياسية والاجتماعية في مصر، والتي لم يكن يدركها وهو منعزل في القرية.

كان خاله أحمد حسين، يكتب في بعض الجرائد تحت اسم أحمد المُوْشِي، وله صلات وثيقة ببعض الأدباء المشهورين في ذلك الوقت منهم عباس العقاد، والمازني، وتوفيق الحكيم وغيرهم..

وأعجب أحمد الموشي بقدرات سيد على القراءة والاستيعاب والفهم، وطلب منه مراجعة ونسخ بعض مقالاته التي يكتبها. وهكذا انصرم العام حتى جاء العام التالي والتحق سيد بمدرسة عبد العزيز.

١٧ – في مدرسة المعلمين

في أحد أيام شهر سبتمبر عام ١٩٢١ دق جرس مدرسة المعلمين الأولية "مدرسة عبد العزيز". كان هذا هو اليوم الأول لالتحاق سيد بالمدرسة، فدخل

الفصل مضطرباً، وكان يضطرب ويحس انقباضاً إذا أقبل على أناس لا يعرفهم، وجلس في مقعده منعزلاً يشعر بشيء من الوحشة. في تلك الأثناء دخل مدرس طويل أخضر العينين، طويل الشعر، يربط رقبته برباط على شكل فراشة، ويتأبط صندوقا من الخشب، فلما رآه الأولاد قاموا تحية له، فقال لهم باللغة الإنجليزية "sit down". فهم الأولاد معنى الكلمة بسهولة، لأن كثيراً من الكلمات الإنجليزية كانت شائعة ومعروفة بسبب وجود الاحتلال البريطاني في مصر آنذاك. جلس الأولاد وراحوا يتطلعون إلى الصندوق الخشبي الذي وضعه أمامهم على الطاولة، تخيل سيد أن المدرس سيمد يده إلى الصندوق ويقوم ببعض الأعمال السحرية كما يفعل الحواة عندما يمرون بقريتهم أيام الموالد والأعياد.

فتح المدرس الصندوق ومد يده في داخله، فأخرج رقعاً خشبية صغيرة كتب عليها حروف الهجاء الإنجليزية، فأحس سيد بخيبة الأمل فليس هناك سحر ولا يحزنون. رفع المدرس الرقعة أمام التلاميذ وراح ينطق الحروف في وضوح، ولما انتهت الرقع التي في الصندوق، طلب من الأولاد أن يرددوا النطق بعده. وانتهت الحصة وسيد كالتائه، يحس بجو غريب، لأنه يردد ألفاظا لها رنين غريب في أذنه لا يفقه لها معنى. لكنه سرعان ما استعان بابنة خاله "سميرة" فشرحت له الحروف وبدأ يستوعبها جيدا.

راح المدرس يعطيهم كلمات يحفظونها عن ظهر قلب، ويحفظون مرادفها بالعربية، فإذا جاءت حصة التسميع أخذ يسأل كلا منهم عن معنى الكلمات التي أعطاها إياهم، فكان سيد يجيب عن المعنى بسهولة ويسر. وكان كثير من الأولاد يهربون من المدرسة، ويمضون نهارهم في الحارات القريبة يلعبون، حتى إذا دق جرس الانصراف انصرفوا إلى بيوتهم مع التلاميذ المواظبين.

لاحظ سيد أن الحياة في القاهرة تختلف عن القرية تماماً، ففي القرية كان الناس موزعين بين أحناف وشافعية ومالكية وحنابلة وطرق صوفية.. أما في المدينة،

وخصوصا بعد ثورة ١٩١٩، فقد انقسم الناس إلى ليبرالية وعلمانية ودستور ووفد.. وبدأ الناس يستعيضون عن تعصبهم للمذاهب الفقهية بتعصبهم للأحزاب السياسية، إذ نشأ حزب الأمة بقيادة أحمد لطفي السيد، الذي يمثل طبقة كبار الملاك، ونشأ الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل، ثم الحزب الدستوري، والحزب المصري، والحزب الجمهوري.

في تلك الأثناء انهمك سيد في الدراسة، ولم يرجع للقرية منذ غادرها من ثلاث سنين، وبدأ يجرب نفسه في كتابة المقالات، فنشر أول مقالة له في صحيفة "البلاغ" عام ١٩٢٢ عن طرق التدريس، بعنوان:" الحصة الأولى أهم حصة في حياة المدرس "

في تلك الأثناء أخذ يتابع كتابات عباس العقاد، الذي وقع تحت سحره من أول مقالة قرأها له.. ولما رأى خاله "أحمد حسين" شغفه بالعقاد وعده بأن يصحبه معه لزيارته في بيته في أقرب فرصة. شعر سيد بفرحة عارمة لم يشعر بمثلها قط منذ مجيئه للقاهرة، لكنه أخذ يؤجل لقاء العقاد، وقد أثرت في نفسه فكرة مقالته التي نشرها عن التدريس بأن الحصة الأولى أهم حصة في حياة المدرس.

في القرية يذهب بعض الفتوَّات لقرى بعيدة يتدربون سراً على الأعمال الشاقة كحجر الساقية وضرب الأشجار بالشوم، حتى تقوى أجسادهم دون أن يشعر خصومهم بذلك، ثم يأتون بعد ذلك لمبارزة خصومهم وهم في غفلة عما مارسوه من تدريبات شاقة عنيفة استعداداً ليوم النزال الرهيب. هكذا فعل سيد عندما أخذ يؤجل لقاء العقاد ريثما يتمكن من قراءة جميع كتبه ومقالاته، ومن ثم يناقشه مناقشة جادة تستحوذ على عقل العقاد منذ اللقاء الأول، وقد نجح في ذلك أيما نجاح.

١٨- الوابور

من ينظر إلى الطفل «محمد قطب» ذي السنوات الثلاث، فإنه سيشفق عليه لوحدته وعزلته، فهو لم يرَ شقيقه سيد منذ مولده سوى مرة أو مرتين عندما كانت أمه تصحبه معها إلى القاهرة، ونحن الآن في عام ١٩٢٢. ونرى الطفل محمد قطب يخطو إلى الباب المطل على الشارع، ويحاول فتح ترباسه الحديدي وتخطي عتبته العالية بساقيه الصغيرتين، لكنه لا يفلح فيعود أدراجه في الطرقة الممتدة داخل الباب، ويقف أمام المخزن الذي ينفتح بابه على هذه الطرقة، وتحدثه نفسه بدخوله لكنه يخشى الظلام الذي يسود في هذا المخزن، فيتجه إلى السطح ذي السور الدائري، وهناك على يسار السلم حجرة دوماً يطلب الصعود إلى سطحها، فقد كان الارتقاء إليها أملاً حاراً يساوره كلما صعد إلى السطح، فحملته شقيقته «أمينة» على يديها، وجذبته شقيقته «نفيسة» من أعلى فصار في ذلك المرتفع الشامخ الذي كان يحلم به.

ثم نزل عن سطح الغرفة إلى سطح البيت وراح يتفرج من الناحية البحرية على نخلتين شاهقتين تهزهما الريح فيأتيان بحركة متناسقة تهز فؤاده كله، ثم تُسقطان رطباً جنياً، فيسرع لالتقاطه قبل أن تصل إليه يد إنسان.

ويتفرج من هناك على البئر العميقة تحت الحائط مباشرة، ويشد نفسه على السور شدًّا ليرى عمقها المظلم الذي لا يبين، وينظر فيرى رجلا يسحب حبل الدلو حتى يمسك به، فيريق ماءه في الحوض ثم يتركه يكر في البئر بحركة سريعة جميلة. ما أجمل هذه الحركة لو أتيحت له!

فإذا ملَّ التفرج من السطح، ولم تعبأ به النخلتان، ولم تسقطا له الرطب، نزل حتى يكون عند الباب الخارجي لا يبرح عتبته. فقد كان يرهب الشارع، ولا يأمن الخروج إليه وحده.

ومنذ جاء إلى الدنيا وهو يرى في هذا المنزل بقرة صغيرة، كانت تخرج صباحاً ومساءً لتشرب ثم تعود، ودوما تقترن البقرة في ذهنه بخادمهم «عطوة» الذي يذهب بها ويروح. «عطوة» ذلك الرجل الطويل، بالغ الطول، كبير الأنف، عظيم الشارب، الذي كرهه حين رآه، وكرهه أكثر حين تعددت زياراته لهم بعد ذلك، فقد كان يحقد عليهم، ولا يزال يسخر من آمالهم كلما أملوا، وبأحلامهم كلما استراحوا إلى الأحلام.

واختفت البقرة بعد زمن قصير من مجيء عطوة، فما يدري بعد ذلك أين ذهبت، لكنه يذكر أن عطوة أخذها ذات مرة ولم يعد بها، فاشتد وجده عليه.

وكان لهذا الطفل «جوخة»[١١] يفرح بها فرحاً شديداً حين يلبسها، ويقفز ويثب، والكون كله لا يسعه من السرور.. كانت واسعة، فيدخل رأسه من جيبها وهو لابسها فيرى بدنه كله قد شغل من فراغ الجوخة حيزاً صغيراً..

كما كان له حذاء أصفر برقبة طويلة؛ يقال له إنه حدث خطأ في شرائه، فقد كان الزوج لقدم واحدة! ولقد كان هذا الحذاء عزيزاً عليه جداً، بل ليس في طفولته أعز منه فيما لبس. وذات مرة صعد على السطح فوجد «فردة» منه قد عملت فيها الشمس عملها، فحملها ونفسه تتقطع عليها حسرات، وحاول أن يعيد مجدها السالف فلم يستطع أن يعيده، فتركها والدموع تسح من عينيه.

وقد كان سطح منزلهم سطحين غير متصلين إلا بجدار ضيق كأنه قنطرة صغيرة، ودوماً يتحرق شوقاً إلى عبور هذه القنطرة إلى السطح الآخر الذي تراكمت فيه أحطاب القطن والذرة المستخدمة للوقود. ولكن أحداً لم يكن يسمح له بعبورها، فقد يقع إذا اختل توازنه فيهوي إلى الطابق التحتي أو إلى أرض الشارع بلا رفق أو هوادة. لكن الشوق المتأجج ظل يدفعه مرة بعد مرة حتى اعتلى القنطرة

---

[١١] جوخة: عباءة

وسار عليها كالقط بيديه ورجليه حتى وصل سالماً. وقد كبر في عين نفسه بهذه المخاطرة عدة درجات.

وفي أسفل المنزل «منظرة» سدت منافذها، فما عاد يدخلها النور حتى في وضح النهار، وصارت مخيفة في بعض أجزائها حيث لا يستطيع الواقف أن يرى شيئا مما حوله. لكن الطفل العنيد دخلها مرة متحدياً، ولبث فيها بضع لحظات يغالب الخوف، ويرتعش منه بدنه فلا يصرح به، ثم يخرج بعد ذلك يعلن انتصاره على الخوف من الظلام.

ولما كبر قليلا صار يكثر من الدخول إلى هذه «المنظرة» المظلمة في الصباح والمساء واعتاد ذلك حتى صار لا يرهب الظلمة، ولا يخشى البقاء فيها وحده منعزلاً عن الأحياء جميعاً، بل إنه بدأ يحب ذلك ويطمئن إليه.

في الواقع إن هذا الاطمئنان إلى الظلام والبقاء فيه، هو الذي عوده على العيش وحده حين جاء إلى القاهرة فيما بعد، فقد كان يقضي معظم الليل وحده حتى يجيء سيد، وقد نام أو أوى إلى عينيه النوم!

وتلك كانت بذرة الانطواء الأولى التي غُرِست في نفس هذا الطفل فنمت، ووجدت الظروف المواتية أكثر حين أصبح في القاهرة يعيش طوال اليوم وحده بلا شريك من نفس عمره، وظلت تنمو حتى صارت ملء نفسه كلها، وملء حياته كلها، وصارت تسيطر على كل ما يجري في كيانه من أحاسيس.

وفي القرية كان يخرج مع والده إلى الحقل فيرى عالماً فسيحاً جميلاً ممتداً إلى آخر مدى النظر لا يحده من هنا ومن هناك إلا الجبلان القائمان في السماء، وهما في ذاتهما منظر عجيب جميل!

لقد خيل إليه أول الأمر أنهما على بعد مئات الأمتار، ثم سار وسار فإذا البعد بينه وبينهما على حاله لم يتغير. وظل يعجب: ما هو الجبل؟ كيف ينبت في الأرض؟ وهل السماء تنتهي هناك؟ هل السماء مرتكزة على الجبل هنالك عند منتهى النظر؟

أم هي وراءه؟ وما هي السماء؟ وما هذه الزرقة الصافية التي يراها فيها أبداً؟ وهل سيمشي يوماً إلى هذا الجبل البعيد حتى يدركه، ويرى هناك مبدأ السماء! ويلمسها بيده ويطَّلع على سرها العجيب!

بيد أنَّ أعجب ما في الحقل بناء سمع فيه أزيزاً وحركة واصطخاباً، فسأل ما هذا؟ قيل له: هذا «وابور ماء».

وابور؟! ما أجمل وقع هذا في نفسه.. إن فرحته بهذا الوابور لا تعدلها فرحة في الوجود كله. هذه الآلة التي تدور بسرعة تخطف الأبصار، فينتج من دورانها خروج الماء من باطن الأرض ويصب في القناة. هذه آلة عجيبة حقاً يود لو يدرك كنهها، ويود لو تفك أمامه قطعة قطعة، ثم تركب ثم تدار، فيعرف كيف تدور، ويعرف وظيفة كل جزء دقيق فيها ويعرف تلك الصلة السحرية العجيبة بين آلة تدور وماء يخرج من الأرض.

لقد وقف أمامها كالمذهول فاغراً فاه، واستغرقه النظر إليها حتى لم يعد يسمع ولا يرى إلا أزيز الآلات وحركتها الدائرة المنتظمة، وود لو يبقى الدهر كله لا ينتقل من هذا المكان الساحر العجيب.

وتعددت زياراته لهذه الآلة، وهو يقف بجانبها كل مرة كالمذهول، لم يشبع منها قط، ولا ذهب عنها يوماً وهو راضٍ عن الذهاب؛ فقد كان في كل مكان يشتاق إلى المنزل، ويستحث نفسه على الرجوع إليه، إلا في هذا المكان، فهو ينسى المنزل، وينسى العالم كله بما فيه، وتستغرقه المتعة بهذا السحر، ويود لو كان يذوب فيه، ويود لو يستطيع أن ينساب مع هذا «السير» الذي يلف بين «طارتين» بسرعة مجنونة.

وبقي ذلك الشوق كامناً في دمائه بعدما كبر، واستقر في أعمق جذور نفسه، كأنما وُلِد في أحضان هذه الآلة وشب بين طياتها. وذلك شوق لم يطفئه الزمن قط؛ فقد قضى طفولته كلها يحن إلى الآلات حنيناً مجنوناً؛ وقضى شبابه المبكر يتمنى أن

يحل هذه الآلات ويركبها ويعرف أسرارها الدقيقة. وكانت كل أمنيته في الحياة أن يصبح مهندساً كهربائياً حتى يغرق في هذه الآلات، ويطفئ شوقه، فلما امتنعت عليه هذه الرغبة تحولت طاقة التحليل الكامنة في دمائه إلى تحليل نفسه وشعوره، وأغرق في ذلك ليعوض بعض ما فاته من تحليل الآلات..

كان أوضح ما في الوابور: الطارة الكبرى والطارة الصغرى، يصل بينهما سير ضخم، وكان يحاول تقليد ذلك ببكرتين يدقهما في الحائط، ويصل بينهما بخيط، ويدير إحداهما فتدور الأخرى من تلقاء ذاتها، فيسر بذلك أيما سرور.

وهكذا ظلت حياته كلها تدور حول هذا الوابور، فمنه يأخذ تشبيهاته وحركاته وسكناته، يلعب ليقلده، ويتحدث ليصفه ويشيد بذكر عجائبه، ويمشي المشوار الطويل، المحفوف بخطر الكلاب الضارية ليمتع نفسه بالتفرج عليه حيناً من الوقت.

كان في نفسه، إلى جانب هذا الشغف العنيف بالآلات وعالمها الملموس، إيمان بالقوى الخفية التي تستطيع أن تغير ما يراه ويلمسه بحواسه. لكنه على النقيض من سيد لم يكن يخشى العفاريت، ولا يؤمن بوجودها، لكنه يؤمن بالسحر، وكانت هناك لعبة بسيطة تلعبها معه أخته «نفيسة»، فيصدقها، ويؤمن بها.

كانت تضع له في إحدى يديه ثلاثاً من نوى البلح وأربعا في اليد الأخرى، ثم تغلق له يديه، وتضعهما متجاورتين، وتظل تتمتم وتقول: «روحي يا تلاته، تعالي يا أربعة».. وهي تمر بيدها على يديه في حركة دائبة بعضاً من الوقت، ثم تقول له: افتح يديك وانظر فيجد الثلاث قد صرن أربعاً بقدرة ساحر عجيب!

وينط على الأرض نطاً، وهو يرجوها أن تكشف له عن هذا السر الغريب الذي نقل النواة من يد إلى يد، وهو لم يفتح هذه ولا تلك!

ذانك تياران قويان في نفسه يفترقان حيناً ويلتقيان حيناً، لكنهما موجودان معاً على بعد ما بينهما في الأصل والاتجاه: فأحدهما إيمان بالواقع المحسوس وانكباب

عليه، كأنه بناء الحياة الأوحد الذي ليس وراءه شيء، والآخر إيمان بما وراء الحياة من قوى خفية، وهي أعظم أثراً من ذلك المحسوس كله، وإن كانت لا ظهر ولا تَبِين.

١٩- عودة إلى الريف

في عام ١٩٢٤ تخرج سيد من مدرسة المعلمين الأولية، حاملاً إجازة الكفاءة للتعليم الأولي. كان الوقت صيفاً عندما حضرت أمه إلى القاهرة لتصحبه إلى القرية التي لم يرها منذ ثلاث سنين، أوصلهما خاله إلى محطة القاهرة، وما إن تحرك القطار باتجاه الصعيد حتى نسي سيد القاهرة وكل شيء وراءه إلا عباس العقاد، واتجه تفكيره نحو القرية ونحو "ثريا" بالذات.. كيف سيكون موقفها عندما تراه الآن.

كانت ثريا أول فتاة خفق لها قلبه، وبعدما غادر القرية، ظلت في وجدانه، وظل وجهها يتخايل أمامه يرسم له نماذج الجمال للفتاة الجميلة. ها هو ذا يعود إلى القرية بعد ثلاثة أعوام، يحثه الشوق لرؤيتها أكثر مما يحثه إلى أي شيء آخر. عاد إلى القرية وهو يتخيل أن ثريا ستكون أكثر إعجاباً به الآن، وسوف تبوح له بهذا الإعجاب عندما تراه أفندياً من الأفنديات. نزل من القطار واستقل عربة للقرية، وبعد سفر طويل في الطرق الترابية المتعرجة بين الحقول الخضراء وأشجار النخيل، وصل إلى القرية. كان يتوق لمعرفة أخبارها، لكنه لا يدري كيف يسأل عنها. جاءت ابنة عمه، التي توقع أن تكون بصحبتها، لكنها جاءت بمفردها، فشعر بالقلق وخيبة الأمل.. جلست ابنة عمه مع أخواته، وجلس هو معهن يتحدث عن القاهرة حتى دون أن ينفض عن نفسه غبار الطريق، ثم بعدما قضى فضولهن من السؤال عن القاهرة، كان لابد أن يسأل هو عن القرية، أو بالأحرى عن ثريته، ولكن بطريق ملتو حذر فقال:

- هل البنات لا زلن يتعلمن في المدرسة؟

قالت أخته نفيسة ببراءة:

- كلا. لم يبق منهن واحدة. كلهن خرجن من المدرسة، وجاءت بنات أخريات غيرهن..

قال وقد تملكه حرج:

- لربما تزوجن كلهن الآن؟

قالت نفيسة وقد فهمت قصد أخيها من خلال حرجه الذي تعرفه من تهدج صوته:

- لا.. لم يتزوج منهن سوى ثريا وسعدية وصالحة..

عندما سمع اسم ثريا لم يهمه سماع باقي الأسماء، لكنه لا يقدر أن يسأل عنها مباشرة، فسأل في حذر والتواء:

- هل تزوج جميعهن في القرية؟

قالت نفيسة بنبرتها غير المتكلفة وهي تقدم الشاي للجالسين في المنظرة:

- سعدية وصالحة تزوجن في القرية، وثريا تزوجت في قرية "الزاوية" ولا أحد يعرف عن أخبارها شيئاً!

عند ذلك لم يعد له داع ليبقى جالساً في الجمع الذي يتسامر ويضحك في فرح، ولا يشعر بمدى الألم الذي اعتصر قلبه الآن، ولم يلحظ عينيه التي طفرت بالدموع وتكاد تنحدر على وجنتيه وتكشف مكنون نفسه.

تلك كانت نكسة جديدة في حياته، وها هو بعد أكثر من ثلاثين عاما يقول عنها:

أنساك؟ كيف! وأنت بين جوانحي شطري الجميل، وأنت وحي خواطري
أنساك! والآمال والذكرى معاً موصولة بك في صميم مشاعري
وإذا هفوتُ إلى الجمال، فإنما أهوى مثالكِ في الجمال الغابرِ
نبضَ الربيع، فكنتِ أولَ نابض في خاطري يهفو، وأولَ زائر

ومن المفاجآت التي آلمته أنه وجد أرضهم قد نقصت كثيراً، وأن والده باع مزيدا من الأطيان، ليوفر له نفقات التعليم، وأن الأسرة لم تعد تقوى على نفقاته الآن. حزن حزناً شديداً عندما رأى أسرته تتدهور بهذا الشكل المؤسف. هنا بدأ يفكر في البحث عن وظيفة مدرس في القاهرة بالشهادة التأهيلية التي يحملها حتى يعفي أسرته من نفقاته. وما إن انقضت أيام قلائل حتى أحس بالملل من الجلوس في القرية، ولم يجد في القرية الراحة التي تخيلها، كما لم يجد بينه وبين الناس الألفة التي كان يتوقعها، أصبح كأنه غريب عنهم وهم غرباء عنه، ضُرب بينه وبينهم بحجاب كثيف، وأحس بالغربة وراح يستعجل العودة إلى القاهرة، واعتزل في البيت يقرأ كتب العقاد بشغف كبير. في تلك الأثناء وصل خاله إلى القرية ومعه زوجته وبناته لقضاء أسبوع في القرية ثم يعودون جميعاً إلى القاهرة.

٢٠- لقاء عباس العقاد

عاد سيد مع خاله إلى القاهرة، وما إن استقر في بيت خاله حتى فكر في لقاء العقاد، فقد استعد لهذا اللقاء بقراءة كتب العقاد كما يستعد التلميذ لامتحان خطير. كان اللقاء صباح الجمعة. في ذلك الصباح ذهبا إلى حي مصر الجديدة. فلما وصلا إلى بيت العقاد وبدآ يصعدان السلم الرخامي القديم، شعر سيد بالسعادة وهو يخطر فوق درجات السلم، الذي طالما صعده العقاد. أخيراً وصلا إلى الشقة، ودق خاله الجرس بطريقة توحي بأنه طالما أتى إلى هنا ودق هذا الجرس مرات ومرات. كان الوقت صباحاً وقد حول العقاد عدد كبير من تلاميذه. نهض العقاد ليسلم في بشاشة، ثم قال في دعابة وقور، تخالطها ضحكته التي تعرف من بين مليون ضحكة:

- إياك تكون نسيت فطائر الصعيد زي كل مرة يا أحمد يا موشي؟

أجاب أحمد الموشي بطيبة فلاح أصيل:

- إزاي يا أستاذ.. لو حضرتك طلبت معبد أبو سمبل كنت جبته معايا..

وضحك الجميع، ثم جلسوا بعد السلامات والترحيبات، والتفت العقاد إلى سيد الذي كان يشعر بالحرج وهو يجلس بين أشخاص يرى نفسه أصغرهم سناً، وقد أدرك العقاد حرجه فأخذ يسأله عن دراسته وعن ثقافته، وهنا بدأ سيد يتدفق في الحديث، فقال سيد:

- هل من الممكن أن أوجه إليكم سؤالاً يا أستاذ؟

- نعم.. تفضل..

قال سيد:

- إنكم من أعلامنا الذين شاركوا في النقلة الكبرى في الأدب العربي، وقد كتبتم في شتى أنواع الأدب، لكن لماذا في مجال القصة ليس لكم أي مساهمة؟

نظر العقاد إلى سيد وقد أدرك ذكاءه وسعة اطلاعه فأجاب:

أنا بطبيعتي لا أحب البوح.. حتى في الشعر أنا لا أبوح فما بالك بالقصة!

ثم استطرد العقاد قائلاً:

- وأظن هذا الرأي مشهوراً عني، وقد صرحت به أكثر من مرة والكل يعرفه..

وهنا انتهز سيد فرصة حديث العقاد عن الشعر فسأل سؤالا أذهل العقاد:

- ألا ترون يا أستاذ أن شعركم هذا من البوح، ثم قرأ سيد الأبيات التالية غيبا:

تَرِيْدين أَنْ أَرْضَى بِكِ اليومَ للْهوى وأرْتَادُ فيك اللهوَ بعد التعبدِ
وألقاكِ جِسْماً مُسْتَباحاً وَطَالما لقيتُك جَمَّ الخوفِ جَمَّ التردِدِ

وهنا رد العقاد بطريقة بين الفخر والإعجاب:

- وتحفظ الأبيات أيضاً؟

قال سيد وهو يشعر أنه سدد هدفاً صائباً في مرمى يحرسه لاعب بارع:

- ليست هذه الأبيات فقط، إنما أحفظ جميع ما كتبتم من الشعر يا أستاذ..

لقد أذهلت هذه الإجابة العقاد وأذهلت خاله حسين أيضاً، فقال العقاد بعدما هزَّ رأسه بوقار: عال..

وأراد سيد أن يحرز هدفاً آخر، فقد رأى المرمى مفتوحاً أمامه فقال:

- يقول بعضهم عن "العبقريات" التي تكتبونها أنها أدب مترفع، يتنافى مع الدعوة بأن يكون الأدب في خدمة الشعب، فما رأيكم في هذا؟

فاطرق العقاد لوهلة مفكراً فيما سمعه وهو يضغط كفيه الكبيرتين، وارتسمت على وجهه علامات جد طارئ فوق جده الفطري، ثم أجاب وهو يشير بسبابة يده وقد ثنى أصابعه كأنه يضغط على زناد مسدس:

- أدب مترفع؟!.. أدب لا يخدم الشعب؟!.. من الغبي الذي قال هذا؟

وأوشك سيد أن يقول له: فلان.. لكن العقاد استطرد كلامه وقد احمر وجهه قليلاً، واكتنفت صوتَه حرارةُ الانفعال:

بالعكس.. الذي لا يخدم الشعب هو الذي يفترض فيه الجهل الأبدي.. ثم إن العبقري ممتاز بطبيعته، والتعبير عن الممتاز يتطلب امتيازاً، فبدلاً من هبوط الأديب بأدبه ليفهمه الناس، لماذا لا يرتفع الناس بعقولهم ليفهموا الأديب؟

واتجه العقاد إلى سيد وسأله بابتسام:

- يكفيك هذا؟

نعم لكن.. لدي سؤال أخير: ما المدرسة الأدبية التي تفضلونها؟

أنا أفضل المدرسة (النفسية)..

قال سيد بحرج: لماذا يا أستاذ؟

-لأنها ترد كل شيء إلى الإنسان، ونحن لا نستطيع أن نفهم أديباً أو فقيهاً إلا إذا فهمناه نفسياً، هذا هو مفتاح الإدراك لكتابات الآخرين وشخصياتهم.

بدأ عدد المستمعين في شقة العقاد يتزايد.. كان هناك ثلاثون من الحاضرين يسمعون هذا الحديث، وكان الزمن يمر، وباب المكتبة المفتوح، يقع أمام بصر سيد عبر الصالة، وخادم عجوز بجلابية بنية يعيد بعض الكتب إلى أماكنها من الرفوف حتى يناديها صاحبها ذات يوم أو ليلة، وطيف جميل يراود خيال سيد وهو يجلس مثل العقاد وحوله التلاميذ، وأمامه المكتبة المليئة بالكتب، والتلاميذ يمسكون أقلامهم، ويسجلون في أوراقهم كل ما ينطق به من كلمات..

ترك سيد الحديث لغيره، وخرج هو وخاله من منزل العقاد بعد أن استأذنا منه، وفي تلك اللحظة كانت صداقة قوية قد بدأت تتخلق فوق رأسي سيد والعقاد.. صداقة سوف تدوم ربع قرن من الزمان.. صداقة سيكون لها أكبر الأثر على حياة هذا الفتى وفكره فيما يستقبل من الأيام..

نزل سيد درجات السلم وأخذ يعدها مرة أخرى، وعندما وصل إلى الأشجار المتواضعة، التي تطل عليها نافذة العقاد، تعجب بأنها لا توجد تحت نافذته شجرة واحدة تحمل الأزهار.

لكن منذ اليوم سوف تغرس شجرة جديدة تحمل الأزهار..

على أن اللقاء الأول مع العقاد لقاء له دلالة رمزية، فسيد يزور العقاد فيلقى هناك رجلاً يكبره بسبعة عشر عاماً، يوجه إليه سؤالاً في توقير ويجيبه عنه ببرود، وعند المساء يعلم سيد بحدس داخلي، وقد تولاه الفزع، واستولت عليه كآبة غامضة- أن العقاد لم يتعرف عليه ولن يتعرف[١٢] عليه قط، وكان هذا صحيحاً،

[١٢] معنى التعرف هنا هو "التعارف الروحي" المذكور في قول النبي صلى الله عليه وسلم: (الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف).

حيث إن العقاد لن يذكر سيد قط، ولو بسطر واحد، على نحو أربعين عاماً، لقد كان سيد منجذباً إلى العقاد انجذاباً ذا جانب واحد.

٢١- أمير الشعر وأمير البؤس

في شتاء عام ١٩٢٧ أعلن عن تتويج أحمد شوقي أميراً للشعراء، في حفل أقيم بدار الأوبرا. ذهب سيد لهذا الاحتفال الذي حضره كبار الشعراء، من أمثال خليل مطران، وحافظ إبراهيم.. ألقى الشعراء والأدباء قصائد في مدح أحمد شوقي. ثم دعا عريفُ الحفل "محمود أبو الوفا" ليتقدم لإلقاء قصيدته. كانت تلك أول مرة يسمع فيها سيد اسم محمود أبو الوفا، وكذلك باقي الحضور لم يسمعوا بهذا الاسم إلا في هذا اليوم.

اشرأبت الأعناق ودارت العيون في كل مكان لترى أبو الوفا، ومن بين الصفوف الخلفية تقدم شاب مبتسم هادئ، يرتدي جلباباً أبيض وطاقية بيضاء، مبتور الساق يتوكأ على عكازتين. ران صمت على الحضور، ولم يعد يُسمع في القاعة إلا طرق العكازتين على بلاط الصالة وهو يخطو نحو المنصة، فلما وصل إلى المنصة لم يستطع أن يعتليها بسبب ساقه المبتورة، توقع أن يقوم أحمد شوقي ويمسك بيديه ويساعده، لكنه لم يفعل، بل بقي جالسا في مكانه ينظر إلى الشاب نظرات فسرها أبو الوفا، بأنها نظرات استياء وغضب، وأسر شوقي في تلك اللحظات للجالس بجواره كلمات: فسرها أبو الوفا كالتالي:

- ألم تجدوا غير هذا الأعرج ليلقي هذه القصيدة؟

هكذا انطفأت بداخله كل مصابيح الفرح، واستدار صامتاً وغادر المكان. أدرك أحمد شوقي الحرج الذي لحق بالشاب، فأنشد قصيدة يمدح فيها محمود أبو الوفا،

كانت السبب الذي حدا بالحكومة لإرساله إلى فرنسا لتركيب ساق صناعية له، ومما جاء فيها:

البلبلُ الغرِدُ الذي هزَّ الرُّبى وشجى الغصونَ وحرَّكَ الأوراقا
سَبّاقُ غاياتِ البَيانِ جَرى بِلا ساقٍ فَكَيفَ إِذا اِستَرَدَّ الساقا
لَو يَطعمُ الطِبُّ الصَناعُ بَيانَهُ أَو لَو يُسيغُ لِما يَقولُ مَذاقا
غالى بِقيمَتِهِ فَلَم يَصنَع لَهُ إِلّا الجَناحَ مُحَلِّقاً خَفّاقا

منذ ذلك الحين ربطت صداقة قوية بين سيد وبين محمود أبو الوفا، وأصبح أبو الوفا من رواد مقهى الحلمية الذي يجتمع فيه سيد مع أصدقائه يتناقشون في القضايا الثقافية.

بعدما اشترى سيد بيته الذي في حلوان، كان أبو الوفا دائم الجلوس عنده، تحت ظل شجرة السنديان الضخمة المنتصبة في وسط الحديقة والتي تتدلى منها مصابيح الكهرباء، تراه يقلب في أوراق بين يديه ليقرأ قصيدة كتبها بالأمس، وأمامه كأس شاي أو فنجان قهوة، وعكازه مركوز على الطاولة أمامه، وسيد مطرقا يستمع إليه يهز رأسه، ويعلق على كلمة أو جملة، ثم يتناقشان في معاني القصيدة وبعض القضايا الأخرى، وأحيانا يقرأ سيد نقدا قبل أن يرسله للجريدة، فيقترح أبو الوفا تغيير بعض العبارات نظرا لأنه كان يعمل مدققا للنصوص في مطبعة، ويختم ذلك كله بوجبة عشاء لا بأس بها، ربما تكون هي أول وآخر طعام يطعمه محمود أبو الوفا في يومه وليلته.

على أية حال، أعجب أبو الوفا بسيد وكتاباته وأشعاره، وإذا جاءت سيرة العقاد تحدث عنه أبو الوفا باستخفاف واصفاً إياه بالكبر والغرور قائلاً:

"كنت أشعر أن العقاد يريدني أن ألثم يده لأنه كتب نقداً عن قصائدي!" كان هذا الحديث يطرب سيد وخصوصاً بعدما انقطعت صلته بالعقاد، بعد عام ١٩٤٥، وكان سيد يرى أن شخصية أبو الوفا تمتاز بالحكمة والروية والعمق.

وكما أنَّ لكل شيءٍ أجلاً فقد جاء الأجل الذي انقطعت عنده صلة أبو الوفا بسيد وبيته ومجلسه، بعد اعتقال سيد عام ١٩٥٤ واتهامه بالانتماء لجماعة الإخوان، فلم يعد يراه إلا مصادفة، خوفاً من الاعتقال لأن بيت سيد كان مراقباً طوال الوقت.

واسم أبو الوفا لم يلمع ولم ينل حظه من الشهرة والتقدير على الرغم من أن كبار الأدباء والنقاد قد كتبوا عنه وعرفوا به، وقد لقب "شاعر البؤس"؛ لسوء الطالع الذي لازمه طوال حياته، فقد بترت ساقه وهو طفل صغير بسبب الإهمال الطبي بعدما كسرت وأصابتها الغرغرينا، وتوفي والده في اليوم الذي بترت فيه ساقه حزنا عليه. وفي عهد الرئيس السادات تم منحه جائزة الجدارة وقيمتها ألف جنيه، فدفع الشيك إلى رجل يثق فيه ليصرفه له، فاستحل الرجلُ المبلغَ ولم يعطه شيئاً، واكتفى أبو الوفا بالفوز بلقب "الجدارة" عن جدارة.

وعندما تقدم أبو الوفا من الرئيس السادات لتسلم الجائزة سأله إن كان في حاجة إلى شيء؟ فقال: يا سيادة الرئيس، إنني أقيم في منزل قديم متهالك، ويكاد ينهدم فوق رأسي، فهلاّ أمرتَ بمنحي شقّة مريحة أقضي فيها بقية عمري. فأمر السادات بمنحه شقة جديدة فوراً، ومضت أربع سنين حتى تحقق هذا الأمر الفوري، ولما حصل على الشقة وجدها تقع في منطقة شبه صحراوية، وفي السنوات الأخيرة من حياته فقد بصره فلم يعد يبصر شيئاً.

قال أبو الوفا يشكو سوء طالعه الذي لازمه طوال حياته:

لَوْ خَلَعْتُ الثَّوْبَ أَبْغِي غَسْلَهُ أَقْسَمَتْ شَمْسُ الضُّحَى لَمْ تَطْلُعِ
لَوْ طَلَبْتُ النَّهْرَ أَرْوِي ظَمَأً لاشْتَكَى النَّهرُ جَفَافَ المَنْبَعِ
وَلَوْ إنِّي تَلْمسُ التِّبْرَ يَدِي حَوَّلَ التِّبْرَ تُرَاباً أصْبَعِي

٢٢- صديقان متغايران

كان سيد يحب انتقاء أصدقائه بعناية، بحيث يمثل كل صديق عالماً مستقلاً بذاته، متفردا في بابه. إن أصدقاءه مثل الكتاب الجيد؛ ولكل كتاب جيد شخصيته المتميزة وموضوعه الفريد. ولهذا كان أصدقاؤه متكاملين، يسد كل منهم حاجة في نفسه. كذلك كان صديقه "طاهر أبو فاشا"[١٣] الذي يتحلى بروح الدعابة والفكاهة والتعالي على الآلام والجراح، يأخذ الحياة بأريحية لينة، ويقابل الصعاب بابتسامة رخية. فإذا حدثك أو حدثته، وجدته شخصا يستقبل الحياة بحب وجنون، ويمتلئ بالغبطة والحبور والأمل بالمستقبل المنظور، محباً للناس لا يضمر في قلبه حقداً أو غلاً، لا يتعمق كثيراً في الأمور ولا يعكر صفو نفسه، ولا يتأثر بشيء أكثر من تأثر اللحظة الآنية. كان دوما يتأثر بسرعة، لكنه ينسى بسرعة أيضاً.

بلا ريب كانت تلك الخصال تعجب سيد في صديقه طاهر أبو فاشا. لقد كان سيد يفتقد هذه الخصال ويحاول أن يتحلى بها، لكن عزيمته دوماً تخونه وتخذله، لأن طبيعته ليست من هذه الجبلة في شيء.

لقد كان طاهر أبو فاشا، ممتلئاً بالثقة وعصارة الحياة، برغم قسوة الأيام وشظف العيش، لا يشعر بالحرج من فقره.. يسعى للتأقلم مع أي بيئة تُلجئه الظروف إليها.. يعيش بحس الدعابة والفكاهة.. وتلك طبيعة قلما تفارقه في ليله أو نهاره، ويندر أن تراه حزيناً أو مغتماً على شيء.

عندما تم فصل طاهر أبو فاشا من الأزهر خشي عليه صديقاه سيد، وعباس خضر، أن ينفطر فؤاده من الحزن، أو يحدث له مكروه "لا قدر الله!"، فباتا كلاهما في غرفة عباس خضر. وفي الصباح إذ بطاهر أبو فاشا يوقظهما من نومهما، وقد

---

[١٣] طاهر أبو فاشا (١٩٠٨ - ١٩٨٩)، شاعر وزجال مصري. بعدما حصل على شهادة دار العلوم سنة ١٩٣٩ عمل مدرساً في صعيد مصر، وظل يتنقل بين المحافظات حتى عمل سكرتيراً برلمانياً في وزارة الأوقاف. ثم رئيساً لقسم التأليف والنشر بإدارة الشئون العامة للقوات المسلحة. كتب للإذاعة أكثر من ٢٠٠ عمل فني أشهرها ألف ليلة وليلة التي كتب منها أكثر من ٨٠٠ حلقة أذيعت على مدار ٢٦ عاماً.

ارتدى بجامته الحريرية، وملأ السلطانية بالفول المدمس، وتحت إبطه حزمة من البصل الأخضر، وفي يده الأخرى أرغفة الخبز الساخن!

كان سيد ما إن يرى صديقه طاهر أبو فاشا، أو يجلس معه، حتى تنتقل العدوى إلى روحه المتعبة المثقلة بالهموم والأشجان، فيصبح مثله ممتلئاً بالأمل والتفاؤل، لكن سرعان ما تفارقه هذه الروح المرحة المتفكهة ويعود إليه حزنه وتبرمه الرتيب.

في إحدى الليالي انتظر سيد صديقه "طاهر أبو فاشا" الذي وعده أن يمر به عشاء، ليذهبا سوياً إلى "مقهى الحلمية". لقد كانت تتمثل سعادة سيد بالحديث مع صديقه طاهر، خلال الطريق أثناء سيرهما معا، أما إذا وصلا إلى المقهى فإن طاهر يتفلت من بين يديه كما يتفلت الماء، ويكون من نصيب الجميع، ولا يخلص لسيد وحده، ولا يقدر أن يخصه بحديثه ومناجاته. لقد كانت طريقه إلى القهوة أجمل من الجلوس في القهوة نفسها، ففي الطريق يستمعان إلى بعضهما البعض، ويتكاشفان بغير الأحاديث التي يزجي بها "طاهر" الوقت في قهوة الحلمية أمام الأصحاب، لكن طاهر في تلك الليلة تأخر ولم يأت لصحبة سيد إلى المقهى كالمعتاد.

ذهب سيد يبحث عنه فوجده في مقهى الحلمية، يتصدر المجلس كعادته، ويتحدث والكل ينصت له، عندها ظهرت على وجه سيد أمارات الضيق والانزعاج، لعدم اهتمام صديقه طاهر لانتظار سيد له، وما إن رآه طاهر أبو فاشا حتى أشار إلى كرسي بجانبه وقال:

- تعال يا سيد اسمع الحكاية قبل ما تفوتك..

تعجب سيد من قدرة هذا الشخص على التلون والتمثيل والخروج من المواقف المحرجة وكأن شيئاً لم يكن!

جلس سيد صامتا يفكر، ثم بدأ يستمع إلى حكاية طاهر أبو فاشا.

قال عباس خضر:

- هل كنت يا طاهر تشتغل صرماتي بحق؟

ضحك الجميع لكن طاهر لم يتأثر، وابتدأ كلامه بحيوية وكأنه يتحدث عن أمجاد غابرة لجندي قديم:

- لقد ألحقني والدي بورشة الشاذلي لأتعلم صناعة الأحذية، وأنتم تعرفون أن دمياط كانت المركز الأول لصناعة الأحذية.. بدأت أتشرب الصنعة، وتعلمت الأُكشا..

قاطعه عباس خضر متهكما:

- ما الأكشا يا حضرة الأسطه؟

قال طاهر أبو فاشا بلهجة الخبير العارف بدقائق الأمور:

الأكشا هي الفتلة التي نخيط بها الجزمة، نقوم ببرم طرفها حتى يصبح دقيقا يدخل في خرم الإبرة؛ لأن خيط الأحذية- يا حضرات- لابد أن يكون من ثلاث فتائل..

قاطعه محمود أبو الوفا:

يعني يا عم من الآخر: هل تعلمت أم لم تتعلم؟

قال طاهر أبو فاشا دون أن يلتفت إلى المتكلم:

أنا بدأت أخيط الكمرات، وأدق السبرتاكو، ووصلت إلى درجة أن أصبح الأسطة مكاريوس..

قال عباس خضر:

- ماذا يعني الأسطة مكاريوس؟

قال طاهر أبو فاشا وهو لا يزال مهيمناً على الجلسة:

الأسطوات نوعان: مكاريوس وكلفا.. ومكاريوس هو الذي يخيط، وتحت يده اثنان من الصبيان يساعدانه. أما الكلفا فهو الذي يشتغل بالسكين ويشد الخيط ويعمل الكعب..

سأله أحدهم:

- هل كنت تأخذ أجراً محترماً؟

قال طاهر أبو فاشا، وقد أسند ظهره على الكرسي، بافتخار:

- لقد وصلت أجرتي إلى جنيهين في الشهر.

قال عباس خضر ساخراً:

- جنيهان ثم الآن تجلس هنا وتنتظر من أهلك أن يرسلوا لك مائة وخمسين قرشا في الشهر!

قال طاهر أبو فاشا دون أن يظهر عليه الندم أو الحسرة:

أقول لك بصراحة؛ كنت أشعر أن هذه الصنعة ليست لي.. كنت أشعر أن نفسي محبوسة.. لا أملك حريتي.. كنت أمضي نهاري وجزءاً كبيراً من الليل في الورشة.. لا أرى إلا الصباغ الأسود، حتى أصبحت حياتي كلها سواد في سواد.. كنت دائما أشم رائحة الصباغ التي لا تفارقني.. ولا أخفيكم سراً أنني جعلت ألح على والدتي وأحرضها كي تقنع أبي أن أترك هذا العمل، لكن أبي لم يقتنع، فذهبت في مظاهرة بعد خروجي من الورشة، وشج رأسي في تلك الليلة، وحرصت على أن ألوث ثيابي بالدم، وعند ذلك أصرتْ والدتي على عدم ذهابي للعمل فتركته غير آسف عليه.

قال أحدهم: وماذا فعلت بعد تركك العمل؟

قال طاهر أبو فاشا بعدما سحب نفسا عميقا من الشيشة التي قرقر بداخلها الماء:

- لا شيء.. التحقت بدكان أبي الذي كان يبيع الحبوب..

سأله عبد الحميد الديب:

- هل دكان الحبوب أفضل من ورشة الأحذية؟

- تجارة الحبوب تجارة محدودة لا مغامرات فيها.. تجد تاجر الحبوب أمامه الأشولة، والقفف، والقدح، والربعة، والنص كيلة.. ولو جئته بعد ثلاثين عاما تجده لا زال في مكانه.. الدنيا تتحرك، والعالم يسير ويتقدم، بينما تاجر الحبوب كما هو في مكانه..

هكذا كان طاهر أبو فاشا منطلقا يشرح بحماسة ولا يلتفت إلى لهجة السخرية من هذا وذاك.. وكان سيد يعجب من امتلاء طاهر أبو فاشا بالسعادة على الرغم من أنه كان مفصولا من الأزهر في تلك الفترة فلم يتأثر بشيء من هذه الأحداث.. لكن سيد أدرك في تلك اللحظة أن طاهر أبو فاشا ليس هو الصديق الذي يناسبه أو يبحث عنه، وأن صداقتهما ما هي إلا مرحلة وتنتهي، ولا رباط يشدهما إلى بعضهما إلا كالرباط الذي يربط بين راكبَيْ قطار فرضت عليهما ظروف الرحلة أن يسافرا معا، فما إن تنتهي الرحلة حتى يمضي كل منهما إلى غايته غير ملتفت إلى صاحبه.

فما أشد ما يعاني "سيد" من العالم المحيط به، وما أشد غربته وسآمته في وسط زمانٍ صاخب يبعث على الأسى! فمن يمتلك مثل هذا الذوق الذهني لا بدّ له أن يحس كل لحظة لا ترتقي بالفكر على أنها إهانة، ولا بدَّ لنفس تنطوي على هذا الجانب من الرومانسية أن تعتبر بلادة الحس والخمول الفكري على أنهما كابوس. فإن حسه المرهف يلتقط بألم كل كلمة زائفة، وكل لفتة كاذبة.

في تلك اللحظة جرى على لسانه الأبيات الأولى من قصيدة سيكتبها في الغد:

غريبٌ أجل أنا في غربةٍ وإنْ حَفّ بي الصحبُ والأقربونْ
غريبٌ فوَا حاجتي للمُعِين ويا لهفَ نفسيَ للمخلصينْ

٢٣- ندوة حسن القاياتي

كان "مقهى الحلمية" الذي يعتبر مقهى الأدباء، يجتمع فيه سيد مع أصدقائه من أمثال الشاعر محمود أبو الوفا، ونجيب محفوظ، وعبد الحميد جودة السحار، وخضر عباس، وطاهر أبو فاشا، وعبد الحميد الديب..

لكن الوقت لم يطل بسيد قطب حتى عثر على الندوات التي يقيمها السيد حسن القاياتي[١٤]. كان هذا الشاعر قد خصص ندوات شعرية وأدبية للشبان يلتقون مرة كل أسبوع في فناء بيته الفسيح الذي يعود للعصر المملوكي، وتظلله أشجار النخيل والليمون، ويقع في عطفة السكرية.. في هذه الندوات كان يحتشد خليط من الشعراء، والأدباء، والكُتاب.. وكان يجالس هؤلاء الشبان رجل مسن كث الشارب، لحيم الوجه كأنه عمدة صعيدي، ويحظى باحترام الجميع وحبهم.. هذا الرجل هو السيد حسن القاياتي، الذي يعود نسبه إلى الصحابي الجليل أبي هريرة.. كانت عينا هذا الخمسيني الواسعتان القلقتان تنظران إلى هذا الحشد من الشباب في رفق وبراءة، وهو متلفع على الدوام بجلابيته السوداء، ومعتمر عمامته البيضاء. وبابتهاج كان يلبي ترجياتهم، ويخرج مخطوطات مجعدة من جيب جلابيته، ويقرأ قصائده. كانت قصائده ارتجالية وعبقرية. كان يدونها بقلم الرصاص في الترامات أو المقاهي، ثم ينساها. ومع أنه لم يكن من الأغنياء، فقد كان لا يبالي بالكرم والإنفاق، ولم يكن يبتغي شيئاً، ولم يكن يرغب في أن يكون مشهوراً أو معروفاً بين الناس. كان الشبان يتناقشون ويتصايحون حوله، وكان هو يخلد إلى الصمت لا يجادل أحداً، وقلما يخوض في الحديث.

إن هذه السجية الصادقة البريئة التي تحلى بها هذا الشاعر البسيط، الذي يكاد يكون منسياً اليوم في مصر والعالم الإسلامي، صرفت الكثير من الشبان الأدباء عن

---

[١٤] السيد حسن القاياتي (١٨٨٣-١٩٥٧) ولد في بلدة القايات، محافظة المنيا وسط الصعيد)، تربى تربية دينية صوفية وحفظ القرآن الكريم صغيرًا، وأرسله والده إلى الأزهر، كان عضوًا بالمجمع اللغوي بالقاهرة (١٩٤٢) وعضوًا بمجلس النواب في عصر الملكية.

تضييع أوقاتهم في التسكع على المقاهي والاحتكاك بروادها الذين كان تسعة أعشارهم ينتمون إلى طبقات متناقضة تماماً، سواء أكانوا من فوق أم من تحت، إذ كنت تجد أبناء الذوات، والباشاوات، والعمال، والفلاحين، والفقراء ذوي الملابس البالية، والأحذية المهترئة، ومدمني الأفيون والحشيش والشراب.. إن كل الأدباء من أصحاب الأدب الواقعي كانوا قد اندفعوا واحتشدوا في المقاهي، ليتمكنوا من معرفة الواقع من هذا الخليط غير المتجانس..

لقد كان لكلمات هذا الرجل وأفكاره أثر فعال في تكوين حياة أناس كثيرين، يفوق مئات المرات ما اكتسبوه من المقاهي. كان في عينيه الداكنتين طاقة مغناطيسية، وكان سيد قطب يحسن الإصغاء إليه، وإذا ما أراد انتقاده كان ينتقده عند عدم النظر إليه، لأن وجهه الكبير الطيب، والذي نحتته المعاناة الروحية، يدل على صفاء نفسه، وسلامة طبعه، وكمال مروءته.. كان الإصغاء إلى السيد حسن القاياتي تجربة مثيرة، لأن ثقافته كانت هائلة ومختلفة، وكان سيد قطب يعود دائما إلى المنزل بعد ندواته، وبعد كثير من الحوارات الخاصة، نشوان ومتحمسا للأدب والقراءة والشعر..

لقد كان لقاء رجل له مثل هذه الشخصية الجذابة في مرحلة مبكرة- حين كان يجود بما عنده على الشباب المحيطين به بكل مودة ومن غير مَنٍّ واستعلاء- قد أكسباه حباً عظيماً؛ فمعرفته الواسعة والعميقة جعلت سيداً يدرك أن الأدب الذي اعتقد أنه تمكن منه، طلاب دار العلوم المزهوين بأنفسهم زهواً مفرطاً، لم يكن ليكتسب بالقراءة والمناقشة المستعجلة، بل بأعوام من الجهد المضني الدؤوب.

كان سيد قطب جاداً لا يميل إلى المزاح وتضييع الوقت، ولا يحب الهزل أو الهزر، إنما دائم التفكير في قصيدة يكتبها، أو فكرة تشغله تبيت معه وتصبح. وعلى النقيض من ذلك كان طاهر أبو فاشا، صديق سيد، الذي ما إن يحضر حتى يقلب الجلسة إلى مقالب وقفشات..

حدث ذات مرة أن ذهب طاهر أبو فاشا وبعض أصحابه إلى الشاعر حسن القاياتي، وزعموا وهم حزانى آسفين، أن الأستاذ سيد محجوز في قسم البوليس، لأنه عندما كان يشرب عرقسوس، مشروبه المفضل، احتك بالبائع بدون قصد فكسر قِدْره الزجاجية، فأمسك به بائع العرقسوس، وسلمه للشرطة، وأصر على أن يدفع سيد ثمن القدر سبعين قرشاً، أو يزج به في السجن، وسيد لا يملك هذا المبلغ، فأعطاهم السيد حسن القاياتي السبعين قرشاً، وأدرك حسن القاياتي احتيال طاهر أبو فاشا، فتغاضى عن الأمر، وقلب الموضوع إلى فكاهة كعادته عندما قال طاهر أبو فاشا لصديقه سيد قطب، على مسمع من حسن القاياتي: لقد أرسلنا لك المبلغ مع عبد الحميد الديب، وهذا لا يوصل شيئاً. فضحك حسن القاياتي وقال: لقد أكله الذئب وأنتم عنه غافلون.

وكما طمع الناس في بذله وجوده طمعوا كذلك في شعره وقصائده، وكأنه بذله لهم يأخذون منه ما يشاءون من المعاني والعبارات، يقول الأديب عباس خضر: "إن شعر حسن القاياتي- نبيل الأغراض، مركز المعاني.. وكثيراً ما أغار على معانيه لصوصُ الشعر كأن صاحبها قد أنهبها لهم.."

أما سيد قطب فقد ذكره بقوله: "إن السيد حسن القاياتي عرض على الإذاعة المصرية مجموعة أشعاره كي تقرأ منها ما تشاء دون أن ينال عنها أجراً، لأنه مكتف بما عنده وليس من ذوي الأطماع المادية، فلم يعره أحد اهتماماً، في الوقت الذي يأتون فيه بكل من يعرف القراءة من محبيهم ليقدم قراءة أدبية".

٢٤- صداقات وعداوات

بدأ سيد الكتابة في الصحف والمجلات في وقت باكر من حياته عام ١٩٢٢ كما قال عن نفسه. ونشر في مجلة البلاغ، وكوكب الشرق، والوادي، والمصور.. بدأ ينشر قصائده ومقالاته النقدية محاكيا أسلوب العقاد والمازني، فقد كانت له قدرة

بارعة على محاكاة أي كاتب يريده، ويتقمص- باقتدار وعبقرية- أسلوب أي أديب يقرأ له ولو مجرد صفحات قليلة. ولما كان عباس العقاد مثله الأعلى في الكتابة والإبداع، فقد حرص على تقمص أسلوبه وطريقته في الكتابة، ومن يقرأ كتاباته ومقالاته كان لا يتصورها تصدر من يراع صبي في العشرين، لا يزال في تجهيزية دار العلوم، إنما يظن كاتبها ضخم الجثة فارع الطول كالعقاد. ومع ذلك فقد حظيت كتاباته بإعجاب القراء والأدباء المشهورين، وأصبح كثير منهم يتزلفون إليه ويتقربون منه.

وقد بدأ يكتب بطريقة مشابهة لطريقة العقاد، أكبر لغز في الأدب والنقد، تلك الظاهرة التي تكاد تكون أسطورية حينما يتساءل المرء: كيف ومتى ومن أين جاءت كل هذه المخزونات من المعرفة عنده؟

كان سيد أكثر ما يجد نفسه ويحقق ذاته في المعارك الأدبية التي يختلقها بشتى السبل. وأدب الرافعي[١٥]، مشكوراً، وفر له هذه الجبهة المشتعلة على الدوام والتي كان بحاجة إليها لمران ملكاته النقدية.. كذلك لم يسلم أحمد شوقي من نيرانه وقذائفه تأسيا بأستاذه العقاد. وهذا ما فتح عليه جبهة مشتعلة على الدوام من تلاميذ الرافعي الذين كانوا يصدون الهجوم بشراسة لا تقل عن شراسته، ومنهم أدباء لا يستهان بهم، منهم: محمود شاكر، ومحمد سعيد العريان..

وفي عام ١٩٣٢ أعلن في كلية دار العلوم عن إقامة ندوة عن الشعر، واقترح الأستاذ "محمد مهدي علام" أن يلقيها تلميذه النجيب سيد قطب. كان الأستاذ محمد مهدي علام، طيب القلب، محبا للعلم، يعامل تلميذه سيد كابن من أبنائه، فقام سيد بتكريس جهده ووقته لدراسة شعر أحمد شوقي وتصيد العثرات فيه،

[١٥] مصطفى صادق الرافعي (١٨٨٠- ١٩٣٧) أحد أقطاب الأدب العربي الحديث في القرن العشرين، كتب في الشعر والأدب والبلاغة باقتدار، وهو ينتمي إلى مدرسة المحافظين وهي مدرسة شعرية تابعة للشعر الكلاسيكي قدم العديد من المؤلفات الأدبية والدينية ومن أشهرها: "وحي القلم"، "حديث القمر"، "أوراق الورد"، "تحت راية القرآن"، "إعجاز القرآن والبلاغة النبوية".

وسجل فيما بعد خلاصة أفكاره- التي قدمها في هذه الندوة- في كتابه الأول "مهمة الشاعر في الحياة".

أما الأستاذ "محمد مهدي علام" فقد رعى سيد بأعمق ما في قلبه من الحنان بطريقة أبوية فائقة، وضبط على نحو منهجي وبحنو أيضا، على طموحه الوثاب، ليخفف من حدة التوتر الخطير في جموحه. وللحق فقد آلمه جموح سيد واندفاعه وغروره، ولم ينتبه سيد، في غمرة اندفاعه، إلى الألم الذي سببه لأستاذه الطيب، لكنه بعد سنوات عندما أخذ يسترجع هذه الذكرى أدرك أن ما فعله كان حماقة وطيش، وود لو يعتذر لأستاذه الطيب، لكن واأسفاه كان أستاذه تحت الثرى في ذمة الله.

في تلك الكلية حظي سيد بصداقات دامت سنين طويلة، منها صداقته مع "سعد اللبان" الذي أصبح وزيراً في حكومة الثورة، لكنه لم ينفعه بشيء، ومحمد إبراهيم جبر الذي كان يراسله عندما سافر لأمريكا. وأعز أصدقائه اثنان: "فايد العمروسي"، أديب وشاعر ومؤرخ، والدكتور "عبد العزيز عتيق" الناقد الأدبي المعروف، وهذان الصديقان برغم صداقتهما الوطيدة إلا أنهما التزما الصمت حيال سيد فلم يذكراه بشيء.

أما صداقته مع "محمد إبراهيم جبر" فقد توثقت لارتباطهما بتحرير (مجلة دار العلوم) التي كان سيد يشارك فيها بمقالاته النقدية لمدة أربعة وعشرين عاماً، وكان هدف المجلة الدفاع عن اللغة العربية وآدابها وعلومها، وهي لسان حال "جماعة كلية دار العلوم" التي قام بتأسيسها، سعد اللبان، ومحمد إبراهيم جبر، عام ١٩٣٣ كي تصبح جماعة كبيرة على غرار جماعة الإخوان المسلمين، لكنها فقدت دافعيتها بعد مرور أقل من سنة على تأسيسها، واقتصر نشاطها على المقالات والدراسات الأدبية، وانشغل سعد اللبان بطموحاته الوزارية، ولم يعد لديه اهتمام باستمرار المجلة أو انتشارها، فتوقفت بعد أربعة وعشرين عاماً من صدورها عام ١٩٤٧، وكان سيد، وهو في أمريكا، تعاوده الذكرى والحنين لأيام جماعة دار العلوم،

فيبعث بالرسائل، لصديقه إبراهيم جبر يسأله عن أخبارها وأين طوحت بها الأيام، إلا أن رسائله بقيت بلا جواب، وادَّعى إبراهيم جبر، بعدما ألتقى سيد، أن رسائله ضاعت في زحمة البريد فلم تصل إلى سيد في أمريكا.

في عام ١٩٢٨ ابتسم الحظ الإبداعي لسيد بصورة مدهشة وتلبسه شيطان الكتابة الأدبية بأنواعها المختلفة، فبدأ ينشر القصائد، والمقالات الأدبية، والخواطر، والدراسات النقدية.. وتوثقت صلته بالعقاد وأصبح ذراعه الأيمن، وتكونت لديه صداقات مع كثير من الأدباء بعدما بدأ يكتب في جريدة "البلاغ اليومي" و"البلاغ الأسبوعي" التي يصدرها عبد القادر حمزة، إلا أن خلافا حادا نشب بين عبد القادر حمزة والعقاد، ولم يكن من مصلحة سيد استمرار هذا الخلاف، فسعى للإصلاح بينهما. وعبد القادر حمزة هو الوحيد، من أعداء العقاد، الذي لم يهاجمه سيد ولم تستعر بينهما المعارك.

في إحدى ليالي شتاء عام ١٩٢٩ ذهب سيد إلى بيت العقاد، وكانت الصلة بين سيد والعقاد قد توثقت للدرجة التي تسمح لسيد بزيارته وقتما يشاء. كان الجو بارداً في تلك الليلة. وصل سيد إلى مدخل البيت وصعد السلم برشاقة، ودق الجرس فخرج له عم عثمان الصعيدي، الخادم العجوز الذي اعتاد رؤيته كثيراً، وأدخله إلى مكتب العقاد الذي كان يجلس وراءه متلفعاً بمعطفه الشتوي، لابساً طاقيته الصوف، وقد فاحت من مكتبه رائحة السجائر، لكن سيداً- نظراً لأمراض جهازه التنفسي كانت تضايقه رائحة السجائر وتؤذيه، وهذا ما جعله لا يطيل المكث طويلاً في مكتب العقاد.

كان حديثهما في تلك الليلة عن الصلح بينه وبين عبد القادر حمزة. لكن العقاد رفض بشدة المصالحة وهاج وماج.. ويأبى القلم التعبير عن الشتائم التي كالها العقاد لعبد القادر حمزة، لكن سيداً، بطريقة أو بأخرى، أقنعه تحت ذريعة تفرغهما

للمعركة مع الرافعيين[١٦]، فوافق العقاد على مضض، ولم يقتنع بما قاله سيد، إنما كي لا يغضب فتاه الذي أصبح ذراعه الأيمن، وكيما لا يشعره أنه لا ينال الحظوة لديه. وانتشى سيد بهذه الموافقة وضرب صفحاً عن تقصي أسبابها وتحليلها، ولو حللها لخرج بشعور لا يسره ولا يبهجه، وعاد سيد إلى عبد القادر حمزة يزف إليه هذه البشرى، فقابل عبد القادر حمزة هذا الصلح بمبادرة كريمة هي عبارة عن رسالة حملها إلى العقاد مع سيد: "قل للأستاذ العقاد اكتب ما تشاء، وخزينة البلاغ تحت تصرفك"!

لقد كان عبد القادر حمزة نقي القلب، عذب الروح؛ مثالاً نادراً في حفظ الوداد بالمحضر والمغيب، يحب أن يعيش صحفياً ويموت صحفياً، وكان يحب أن تكون جريدته مَعْرِضاً لجميع الآراء، فهو حر العقل، لا يستسيغ طعم البهلوانات الفكرية، يعادي بعنف، ويصادق بود، إلا أنه يحترم أصحاب المبادئ ولو كانوا من خصومه الألداء، لكن مشكلته أنه لم يكن ذا شخصية كارزميّة تجتذب حولها التلاميذ والمريدين.

٢٥- معارك النقد وغوغائية الأدب

لم تكن «كلية دار العلوم» الشهيرة، تشبه الأزهر على الإطلاق. كانت الكلية تدار من قبل نخبة من كبار العلماء والمعلمين، ولا بد من القول إن هؤلاء العلماء كانوا يديرون شؤونها بصورة رائعة.

في الكلية، التي كان قد أسسها «علي مبارك باشا» كان يدرس قرابة من ألفي طالب، وكان ثلاثمائة منهم تلاميذ مقيمين. وكان الأساتذة يعلمونهم علوم اللغة العربية، والمنطق، والفقه، والتفسير، والحساب، والهندسة، والجبر، والتاريخ،

[١٦] يُقصد بالرافعيين تلاميذ مصطفى صادق الرافعي.

والجغرافيا، والطبيعة، والكيمياء، والتاريخ الطبيعي، كما كانوا يعلمونهم اللغة العبرية، والسريانية..

هاكم في أي مؤسسة تعليمية التحق بطلنا؛ ففي قائمة أسماء الطلاب "الدَرْعَميين"[١٧] كانت هناك مجموعة كبيرة من الأسماء المشهورة، إذ إن أفضل العائلات كانت ترسل أبناءها إلى كلية دار العلوم. ففي الوقت الذي كان فيه سيد يدرس في الكلية، كان يدرس فيها ستة أصدقاء، هم سعد اللبان، ومحمد إبراهيم جبر، والشاعر فايد العمروسي، والأديب الناقد عبد العزيز عتيق، والشاعر طاهر أبو فاشا، والأديب عباس خضر. أما غير الأصدقاء فكثيرون منهم: الشاعر محمود حسن إسماعيل، والشاعر أحمد مخيمر، والأديب محمد عبد الحليم عبد الله، وعبد السلام هارون، أحد أشهر محققي التراث العربي في القرن العشرين..

هكذا، أنهمك سيد بدراسة اللغة العربية والأدب، وأبلى بنطاله على مقعد الدراسة، متخماً رأسه بالأدب والشعر والنحو والصرف..

ومن المثير للاهتمام معرفة ما إن كان الولع بالمعارك الأدبية قد خمد لدى طالب كلية دار العلوم سيد قطب؟ هيهات، على الإطلاق، فقد كان كلما أفلت من قبضة النحو والصرف والعروض، ذهب إلى المعارك الأدبية حتى صار يراها في أحلامه!

لكن هذا ليس كل شيء؛ فأحد الحقودين الكثر ممن يكرهون بطلنا، والذي أصبحت كراهيته له بلا حدود فيما بعد، أكد، منذ زمن طويل، بأن سيداً، في الفترة الأخيرة من دراسته في الكلية، كان يدير المعارك الأدبية نيابة عن العقاد بالوكالة، وأن العقاد هو الذي يلقن تلميذه ما يقول وما لا يقول!.

ولم يكن سيد يُخفي علاقته مع العقاد بل، على العكس، كان يعلنها على الملأ، قائلا: "أنا لا أنكر أنني شديد الغيرة على هذا الرجل، شديد التعصب له.."

---

[١٧] نسبة إلى كلية دار العلوم.

إذن؛ فقد كان سيد متعصباً للعقاد، ولا توجد أي غرابة في أن العقاد، قد خَلَب لب تلميذ كلية دار العلوم. والمثير للغرابة أكثر أن العقاد لم يكن يبادل سيد نفس المشاعر!.

وهكذا؛ استمرت دراسته في الكلية أربعة أعوام حتى توجت بالشهادة. وقد درس سيد خلال هذه السنوات الأربع بتفانٍ، مختطفاً بعض الوقت لخوض المعارك الأدبية الأثيرة إلى قلبه.

لكن، هل أصبح سيد شخصاً متعلماً في هذه الكلية؟ لقد أعتقد سيد أنه من المستحيل على الإنسان أن يغدو شخصاُ متعلماً في أي مؤسسة تعليمية كانت، لكن في مؤسسة تعليمية منظمة بشكل جيد يمكن للمرء أن يغدو منضبطاً، وأن يكتسب المفاتيح التي تنفعه لفتح مغاليق العلم، وذلك عندما يبدأ بتعليم نفسه بنفسه خارج جدران المؤسسة التعليمية.

وهذا ما فعله سيد بالضبط حتى يضاهي العقاد؛ حيث ذكر أنه "أكب على دراسات شخصية جمة، ليست دراسة الأدب العربي ولا اللغة العربية إلا أولى خطواتها.. دراسات تشمل كل ما نقل إلى اللغة العربية من الآداب الإفرنجية: قصة ورواية وشعراً.. ودراسات في المباحث النفسية الحديثة: نظريات العقل الباطن، والتحليل النفسي والسلوكي.. ودراسات في المباحث الاجتماعية والمذاهب القديمة والحديثة.. ودراسات في مباحث علم الأحياء وما نشر عن «داروين» ونظريته.. ودراسات في مباحث الضوء والتجارب الكيماوية. ومما استطاع أن يفهمه عن «أينشتاين» والنسبية، وتحليل الذرة، والإشعاع..".

كان عباس العقاد، الصعيدي الأصل، شخصاً مثقفاً واسع المعرفة بحق؛ إذ كانت معارفه تكفي ألف شخص، فقد كان مدرسة للفكر، وأديباً رائعاً، وعارفاً بالفلسفة والسياسة والأدب.. يروي «نجيب محفوظ» في مذكراته أن الجامعة

عرضت منح العقاد «الدكتوراه الفخرية» تكريماً له، فثار العقاد وهاج وسبَّ الجامعة، وردَّ في سخرية: "من الذي سيسلمني الشهادة؟!"

لقد افتتن سيد بالعقاد، ذلك الإنسان العنيد، الحاد الذكاء، المشتعل العقل، الفيلسوف الأشهر في زمانه- لدرجة أنه لم ير في الدنيا شاعراً ولا أديباً ولا مفكراً يضارع العقاد.

يقول سيد: "..لقد هممت بإصدار كتاب عن الشعراء المعاصرين، ونظرت في أدب جميع الشعراء الأحياء- وأنا من بينهم- فلم أجد نقاط اتصال بين العقاد وبين جميع الشعراء الآخرين.. الفرق هائل، وأكبر مما يتصوره الأكثرون.. نحن لا ننصف الرجل حين نقول: إن شاعرية العقاد لم تجتمع لشاعر عربي قط، ولا تجتمع لعشرة من شعراء العربية في جميع العهود.. نحن لا ننصفه حين نتحدث عن اللغة العربية وحدها.. وإلا فبين يدي معربات كثيرة، لشعراء من الغرب مشهورين معروفين، مثل بيرون، وشيلي، وألفريد دي موسيه، وفكتور هوجو، ولا أرى فيها من تعدد الجوانب الصادقة الأصيلة، ما أراه في غزل العقاد وشعره..".

جملة القول، لقد توقف سيد في الوقت المناسب، دون أن يكمل مؤلفه عن الشعراء المعاصرين، وانشغل بأعمال أخرى، سنأتي على ذكرها في وقتها؛ لكنه وقف، من كل قلبه، إلى جانب عبقري الأدب والفكر عباس محمود العقاد..

وفي صيف ١٩٣٣ نال الشهادة، شهادة دار العلوم، وغدا مدرساً للغة العربية، وأصبح في وسعه أن يكسب المال، فها هي ذي أمنية الأم تتحقق، وها هو ذا الطريق مفتوح إلى المناصب والترقي، ومنذ الساعة الأولى يحوِّل ذلك المتحمس دفة حياته في تصميم عجيب صوب الشاطئ المجهول، ذلك الشاطئ الذي لا يمكن الوصول إليه، ولم يكن ثمة شيء يمكن أن يصرفه عن تلبية هذا النداء الخفي بإخلاص ويُسْلمه إلى قدره.

ويرفض سيد سلفاً كل حل وسط يعرضه للاحتكاك بغوغائية الأدب لكسب المال، فهو يأبى أن ينحدر إلى الطبيعة السهلة، ويرفض أن يبني أي جسر بين ذلك العزم، وبين تنازلات الحياة من حوله، فهو يريد أن يظل نقياً في إرادته، مغلفاً في طهارته، إنه لا يريد الواقع المتهافت، بل يبحث أبداً عن العالم النقي الذي يكون فيه الطهر والنقاء، عالم لا يكون فيه أنصاف الحلول مطروحاً، ولا يكون فيه الاندماج مع من هم أدنى وارداً. في هذه الصلابة التعصبية، وفي هذا التنافر الرائع بينه وبين الوجود الواقعي تتجلى بطولية سيد قطب الرائعة، مصوباً بصره في ثبات إلى الأعلى، وقد انطوى جسده المهزول على روح لا تلين.

لقد كلفه كفاحه من أجل مبادئه المثالية حياته نفسها. إن بطولاته ليست بطولة محارب وليست بطولة منافح إنما هي بطولة شهيد، إنها الاستعداد البهيج للمعاناة من أجل شيء خفي، وتعريض النفس للهلاك في سبيل الفكرة، وهذا يعني أنه لن ينحني أمام مصيره الذي رسمه لنفسه بنفسه.

٢٦- مقالات مجهولة

في عشرينيات القرن الماضي، كانت الجرائد والصحف تشبه الفضائيات في عصرنا الحالي، وليس من السهل امتلاك صحيفة آنذاك، وتأثير الصحف على الرأي العام لا يقل خطراً عن تأثير الفضائيات اليوم، وكان يشار إلى أصحاب الصحف كما يشار إلى أصحاب الفضائيات اليوم، ومثلما يتبارى رجال الأعمال في عصرنا الحاضر في امتلاك الفضائيات، تبارى رجال الأعمال آنذاك في امتلاك الصحف اليومية والمجلات.

قبل خمسين عاما خلت كان الكتاب هو الوسيلة الوحيدة المتداولة بين المثقفين؛ فمن خلاله يطل القارئ على الماضي والحاضر والمستقبل، ومن خلاله يضيف القارئ حياة إلى حياته، ومن خلاله يخرج القارئ من واقعه المادي ليحلق في

سماوات الفكر وعالم الخيال.. لم يكن قد جاء اليوم الذي سيتنحى فيه الكتاب عن عرشه وسيتراجع عن مجده، بحيث لن تعود له ذات المكانة التي حظى بها في الماضي، بعدما أقصته عن عرشه وسائل التواصل الاجتماعي، والتكنولوجيا الحديثة، والتلفزيون، والإنترنت، والمجلات، والصحف..

في مايو عام ١٩٣٤ نشر سيد هذا التصريح: (كنت قد كتبت في الصحف من اثني عشر عاما..) يعني أنه بدأ ينشر كتاباته منذ عام ١٩٢٢، وما دفع سيد للتصريح بهذا الأمر هو التجريح الذي ناله من الأدباء الذين كانت تدور رحى المعارك الأدبية بينه وبينهم واتهامهم إياه بأنه صبي غر، تسلق سلم النقد دون علمٍ أصوله أو فهم مناهجه، فما إن قرأ مقالاً أو مقالين في النقد الأدبي حتى بادر إلى الفأس ليحطم تراث أدباء وشعراء كتبوا الشعر ومارسوا الأدب قبل أن يأتي إلى الدنيا!. فقام سيد بالدفاع عن نفسه مدعيا أنه يمارس فنون الكتابة المختلفة من اثنتي عشر سنة.

بعد شهر من نشر هذه المقالة، وتحديداً في يوليو ١٩٣٤، نشر شخص يدعى "علي أحمد عامر" مقالة في جريدة الأسبوع يعرف فيها بمكانة سيد قطب، ويشهد بأنه يتابع مقالاته وأشعاره منذ عام ١٩٢٢. وعند إلقاء نظرة على مقال «علي أحمد عامر» نعجب من بلاغته وفصاحته وإحاطته بأحوال سيد الدقيقة وكأنه يعيش معه في بيته.. كما نعجب من أن "علي أحمد عامر" ذلك الأديب البليغ الضليع، لم ينشر في الصحف والمجلات من قبل ولا بعد إلا هذه المقالة التعريفية بسيد وأدبه وحياته، ثم لم يُسمع له صوت ولم يُر له طيف، فكأن الأرض انشقت وبلعته، لأن مهمته فقط أن يظهر في الوقت المناسب للتعريف بسيد ثم يختفي.

ما الاستنتاج الذي يمكنني إعطاؤه في هذا الأمر؟ هل يمكنني أن أقول إنَّ كاتب المقالة لم يكن إلا سيد نفسه منتحلا اسم «علي أحمد عامر»!

قد يفعل أحدهم ذلك. أما أنا، فإني أمتنع عن التحقيق في هذه القضية، وأجد نفسي غير مرتاح من ذلك وأخشى أن أكون مخطئا، لأنه ليس في وسعي الآن أن أرجع إلى جميع الصحف القديمة وأبحث عن اسم "علي أحمد عامر" لأتأكد من هويته، إنما بحثت في كل ما وصلت إليه يدي من المصادر فلم أعثر له على اسم، كذلك لم أقرأ اسمه على أي كتاب من الكتب. فلم يبق أمامي إلا أن أنقل كلمة "علي أحمد عامر" وأضعها أمام القارئ كما جاءت في صحيفة الأسبوع عام ١٩٣٤ تحت عنوان (تحت المصباح: الأستاذ سيد قطب):

(هو صديقنا الشاعر الناشر الصحفي سيد قطب، فطالما دفعته الدنيا إلى ملابسة الرجولة، بينما هو في بداءة مرحلة الشباب، وطالما أسرفت حقائق الحياة معه، فأذنت له أن يجمع أعصابه على موازنات في الأدب والشعر والنقد. كان قراء الصحف ينصرفون إليها مغتبطين، ومؤمنين أنهم ملاقون فيها شيخا، كشفت تجاريبه وجوه الأشياء جميعا، وكشفت له السنون الطويلة خبايا الناس، وطوايا الفنون. ولو انهم أبصروا به تلميذا، يقتعد أريكته في حجرة الدراسة باحثا عن خبر كان، منقبا عن غزوة أحد، كادحاً وراء فقه اللغة، دائباً على مصاولة الشعراء العباسيين لأسلافهم من شعراء أمية.. ولو أنهم بصروا به متحفزا، يثب إلى مكتبه مع الليل يستذكر الدرس، ثم يكتب رسالة الغد إلى الصحيفة التي يعمل فيها. ثم هو يفشي بين المرحلتين سر نفسه في قصيدة، يطويها إلى صدره، حتى يؤذن لها أن تذوع، ولو بصروا به في هذه المشاهد، التي يؤلف ما بينها التناقض، لأنكروا على ابن الخامسة عشرة أن يقول الشعر، ولأنكروا على ابن المدرسة أن يكابد التحرير، ولكنه سيد قطب طراز وحده في أدباء الشباب، في هذا الهيكل الناحل، وفي تلك الابتسامة الخاطفة، وفي هذا الرأس الدقيق، تأتلف جماعة من القوى الصاخبة، ولكنها لا تلبس قفازَي الملاكمة، إلا حين يكون ملقيا همه في زمرة من الورق الأبيض، يجري عليها بقلمه، فإذا السطور السوداء رسالات من دخائل الحياة، والذين يعنون بدراسة الناس من نواحيهم جميعاً، سيدهشهم بلا ريب أن يكون

سيد قطب قد استهل حياته بالعمل الصحفي، على ضروبه وألوانه. فقد قرأته من ثلاثة عشر عاما شاعراً في صحيفة الحياة الجديدة، ثم قرأته بعدئذ شاعراً وكاتباً في البلاغ، ثم ها أنا الآن اقرأه شاعراً وكاتباً في الأهرام والأسبوع.. ولو أننا تناولنا نتاجه في ضوء عمره، لدعونا الزملاء جميعاً إلى اكتتاب عام، يطيب لكاتب هذا الفصل أن يساهم فيه برأسه، حتى نقيم له تمثالاً بحجم صورته، ونتوجه بهذه الشهادة: نشهد نحن الموقعين على هذا، أن زميلنا «سيد قطب»، من أولئك الذين أرْبَت أقدارُهم على أعمارهم، ولكننا في مصر، ومصر المحروسة بلد العقوق) أ.هـ.

أما النقطة الأخرى وهي: هل سيد بدأ ينشر كتاباته ومقالاته منذ عام ١٩٢٢ فعلا؟

لقد قام الباحث «عبد الباقي حسين» بإعداد رسالة ماجستير حول حياة سيد قطب وأدبه، وتتبع جميع الصحف والمجلات القديمة في دار الكتب، ودور النشر والمكتبات، فوجد بعد عناء وجهد بالغين- كما قال- أن أقدم شيء نشره سيد هو قصيدة بعنوان "عهد الصغر" في مجلة البلاغ الأسبوعي عام ١٩٢٨.

وعبد الباقي حسين يعلم جيدا قول سيد الآنف الذكر الذي نشره عام ١٩٣٤: (كنت قد كتبت في الصحف من اثني عشر عاما..) كما يعلم جيدا مقال «علي أحمد عامر» الآنف الذكر، لذلك قال بعدما أشار إلى أنه تتبع جميع الصحف والمجلات القديمة في دار الكتب ودور النشر والمكتبات: "وليست تلك هي كل ما نشره سيد قطب من مقالات وقصائد، لأن هناك دوريات كالبلاغ اليومي، وروز اليوسف، والمصور، كتب فيها ولكنها لا تلتزم بنشر اسم صاحب المقالة أو القصيدة، ولأن هناك دوريات كتب فيها، ولكن أعداداً كثيرة منها فقدت كمجلة الشباب، ودوريات أخرى لم أعثر عليها، حتى في دار الكتب المصرية".

٢٧- موت الأب

كانت أيام سيد في بيت خاله رتيبة ليس فيها جديد، فقط هي الدراسة والتردد على الكلية. وما أشد سعادته حينما تقدم أمه لزيارته في بيت خاله في القاهرة، وتمكث عنده أسبوعاً أو أسبوعين، هنالك تشاهد جدته وأمه، تلك المرأتان العجوزان، وهما تجلسان في الحجرة الصغيرة، تشاركانه سروره بالتقدم في دراسته، وفي الثناء الذي يناله من أساتذته، وتشاركانه فخره بقصائده المنشورة في المجلات، ثم يأملان أن يكون عما قريب موظفا مرموقاً في وزارة المعارف، يتخذ لنفسه زوجة جميلة، هي سميرة بنت خاله، عندما ينهي دراسته، غير أن سيد يعرف أنه لا بد له أن يفسد هذا الحلم ويحطمه، لكنه لا يريد أن يحطمه بقسوة، ويلقي به بين يدي المرأتين الحانيتين دفعة واحدة.

وهناك تشاهدهما وهما تغسلان له القمصان وترفوان له الجوارب، وما أكثر الدموع والهموم الخفية التي امتزجت في غسيل كل ثوب.. وهكذا عام يمضي إثر عام والفتى لم يحقق حلمهن الأثير، إنما يبدو في أعينهما ضائعا في صورة لا يفهمانها.

وتلح المرأتان عليه من جديد في صوت خفيض بالأمنية القديمة مرة أخرى، وفي لهجتهما أسلوب الطفل الرقيق الملحاح، فهما تشيران في وجل شديد إلى أنهما لا تريدان إقصاءه عن شغفه بالشعر والأدب والنقد، وهو يدرك قبل غيره أنه لا يستطيع أن يجمع بين النقد النزيه والأدب النظيف، إلى جانب مهنة موظف في وزارة المعارف يمالق هذا ويداهن ذاك، من أجل أن يكسب الدرجات من خلال تملقه ونفاقه ومصانعة المسؤولين.

فلطالما ضحى سيد بصداقات كثيرة، ولطالما كسب عدوات وفيرة لئلا يسلك سلوكا منافيا للصدق والأمانة تجاه الآخرين، وكان عندما يطلب منه أن يضحي بصدقه في النقد، كان كمن يطلب منه أن يرتكب إثماً بحق الرسالة التي يرى نفسه

حملها من حيث يريد أو لا يريد، وتلك أكبر خطيئة يمكن للمرء أن يرتكبها في حق نفسه. ومع ذلك فهذا اليقين الخفي الرائع برسالته، لا يقابله قط أدنى نجاح..

هكذا يظل يسمع العتاب الخفيف الصادر عن خائبات الأمل، والذي يزداد إيلاما عاما بعد عام.

في إحدى زيارات والدته وأختيه الصغيرتين- حميدة وأمينة- إلى القاهرة عام ١٩٣٨ جاءهم الخبر من القرية باحتضار والده الحاج قطب. كانت حميدة- آخر العنقود- تبلغ من العمر خمس سنوات، وكانت شديدة التعلق بوالدها.

في تلك اللحظة، دخل سيد وهي جالسة في غرفتها تلهو ببعض اللعب، وكانت تقاسيم وجهه تنطق بأنه يكبت في نفسه ألماً عميقاً، وجرت حميدة الطفلة المدللة إليه كعادتها، لكنها أجفلت عندما رأت وجهه المبلل بالدموع، فأخذ يضمها بين ذراعيه في حرقة وأسى ويبكي.

وما لبثت أن وجدت البيت جميعه يبكي، وما شعرت بنفسها إلا وهي تجري على السلم الموصل للسطح في خطوات سريعة متلاحقة. وفي ركن من أركانه، ارتمت على الأرض تبكي في لوعة وأسى. كان سطح البيت هو الملاذ الذي تهرب إليه دائما وتبكي عندما لا يلبي أحد رغبتها، وكانت يدان حانيتان، هما يدا والدها، تحملانها وتطبطبان عليها في لطف وحنان.

لم تكن تدري ما هو الموت، ولم تكن قد رأت ميتاً قط. واستمرت تبكي ويعلو نشيجها حتى اختنقت أنفاسها، ولم تعد تقوى على البكاء، فغلبها التعب وراحت في سبات عميق، كانت تنتظر كعادتها تلك اليد الحانية التي تحملها وتطبطب عليها وتنقذها مما هي فيه، لكنها لم تأت. واستيقظت والشمس ترسل بآخر أشعتها إلى الكون لتختفي وراء الأفق البعيد، وحينما نزلت وجدت والدتها وشقيقها سيد وخالها أحمد قد سافروا جميعًا للقرية، ولم يبق في البيت غير ثلاثة أطفال يتامى،

حميدة ومحمد وأمينة.. وخيم على البيت صمت رهيب، وانطوى كل من هؤلاء الصغار على حزنه وحسرته.

وصل سيد وأمه وخاله إلى القرية، وما إن دلف سيد من باب الحجرة ورأى أباه ممددًا على الفراش، وأخاه إبراهيم يبكي بجانبه، حتى جاشت نفسه بالبكاء، وارتمى على جسد أبيه، وجعل يمرغ وجهه في صدره، ويهتف:

- أبي .. حبيبي . وارتفع النحيب.

وفتح الباب، ودخل عم منصور وخلفه الطبيب، وما إن سمعا النحيب حتى أجهشا بالبكاء، واتجه الطبيب إلى الجسد المسجى وجعل يفحصه فارتسم في وجهه الأسى العميق، فقد كان من أصحابه وعارفيه وترك المكان باسر الوجه، وغمغم:

انتهى الأجل، البقاء لله.!

وارتفع الصياح، وأحس سيد بنار تشوي جوفه، واستمر جميع من في البيت في بكائهم المرير، وما كانوا يحسبون أن النهار سيطلع عليهم وهم أحياء، وشعر سيد لأول مرة كأن جداراً في داخله قد انهار فمزق أحشاءه وفلق كبده، ونثر قلبه أشلاءً. ومرت اللحظات والثواني والدقائق والساعات في نشيج ونحيب، وطال الليل كأنْ ليس له نهار..

وأخيراً طلع النهار، وهبت ريح حارة تشوي الوجوه، فقد كان اليوم من الأيام الحارة التي لا يطيق حرارتها إنسان، فاحتمى الناس في السرادق الذي نصب أمام الباب.

وفي الساعة الثالثة، والشمس ترسل أشعتها كألسنة اللهب، سار المشيعون خلف النعش يتفصد منهم العرق من شدة الحر، ولم يكن سيد يحس حراً؛ فقد كان في شغل عنه بالنار المندلعة في جوفه.

وسارت الجنازة الهائلة في شوارع القرية قاصدة مسجد القرية، وكانت تقطع ذات الطريق الذي قطعه الحاج قطب بالأمس في أوبته من المسجد إلى بيته تداعبه الآمال بوفرة المحصول وكثرة الغلة هذا العام، وما دار بخلده قط أنه سيعود من نفس الطريق في الغد محمولاً على الأعناق وخلفه قلوب مزقها الأسى، وأحشاء فطرها الشجى.

أسدلت الستائر السود على المرايا، واستبدلت الثياب البيضاء بالثياب السوداء، وفي سكون الليل كان يُسمع أنين امرأة يفتت الأكباد، ويذيب الفؤاد، وتصرمت أيام المأتم، وخيم على البيت حزن عميق، وما إن تجتمع النسوة حتى يأخذن في البكاء والنحيب، وما إن تتلاقى العيون حتى تسح الدموع.

٢٨- حميدة قطب

عاد سيد ووالدته من القرية؛ واعتزما تركها والعيش في المدينة، فلم تعد هذه الأسرة الصغيرة المكونة من أم وطفلتين تستطيع العيش في القرية بعد موت الوالد. وفرحت حميدة بهذه الحياة الجديدة فلقد أحبَّت المدينة منذ أول نظرة، لكن شيئا ما كان قد اندس في طيات نفسها، فصار ينغص عليها فرحتها بهذه الحياة. لقد كانت تحب الريف رغم كل ما فيه من منفرات ومنغصات.. وكان لها فيه صديقات صغيرات تأنس إليهن؛ ويشاركنها في كل شيء، في اللغة والعادات واللعب.. أما هنا، في المدينة، فلا أحد خارج الدار يشاركها شيئا من هذه الأشياء. وحينما كانت تخرج إلى الشارع وتتحدث مع أحد بلغتها الريفية، كانت ترى على الوجوه شيئا من الدهشة المختلطة بالابتسام، فكرهتْ الشارع وأشفقت من مخالطة الناس، وحبست نفسها في المنزل تلعب وحيدة، أو مع إخوتها الصغار.

ولم تبق طويلًا على هذه الحال، فقد اعتزموا أن يرسلوها إلى مدرسة من مدارس الأطفال، وفرحت كثيرًا بهذا النبأ، وباتت تحلم بالسعادة في عالمها الجديد، وأخذ خيالها يرسم صورًا جميلة لحياة المدرسة التي لم ترها ولم تعرف ماذا تكون.

وانقضت هذه الأيام الحالمة، ومعها انقضت الأحلام الجميلة، وإذ بها في المدرسة ذات صباح تقف في مكان منزو قليلاً وهي مشتتة، وتمر بها التلميذات فرحات مهللات في لعبة من لعبهن الجميلة، وحاولت أن تدفع بجسمها إلى الأمام وتجري معهن، لكن شيئا ما كان يشدها بعنف إلى الخلف، وأحسَّت بصراع هائل في نفسها بين قوتين كبيرتين: بين ذلك النشاط المتوثب الذي يمتلئ به جسمها ونفسها، وبين هذا الشيء الغامض الغريب الذي يمسك بها في مكانها، فلا تستطيع الحراك..

هكذا وقفت طيلة الوقت مشتتة تنتابها شتى الأحاسيس، لكن شعوراً واحداً برز من أعماق نفسها، ثم ما لبث أن ملأ كيانها كله، وطغى على ما فيها من أحاسيس- شعوراً بالغربة المريرة في هذا الوسط بكل ما فيه.. أحسَّت أنها ليست من هذا الوسط، وأنها لن تستطيع أن تندمج فيه. وغمرها خجل مرير وارتباك شديد، ومرت بها تلميذات يحادثنها ويسألنها عن اسمها، فأجابتهن إجابات مقتضبة، وعادت إلى صمتها من جديد، ودق الجرس فأنقذتها دقاته مما هي فيه من وجوم وارتباك.

ومضت الأيام، وأحبَّت المدرسة والدروس كثيراً، وأنِسَت نفسها إليهما، وأعانها على ذلك إعجاب أساتذتها بها، وتفوقها الدائم على زميلاتها، لكن هذا كله لم يستطع أن يمحو الارتباك والخجل محوًا تاماً.. إنها ما زالت خجلانة منزوية إلى حد كبير، وبخاصة في خارج الفصل، وحتى وهي في الفصل، ومع أشد المعلمين حبًا لها وإعجابا بها، لم تكن تتحرر من هذا الخجل، فلم تكن تستطيع أن ترفع يدها

لتطلب شيئا مهما كانت في حاجة إليه كما تفعل زميلاتها اللاتي لا يحظين من معلميهن بمثل هذه الرعاية.

مرت ثلاث سنوات وأتمَّت فيها دراستها الأولى، وبدأت تستعد لدخول المدرسة الابتدائية، وبدأت تحلم من جديد، وترسم صورًا جديدة لنفسها في مدرستها المقبلة، ونسيت أنها حلمت من قبل، وأن أحلامها ذهبت هباء.. هكذا عاشت داخل نفسها في كل حياة ورغبت في أن تعيشها دون أن تستطيع!

وفي صباح يوم دخلت المدرسة الجديدة، وتلاشت كل هاتيك الأحلام، وألْفَتْ نفسها مرة أخرى وسط كثير من الناس خجلى مرتبكة منزوية في ركن بعيد. ومرت الأيام تتلوها الشهور والسنوات، ووجدت نفسها محبوبة مدللة من الجميع، ورأت جميع أساتذتها يستثنونها دوماً من العقاب، مهما كان خفيفًا، بينما كل زميلاتها يعاقبن.. أحسَّت من كل هذا أنها فوق جميع زميلاتها وأفضلهن، ولكن كل هذه الأشياء لم تفلح أبدًا أن تخرجها من نفسها، ولا أن تدفع بها من ركنها المنزوي البعيد لتجري وتلعب إلا في قليل من الأيام، ولم تستطع أن تمحو الارتباك والخجل اللذين يغمرانها كلما أحسَّت أنها في جمع من الناس.

وفي يوم من الأيام جاءت الناظرة في طابور الصباح ممسكة بيدها دفترًا صغيرًا، ونادت على التلميذات اسماً اسماً لتسأل كل واحدة عما يشتغل والدها.

أحسَّت بنفسها يعتريها الدوار، فإذ بها مضطربة مرتبكة غارقة في خجل مرير، لا تستطيع أن تفكر أو تنبس بكلمة واحدة.

ماذا تقول؟! إنها قد نسيت تماماً أنها كان لها في هذا الكون الواسع أب في يوم من الأيام.. إنها لم تفكر في هذا منذ أكثر من سبع سنوات.. وحينما سمعت اسمها ينادى، كانت لا تزال مضطربة غارقة في نفسها لا تدري ماذا تقول، وتقدمت قدماها في حركة آلية نحو الناظرة، وحينما وصلت إليها كادت تسقط على الأرض، ولمحت الناظرة اصفرار وجهها واضطرابها العنيف فظنت أنها مريضة، فأشارت

إلى حجرتها، وأمرتها أن تدخل لتستريح، وحينما دخلت أحست أنها قد انتشلت من بحر خضم سحيق، واستطاعت أن تملك زمام نفسها المبعثرة، وأن تفكر في شيء من الهدوء..

نعم! إنها تذكر الآن أن لها أبا كان يعيش في الريف، يشرف على زراعة أراضيه، وأنها كانت تحبه كثيرًا. إذن، لماذا اضطربت هكذا حينما عرفت أنها ستسأل ذلك السؤال؟

وحينما أكملت الناظرة عملها، جاءت إليها وأخذت تربت على كتفها في حنان، وتسألها عن سر اضطرابها واصفرار وجهها، وأخيرًا سألتها ذلك السؤال الرهيب، فحاولت أن تمسك نفسها وألا تضطرب مرة أخرى، وبعد جهد استطاعت أن تجيب!

لاحظت الناظرة عليها بعض الإعياء، فأشارت إليها بالذهاب إلى حجرة الطبيبة لتستريح بقية اليوم. وذهبت إلى هناك، واستلقت على أول مقعد ودفنت وجهها في كفها وانفجرت في البكاء..

منذ ذلك اليوم، بدأت تتفتح في حنايا نفسها أشياء جديدة، وبدأ شعاع من النور يلوح فيها؛ ليكشف عما يقبع في بعض زواياها المظلمة من أحاسيس.

ومرت الأيام، وأكملت دراستها الابتدائية، وعادت إلى حياة المنزل الراكدة الرتيبة، وبدأت الطفولة الساذجة تنجلي رويدًا رويدًا، ويحل مكانها عهد جديد، فإذا هي فتاة متيقظة منتبهة لكل همسة تدور في نفسها، ولكل إحساس يتراءى من بعيد. وحينما كانت يد الزمن تنضج بلهيبها الحار كل شيء في كيانها وتنميه، كان أيضا ذلك الشعور الممض الأليم ينضج وينمو ويبرز من مكمنه قليلاً، ولكن حياة البيت الهادئة الرتيبة- حيث تعيش مع والدتها وإخوتها، هؤلاء الذين تعرفهم وتألفهم، وتأنس بهم- استطاعت أن ترد ذلك الشعور المقيت إلى مكمنه، حيث يقبع هناك في الظلام فلا تراه.

وأبت حميدة الخروج من البيت، وبدأت تسمع من صديقات شقيقتها بعض الانتقادات على هذه العزلة، ورماها بعضهم بالتكبر، والبعض الآخر بكراهيتها للناس، وأحسَّت أنَّ عليها أن تخرج من عزلتها، وأن تنفي عن نفسها هذه الاتهامات، وأصبح لها بعض الصديقات؛ وإن كن قليلات. وحينما أحست أنها بدأت تتحرر من ذلك الشعور المقيت الذي كانت تحسه كالقيد يلازمها دائما خارج الدار، وأنها استطاعت أن تجلس إلى بعض الناس، وتحس أنها ليست غريبة عنهم، وأنها تستطيع أن تبثهم ما في نفسها في حرية وانطلاق.. كانت الحياة تدخر لها في طياتها شيئاً جديداً..

٢٩- موت الأم

كان سيد، بخلاف أخته حميدة، متعلقاً بأمه أكثر من تعلقه بأبيه، فلم يشعر بفقد أبيه إلا بعد موت أمه، فكتب في رثائها عام ١٩٤٠ يقول: "أماه اليوم فقط مات أبي، واليوم فقط أصبحنا شتيتاَ منثورًا.."

ومن شدة تعلقه بأمه شعر بموتها قبل وقوعه بيومين، في حين أنها لم تكن تشكو من علة ما، وكانت قد تجاوزت الخمسين بسنوات قليلة، وأخبر سيد أخواته بقرب وقوع كارثة كبيرة في بيتهم، لكنه لم يتخيل أن تكون الكارثة موت الأم، ومن شدة تبرمه وضيقه بهذا الإرهاص بوقوع كارثة كتب يخاطب الكارثة قائلاً: "أقبلي أقبلي لطال انتظاري!" ثم بعد وقوعها كتب يقول: " لقد تمتمت قبل الكارثة بليلتين أقول: كم أنا في حاجة لمن يربت على كتفي، ويضمني إلى أحضانه! ولقد دعوتني مرة- في دعابة من دعاباتك الحلوة- أن آوي إلى حضنك كما كنت طفلاً. وكم كنت مشوقاً لتلبية دعوتك، لولا الكبرياء، الكبرياء التي أودَعْتِهِ نفسي منذ الطفولة، فجعلتني أهرب من كل مظاهر الطفولة. ولو علمت ساعتها يا أماه أنك راحلة لنسيت كل تعاليمك لأرتمي لحظة واحدة في حضنك الرفيق.. كما كنت طفلا".

هكذا أصبح ذات يوم، أربعة أطفال غرباء في هذا الكون الواسع الكبير لا تربطهم بأي شيء فيه صلة ما، لقد اقتلع الموت البقية الباقية من جذورهم. لقد اختطف منهم والدتهم، وقضى عليهم أن يصبحوا نبتة غريبة بدون جذور.

وبدأت تتصرم العاصفة، وتخفت حدتها قليلاً قليلاً، كما تتصرم وتخفت كل عاصفة تهب في هذا الوجود، وبدأ الجرح الدامي العميق يلتئم ويستوي سطحه رويدًا رويدًا، كما يلتئم كل جرح في هذا الكون الكبير.

في عام ١٩٤٢ كانت قد مرت سنتان على موت الأم، وتلاشت العاصفة تقريبًا، وشعرت حميدة بأنها غريبة عن كل ما في هذا الكون الواسع إلا ما كان في الماضي القريب، وإذ بذلك الغول الكبير يجثم على نفسها، فلا يترك لها بارقة من نور، وأحست أنها تكاد تختنق، وأن دائرة حياتها تضيق وتضيق، فإذا هي مرتبكة مضطربة ما دامت خارج الدار، ومع غير هؤلاء الصديقات القليلات.. كانت مضطربة مرتبكة تكاد تتعثر في خطاها حينما تسير في شارع مزدحم بالمارة، أو حينما تذهب لأحد المحلات الكبيرة لتشتري بعض لوازمها، فتسير منكسة الرأس، خجلة لا تكاد تعثر على نفسها، أو تجمع شخصيتها المتناثرة، ولا تدري كيف تسأل عما تريد، وكأنها في بلد غريب تطؤه وحيدة لأول مرة، وتعود إلى البيت ثائرة على نفسها، ناقمة على هذا الخجل وهذا الارتباك، تتهم نفسها بالنقص وشخصيتها بالضعف، ثم ما يلبث جو البيت الهادئ الأليف أن يعيد إليها هدوءها وثقتها بنفسها وشخصيتها، ثم يتكرر هذا دائما كلما خرجوا من الدار إلى مكان مزدحم بعيد.

لقد أحسَّت بالظلام الذي يغمر نفسها، وبأن لا صلة هناك تربطها بهذا العالم ومن فيه، وأخذت تسأل نفسها في ثورة عنيفة عن سر هذه الغربة، وسر هذا الخجل والارتباك والاضطراب.. ولأول مرة وجدت نفسها تجيب!

لأول مرة عرفتْ أنها ليست من هذه المدينة الصاخبة الواسعة، وأن كل شيء فيها غريب على نفسها، وأنها ستظل غريبة فيها مهما عاشت فيها سنوات وسنوات.. هناك، وفي حنايا قلبها العميقة يقبع الماضي، ذلك الماضي البعيد المتسرب في أغوار الزمن، ماضي الآباء والأجداد!

هناك وجدتْ وطنها الذي تحس فيه بالألفة لكل شيء ولكل إنسان، هناك حيث تستطيع أن تحدث كل إنسان، وأن تتجول في كل مكان من غير خجل ولا ارتباك، إنه الريف.. ذلك الكنف الحنون الذي ينتظرها في لهفة لتعود فيضمها بين ذراعيه من جديد، إنه الريف الذي خُلق جسمها من ذرات تربته المنثورة، واختلطت ذرات هوائه السابحة بدمها ونفسها منذ عهد الطفولة الأولى، إنه الريف الذي التقت عيناها به أول مرة حينما رأت النور، إنه الريف حيث ينتشر في ذرات ترابه رفات أجدادها!

استراحت نفسها حينما وجدت ذلك الملجأ الحنون، وأحسَّت لأول مرة أنها ليست غريبة في هذا الكون الفسيح، وأخذت نفسها تحلم بالعودة إلى الريف ولو لبضعة أيام، ومرت الأيام والحلم يقوى وتتعدد في نفسها صوره الجميلة حيث تلتقي بأقاربها وصديقات طفولتها اللاتي نسيت كل شيء عنهن حتى أسماءهن.

وأخيرًا.. اقترب اليوم الموعود وبدأوا يستعدون للسفر وامتلأت نفسها بالبهجة والحياة.. ركبوا القطار الذاهب إلى الصعيد، وحينما بدأ يتحرك ببطء تاركاً وراءه محطة العاصمة، أحسَّت أن شيئا قوياً قد خطف منها نفسها، وأصبحت كالتائه في صحراء هائلة لا تستطيع أن تلتقي في نفسها بإحساس واضح مفهوم، وإذ بها تردد في صوت خافت: "القاهرة"!

القاهرة؟.. إن نفسها لتهفو إليها وترفرف حواليها وتحنُّ لها، رفرفة الطائر الغريب وحنينه إلى عشه البعيد.. وأخذت تنظر إليها، وهي تتوارى قليلاً قليلاً،

وتمنت لو تستطيع أن تقذف بحقائبها، ثم تقذف بنفسها خلفها لتعود إلى القاهرة الحبيبة التي لم يمض على رحيلها عنها سوى دقائق معدودات.

وحينما غادر القطار الجيزة، ولاح الوادي الفسيح الجميل الممتد إلى آخر ما تستطيع أن ترى العين، ولاح النخيل السامق وظلاله التي تنعكس على الماء في ضوء الشمس الغاربة والقمر الساطع- حينها بدأت تنسى القاهرة قليلا، وغابت في هذا الجو البديع، وتاقت إلى وطنها الأول، وأخذت تستحث القطار على المسير.

وأخيراً.. وصل القطار إلى المحطة القريبة من قريتهم. ومن هناك ركبوا سيارة إلى القرية. وقطعت السيارة أكثر من نصف ساعة في الطريق. وحينما بدأت تلوح القرية من بعيد أحست أن قلبها يخفق ونفسها تبتهج؛ وأحست بأنفها يندفع إليه نسيم جميل.. نسيم لم تشمه منذ أمد بعيد.. وبدت الحقول الواسعة وكأنها غطيت بذهب رائق، إنها سنابل القمح الصفراء الجميلة، تهزها النسمات.. اخترقت السيارة هذه الحقول، ثم بدت القرية ببيوتها السوداء وشوارعها الضيقة، وأطراف نخيلها السامقة الطويلة.

وحينما دخلت السيارة في أول شارع أبصرت أطفالا قذرين مهلهلين يسيرون في الطريق، وأبصرت بعض النسوة يجلسن بشكل غريب أمام الأبواب ينظرن إلى السيارة ببلاهة ونهم؛ فأحست أن غشاوة سوداء قد ألقيت على نفسها.

إنها أيضاً غريبة عن هنا، وعن كل هذه الأشياء. إنها ليست من الريف!

ووجدت نفسها تمتلئ بالحنين الجارف إلى القاهرة، وودَّت لو تعود إليها في أول قطار!

٣٠- أمينة قطب

برغم مرور عامين على موت الأم إلا أن أمينة- التي تكبر حميدة بسنوات قليلة- تملَّكَها لون من اللهفة أو الجنون سيطر على حياتها ونفسها، وبقيت شهرين كاملين بعد رحيل والدتها لا تستطيع الصلاة؛ لأن صور الماضي لم تكن تترك لها لحظة واحدة من لحظات حياتها الحاضرة، فقد كانت تصلي في الماضي في حجرة والدتها، وكان وجه أمها هو أول ما يقع عليه بصرها بعد انتهائها من الصلاة، فكيف تقوى على الصلاة في حجرة خالية من ذلك الوجه الحبيب، ومن ذلك الصوت الرقيق؟

كان أحب الأشياء إلى نفسها أن تصلي على سجادة والدتها، أما اليوم فهي لا تقدر أن تصلي عليها، وأصبحت تنظر إليها كأنها شيء مقدس لا يجوز أن يُمَس أو يخلط بينه وبين حاضر بغيض.. وعندما أيقنت بأنها فقدت ذلك الماضي إلى الأبد وأنه قد ولى ولن يعود؛ امتلأت نفسها باللهفة والحنين بأن تعيش في جوه وذكراه ولو بضع لحظات، فلربما خففت الذكري من حنينها القاتل وشوقها الملهوف.

بعد مضي عامين على رحيل والدتها راحت تفكر في الذهاب إلى كل مكان كانت قد ذهبت إليه مع والدتها من قبل.

لقد ذهبوا منذ بضع سنوات خلت مع أمهم إلى «القناطر الخيرية» لقضاء عدة أيام بين هدوء الطبيعة وجمالها المنساب. هناك، بعيداً عن المدينة وضوضائها، أحسوا أنهم طليقون من كثير من القيود، فألقوا همومهم عن كواهلهم، وراحوا يمرحون في جو من الطلاقة والاطمئنان.. كانت تبلغ إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، وكانت همومها صغيرة بمقدار سنها وتجاربها في الحياة، ولم تكن هذه الهموم الصغيرة لتقوى على الوقوف أمام سيل أمانيها الزاهية وآمالها المشرقة؛ فراحت تمرح في جو طليق.

كانت تقف في مرح جارف بين إخوتها تشاركهم صيد الأسماك الصغيرة، وفي قلبها أمال كثيرة اقترن تحقيقها في نفسها بخروج سمكة صغيرة في الشص الذي

تحمله، فإذا ما جذبت الشص وبه صيد قفزت وهللت كالأطفال، فقد ربحت صيدين في آن؛ صيد أمانيها الكبيرة وصيد ذلك الحيوان الصغير، بينما والدتها تنظر إليها وهي تبتسم في حدب لهذه الطفولة وهذا الفرح الكبير. أما إذا خرج الشص خالياً من الصيد، فإن نفسها لتضيق بالدنيا لحظات، ويملؤها اليأس الذريع.

كانوا يخرجون في المساء بعد مغيب الشمس للتمشي فوق «الكوبري» الطويل الذي يفصل بين البلدة والحدائق. وهناك يجلسون على حافة الشرفات الصغيرة المطلة على النيل، يتمتعون بالهواء اللين الندي، ويستمعون إلى أناشيد المياه الساحرة من تحتهم.. لقد كانت تجلس وتتصور رغم سنها الصغير أن الزمن وقف مسترخيا صامتًا، يتسمع لأناشيد المياه الخالدة المتدفقة من العيون الصغيرة، وقد سها عن كل شيء وترك الناس يمرحون ويتمتعون بالحياة دون أن يمد إليهم يده القاسية، ويطمس سعادتهم وبهجتهم..

في عام ١٩٤٢ ركبوا القطار فرحين، وقد اندس في شعورهم أنهم ذاهبون إلى الماضي بكل ما فيه، ونسوا بين لغط المسافرين وازدحامهم أنهم في هذه المرة يذهبون، وقد اختفى من بينهم وجه حبيب، كان في المرة السابقة يرعاهم وينظر إلى كل منهم في شيء من اللهفة والحنان، ليطمئن أن ليس بينهم متعب ولا مكدود.

راح القطار ينهب الأرض نهبًا، وراحت أمينة تنظر إلى الحقول والقرى وما يمر أمامها من مناظر سريعة متلاحقة، غير أنها- عندما اقترب القطار من محطة محافظة القليوبية التي تقع فيها القناطر الخيرية- تنبهت فجأة وتنبه إحساسها، وودت لو يعود بها القطار إلى القاهرة من جديد. إن في نفسها من الرهبة والقلق ما يجعلها تتهيب النزول إلى البلدة والسير في طرقاتها وحدائقها.. لقد تنبهت الآن فقط إلى أن أمهم ليست معهم، بل ليست في عالمهم هذا، إنما هي منذ عامين في عالم آخر بعيد، لا تشاركهم خطواتهم، ولن تشاركهم بعد اليوم في شيء. لكن ما أبعد هذه الحقيقة المرة عن النفس وعن الخيال وعن عالم اللاشعور!

نزلوا من القطار وساروا بضع خطوات. ونظرت إلى وجوههم وإلى أقدامهم وهي تسير فإذا هم ساهمون لا يتكلمون، بل يتحاشى كل منهم النظر إلى وجه أخيه، وهم يودون السير سريعًا لكن أقدامهم لا تطيعهم، كأنها تجوس خلال معبد لا تباح فيه حركة ولا ضجيج، واتجهوا صوب المنزل الذي اعتزموا الإقامة فيه، وعندما وصلوا إلى الباب نظرت إليه في شيء من الاستغراب والامتعاض، وقالت بغير تفكير: "أهذا هو المنزل؟!". لم يكن المنزل رديئا ولا شائهًا. كلا! لكن صورة أخرى لمنزل آخر كانت تملأ ذهنها.. المنزل الذي قضوا فيه أياماً في المرة السابقة، ولم يكن خيراً من هذا المنزل بل كان أقل منه في النظافة والنظام، لكنها تريده هو وتحن إليه، ولا تريد هذا الذي لا تعرفه ولا يحفظ لها شيئا من الذكريات.

تناولوا الغداء والسكون يخيم على المكان، وفي نفوسهم شعور واحد يحرص كل منهم على أن يخفيه عن الآخرين. لقد كان كل واحد منهم يردد في نفسه جملة واحدة: "ليتنا لم نجئ!"..

وفي المساء، قبل أن يذهبوا إلى حدائق القناطر الخيرية، ذهبوا لرؤية المنزل القديم، وكأنما هو كعبة يحجون إليها بعد غياب طويل، فلما وصلوا إليه وقفوا أمامه برهة واجمين، وفي نفوسهم فجيعة، وفي نظرتهم ذهول.. لقد تغير المنزل وزيد في بنائه فأصبح كأنه كائن جديد. ونظرت أمينة إلى بعض نوافذه، وحاولت أن تستعيد في خيالها صورتها منذ بضع سنوات، وهي تنظر من هذه النوافذ إلى الطريق وعلى وجهها تلك السذاجة وذلك البشر والحبور، بينما والدتها جالسة داخل الغرفة أو منصرفة لشأن من الشؤون. لكن خيالها قد قصر عن جمع أشتات هذه الصورة وغيرها من الصور. ولم تستطع أن تدرك السبب في هذا القصور: أهو تغير معالم المنزل، أم طول العهد بها جعلها غامضة لا تكاد تبين. لقد ندمت على المجيء، وتمنت أن تعود؛ فقد شوشت صورةُ المنزل الجديد تلك الصورة السابقة التي ظلت

تملأ خيالها طوال تلك السنين. وألقت عليها ظلاً جديدًا لا تريد أن تراه، أو تسمح له بأن يتراقص أمام عينيها كلما تذكرت ذلك العهد الأثير.

وفي اليوم التالي، عندما ذهبوا إلى الحدائق وطافوا بها كانت هناك أماكن قد تغيرت، وكان لهذا التغير وقع في نفوسهم، كأنهم كانوا ينتظرون أن تبقى كما تركوها تنتظر عودتهم إليها بعد غياب طويل! وخطر لهم أن يذهبوا إلى مكان هناك بعيد كانوا يذهبون إليه، عندما كانوا يريدون الابتعاد عن الجلبة والضجيج، فقد كان بعيدًا منزويًا لا يذهب إليه الناس إلا نادرًا لسكونه وصمته. وكان الطريق إليه طويلًا، وعلى أحد جانبي الطريق أشجار كثيرة من الصفصاف، طويلة ومتداخلة يخالها المار لأول وهلة غابة كثيرة الأشجار.

وعندما لاح لهم الطريق بأشجاره وصمته وجدوا أنفسهم يبطئون ويصمتون، وسار كل منهم وراء الآخر؛ إذ كان الطريق ضيقًا لا يتسع لغير واحد أو اثنين. وكلما أوغلوا إلى الداخل أحسوا أنهم ينقطعون عن العالم شيئا فشيئا. وعندما اقتربوا من نهاية الطريق توقفت أمينة عن السير لحظة وتلفتت حولها في ذهول، فقد خيل إليها أنها تكاد ترى طيف والدتها يسير بجانبها كما كانت تسير من قبل. وبدلا من أن تستريح لهذا الخاطر انتفض جسمها، وأسرعت في خطوها حتى لحقت بالجمع، وعندما بلغوا المكان وقفوا جميعاً خاشعين، يجيلون أنظارهم فيه قبل أن يجلسوا كأنهم يلقون إليه التحية في خشوع.. إنه المكان الوحيد الذي بقيت فيه أطياف الماضي حية كأن لم يطأها بعدهم إنسان.. ثم لم يلبثوا فيه غير دقائق معدودات، لم يتكلموا خلالها سوى كلمات وجيزات، ثم دلفوا إلى الطريق مسرعين وفي نفوسهم رهبة وخوف غامض، كأنهم في عالم مسحور. لقد عجبت أمينة لهذا الشعور، وراحت تتساءل في نفسها: ما بالهم يشعرون بهذه الرهبة وهذا الخوف الغامض المجهول؟ أوَ لم يكن مطلبهم أن يجدوا ظلال الماضي في مكان من الأماكن التي مروا بها من سنين؟

أتراها رهبة المكان أم بعد عهدهم به هو الذي ملأ نفوسهم بهذا الشعور؟ أم تراها روح والدتهم كانت ترفرف حولهم وتسير معهم في هذا المكان الصامت المنعزل، فتملؤه رهبة وخوفاً لأنها آتية من عالم بعيد؟

ربما كان هذا أو ذاك، لكن كل ما تستطيع أن تعرفه أنها تتهيب العودة إلى هذا المكان!

في اليوم التالي من إقامتهم في القناطر الخيرية اقترحوا أن يذهبوا للتسلي بصيد الأسماك الصغيرة، فرحبت «أمينة» باقتراحهم في شيء من اللهفة والسرور، وأشارت إليهم أن يذهبوا إلى مكانهم السابق الذي كانوا إليه يذهبون، وقد اندس في نفسها بغير تفكير أنها عندما تذهب إلى هناك سوف تتغير نفسها ويتبدل تفكيرها، وسوف تعود مرحة طليقة كأنها تخلصت من أصفاد الحزن والهموم..

فلما ذهبوا وأمسكت بالشص وألقت بطرفه في الماء لم تلبث الابتسامة أن فارقت شفتيها، وتساءلت في ذهول، وكأنما عادت من غيبوبة طويلة: أين أمي بوجهها الحبيب ترعاني وتتبسم لي؟ وأين أمانيَّ التي كانت تملأ نفسي وأقرن تحقيقها بصيد هذا السمك الصغير، لقد مضى كل هذا وانطوى في صحائف الزمن، وهيهات أن يعود. وأخرجت الشص من الماء وعلى فمها ابتسامة ساخرة، وجلست على الحشائش وراحت تنظر إلى الأمواج البعيدة كأنها تسألها: أين أمي، وأين نفسي، وأين أمانيَّ البهيجة الحسان؟!

بعد انتهاء رحلتهم وفي عودتهم في القطار جلست أمينة صامتة وأخذت تجيل بصرها في كل مكان وكأنها تودعه الوداع الأخير.. لقد كانت تنوي ألا تعود!.

٣١- منزل العائلة الكبير

في عام ١٩٤٣ جلست «أمينة» تنصت في اهتمام وشوق إلى الحاج «بكر شافع» زوج شقيقتها «نفيسة» الذي جاء لزيارتهم في بيتهم في حلوان، بصحبة أختها نفيسة وطفليه رفعت وعزمي.. رفعت كان له من العمر خمسة أعوام، وعزمي يكبره بعام ونصف. كان رفعت يحْدث جلبة وصخباً في البيت الذي لم يُسمع فيه شيء كهذا منذ عام وأكثر. لا أحد يعلم- ولا حتى سيد الجالس في مكتبه الآن، وقد أفسد عليه هذا الصخب قصيدة «حلم الحياة» التي كان يكتبها- لم يكن يعلم أنه بعد عشرين سنة من اليوم، أن هذا الطفل سيصمد أمام التعذيب المريع في السجن الحربي حتى الموت، كي لا يشهد بكلمة ضد خاله سيد قطب!

أخذ الحاج «بكر شافع» يقص عليهم بعض أخبار القرية التي كانوا جميعاً يتشوقون لسماعها، وينتظرون مجيئه كل عام بفارغ الصبر ليقص عليهم بعض ما حدث في خلال غيبتهم عنها، وكانت «أمينة» أكثر الجميع شوقاً لسماع هذه الأخبار.

وعلمت «أمينة» فيما سمعت من أخبار القرية أن منزل العائلة الكبير الذي باعه والدها، وهي ما تزال طفلة، قد تهدم جانب كبير منه بعد أن مات صاحبه، وأهمله ورثته من بعده.. وأحست بهزة لهذا الخبر، وبقيت بضع لحظات ساهمة كما لو كان هذا المنزل ما زال ملكاً لهم.

وفي الليل ألفت نفسها تفكر في البيت وتطيل التفكير، وراحت تحاول أن تتذكر بعض معالمه التي أوشكت أن تنزوي في عالم النسيان، وقد مضى على انتقاله من يد أهلها زمن طويل. ومع أنها لم تكن قد عاشت فيه غير عامين ونصف، إلا أن كثيراً من صوره قد علقت بذهنها وهي لا تزال في هذه السن الباكرة.

لقد كانت تسمع والدتها وهي تقص كثيراً من الحوادث التي وقعت بين جدرانه، وكانت تسمع إخوتها وهم يذكرون الكثير من لعبهم ومرحهم فيه،

وتلمح على وجوههم ألوانًا من الألم والحنين، وقد بيع هذا البيت على الرغم منهم لظروف قاهرة. وقد بيعت من قبله بيوت أخرى وأطيان، فلم يكن لبيعها وقع في نفوسهم كما كان له؛ إذ كان بيت العائلة الكبير الذي نشأ فيه جدها وأبوها وكثير من أفراد العائلة، وكانت للجميع فيه ذكريات وأحلام.

وكثيرًا ما كانت تحس بحنين غائر عميق بأن ترى ذلك المكان الذي قضت فيه والدتها جزءاً من شبابها.. وها هو هذا الحنين يزداد الأن قوة ووضوحاً بأن ترى البيت بعدما تهدم فيه بعض أجزائه وكأنما قد يئس وملَّ من البقاء وحيدًا بعد أن فارقه أهله ومن عاشوا فيه أطوارًا من الزمان.

ومضى شهران وحلت العطلة الصيفية التي باتت تنتظرها وتحسب ما قبلها من أيام.. واستعدت هي وإخوتها للسفر وفي نفسها أشجان مكبوتة وأسى.. وعندما ركبت القطار كان شعوران قويان يتنازعان نفسها وتفكيرها: شعور بالفرح لأنها سترى شقيقتها نفيسة بعد غيبة طويلة، وسترى كثيرين من أهلها الذين تحبهم وتشتاق إليهم، وسترى رفيقات طفولتها اللاتي ما يزال لهن في نفسها مكان غائر عميق لم يستطع البعد ولا تقلبات الزمن أن تفعل فيه شيئا، وستمر بالبيت وترى حجراته وكل ما فيه من أماكن مجهولة غامضة.. لكن كيف ستراه متهدماً ولم تكن تحسب في يوم من الأيام أن تراه على هذه الصورة التي تمثل العدم والفناء؟ إنها لا تريد أن تراه وهو على هذه الحال لكي تبقى صورته السابقة في خيالها ونفسها إلى نهاية الزمان..

ركبوا في القطار متجهين إلى القرية، ومضى القطار في طريقه المرسوم كالقضاء، لا يعبأ بالأحاسيس المرهفة ولا بالخيال والأوهام!

ومرَّ على وجودهم في القرية أسبوعان، وهي في كل يوم تنوي الذهاب إلى البيت، لكنَّ شعوراً بالرهبة كان يمنعها ويحول بينها وبين الذهاب.. وأخيرًا

استطاعت أن تتغلب على هذا الشعور، وأن تسير هي وشقيقتها «نفيسة» إليه ذات يوم بعد المغيب.

كان منظر القرية موحشاً، والظلام يزحف حثيثاً إلى طرقاتها الضيقة. ولم يكن يسير في هذه الطرقات غير بعض المارة القليلين، فقد كان موعد تناول العشاء، وأقفل الناس أبواب منازلهم، وبقيت الطرقات ساكنة خالية من الأصوات حتى لقد خيل إليهما أنهما ذاهبتان إلى وادٍ بعيد عن عالم الأحياء.. ووقفتا أمام الربع المتهدم صامتتين بضع لحظات، ثم تنهدت «نفيسة» في أسى، وهي تشير إلى السطح قائلة:

هذا المكان الواسع من السطح الذي تهدم جزء كبير منه كم فُرِشَ في ليالي الصيف المقمرة وجلس والدي ووالدتي وبعض الأقارب الذين يأتون لزيارتنا ويتكلمون في شتى الأحاديث، بينما نحن ننتهز فرصة وجود أطفال مثلنا فنملأ الدنيا بألعابنا المختلفة وضجيجنا.. وكم كنا نستيقظ في ليالي رمضان الصيفية المقمرة، عندما كانت تأتي إحدى قريباتنا للمبيت عندنا وننتهز فرصة ذهاب الجميع لإعداد السحور، وننطلق لنملأ سكون الليل ضجة وصياحًا وضحكاً. وكثيرًا ما كان والدي يأتي إلينا وقد سمع ضجيجنا وينهرنا، فنجري ونختبئ في الفراش بينما الضحك المكتوم يكاد يخنقنا؛ ثم ما يكاد يتركنا حتى نقفز من أماكننا ونعود شيئا فشيئا إلى الضجيج، وقد نسينا عقابنا الذي لم يمض عليه غير لحظات.

هل كان يظن أحد منا وقتذاك- كبارًا وصغارًا- أن كل هذا سيمضي، وأن البيت سيخلو منا ومن كل آثارنا، ثم تنهدم هذه الأماكن العزيزة على مرور الزمن؟

وغمر الأسى العميق صوت «نفيسة»؛ فتهدج في هذه الكلمات الأخيرة وخنقته الدموع.. وراحت «أمينة» تتمثل في خيالها تلك الصور البعيدة التي وصفتها شقيقتها نفيسة وكأنها تعيش في حلم غامض مسحور، وراحت تقول لنفسها وهي تنقل بصرها من مكان إلى مكان: "أوَحقا.. قد شهد هذا السطح الصامت المتداعي

تلك الليالي الجميلة السعيدة؟ ما باله إذاً لا ينطق عنها الآن ولا يبين؟ وهذا الفناء، وهذه الحجرات، هل تنقَّل في أرجائها والداها في يوم من الأيام، وقضيا في هذه الأماكن فترة شبابهما وحياتهما؟!

يا إلهي!. هل كان لهما شباب وحياة؟ إذن أين ذهب كل هذا؛ وكيف انمحى ولم يعد لهما ظل على الأرض في عالم الأحياء؟ ترى كان كل ذلك خيالاً ولم يكن حقيقة واقعة؟ وهل ستمضي نفيسة وحميدة وسيد ومحمد ويصيرون جميعًا إلى هذا العدم كما صار والداها؟

وأحست «أمينة» أن صوابها يكاد يطير لهذه الخواطر، وأنها توشك أن تصرخ في وجه الفناء، وتقول له: لن يكون هذا أبدًا.. ولكن شيئا مرعبًا شل تفكيرها. فقد برز فجأة شبح من كوة كبيرة في أحد جدران البيت الداخلي، وبهتت أمينة ونفيسة، وتملكتهما رعدة قوية، وهمتا أن تتراجعا إلى الوراء سريعًا. ولكن شيئاً ما قد أمسك بهما في مكانهما.

وتبينتا بعد قليل ذلك الشيء المرعب الذي برز من كوة الجدار.. إنها عجوز في الثمانين في هيئة رثة غريبة، ترتدي جلبابًا أسود فضفاضًا، وتعصب رأسها الأبيض بخرقة سوداء، تبدو مخيفة فوق شعرها الأشعث، ووجهها الغائر العينين، البارز الوجنتين، المملوء بالتجاعيد. وكانت تمسك بيدها الناحلة البارزة العروق عصا غليظة، وقد انحنت عليها فبدا ظهرها المتقوس الضامر..

أخذت العجوز تنتقل وهي تتوكأ على عصاها من مكان إلى مكان بين الأكوام والتراب، وتتلفت يمينًا ويسارًا في اهتمام شديد، وتئن بين الفينة والفينة بصوت ضعيف.. واستطاعتا في وسط الذعر الذي استولى عليهما أن تفهما أنها عجوز تقطن بيتاً مجاورًا، تهدم جزء من جداره الذي يفصل بين البيتين، وقد برزت من وسط الجدار وراحت تبحث عن بعض الدجاج الذي اختبأ بين الجدران المتهدمة.. غير أنها سرعان ما تخيلت للعجوز صورة أخرى لم تلبث أن ملأت نفسها رعبًا. فقد

خيل إليها أنها «نذير الفناء» برز من عالم المجهول، وراح يتفقد كل جزء في البيت ليثق من أن كل شيء فيه قد انمحى وزال. وخيل إليها أن بقية الجدران التي ما زالت قائمة ستنهار بعد أن يختفي «نذير الفناء»، فيكون قد أتم رسالته في جزء من عالم الأحياء.

واختفت العجوز بعد قليل في الكوة التي برزت منها، وخيم الظلام على المكان، فبدت العجوز كالشبح وهي تتوارى خلف الجدار، وتملكهما خوف وفزع شديدان، وخيل إليهما أنهما قد سمرتا في مكانهما فلن تستطيعا الحراك من هذا المكان المسحور.

لكن شقيقتها نفيسة ما لبثت أن تمالكت نفسها وسحبتها من يدها بسرعة إلى الشارع العام، وقد أخذت كل منهما تلتفت إلى الوراء في رهبة وفي غير تفكير. وعندما خرجتا إلى الطريق العام أحستا أنهما كانتا مسحورتين في عالم بعيد مملوء بالخيالات والأشباح، ولم تستطيعا أن تذهبا مرة أخرى إلى البيت طوال المدة التي بقيتها في القرية، فإن صورة العجوز الفانية المتداعية، وهي تنتقل وقت الغلس، قد ملأت خيالها رهبة وفزعاً..

وحتى بعد أن عادت إلى القاهرة كانت كلما مرت ببيت متهدم خرب، خيل إليها أنها سترى تلك العجوز التي رأتها هناك في القرية، تدب بعصاها بين الأكوام كما فعلت هناك. فهي لا يحدها زمان ولا مكان ما دامت هي النذير الذي يتولى أعمال الفناء في أي مكان على الأرض، وكان يمتلئ جسمها قشعريرة شديدة، وتبقى لحظة تحدق في زوايا المنزل البعيدة المتوارية التي يكتنفها الظلام، ويمتلئ خيالها بصورة العجوز وهي تبرز من كوة بعيدة دون أن يراها أحد أو يشعر بها إنسان. ويرتعش جسمها وتزداد دقات قلبها، وتسرع أنفاسها، وتجري مسرعة وهي تنظر إلى الخلف كأن شيئا يتبعها حقاً. وبعد أن تبعد عن البيت تنظر وراءها في

اطمئنان المنتصر بعد معركة طويلة، وقد خيل إليها أنها نجحت وأفلتت من شبح الفناء!.

٣٢- بين العقاد وطه حسين

في عام ١٩٤٦ كانت البلاد واقعة تحت تطبيق الأحكام العرفية، وكان وزير المعارف آنذاك "أحمد نجيب الهلالي". في تلك السنوات كان قلب سيد يزخر بالنقمة والغضب.. النقمة على الوزارة التي لم تعطه فرصته مثل الآخرين.. النقمة على العقاد الذي رفض تقديم أي كتاب لسيد قطب، أو حتى الإشارة إلى اسمه في أي مقال من مقالاته الصحفية.. النقمة على الأدباء والنقاد الذين يتجاهلون كتبه ودراساته فلم يذكروه بشيء بعدما أفنى عمره في الكتابة عنهم وقراءة كتبهم وتعريف القراء بهم. النقمة على إضاعة وقته في قراءة كتب الآخرين والتعريف بهم، في حين أنه يمكن اغتنام هذا الوقت في تأليف كتاب جديد له.. النقمة لأنه لم يتزوج ولم يبن أسرة وتكون له زوجة وأبناء، وعبر عن ذلك في قصيدة نشرها عام ١٩٤٥ يقول فيها:

قد مضى الحلم فحقق في العيان هل ترى إلا خواء في الزمان
وهي الأيام تُقْضى مثلما تنقضي أيامُ مأجور شريد
أين أحلامك بالعش الجميل؟ أين أمالك في الظل الظليل؟

في تلك الأثناء كتب مقالات ضد الحكومة ينتقد سياستها انتقادات لاذعة. ونشب خلاف بينه وبين الوزير الهلالي، على إثره قدم استقالته، إلا أن الدكتور طه حسين حال دون ذلك، وتصرف معه بشهامة ابن البلد وقال لسيد: "لن تصنعها وأنا هنا في الوزارة". وكان الدكتور طه حسين يعرف أعباء سيد المالية، وظروف

حياته العائلية، فأشفق عليه من ذلك، واقترح عليه أن يذهب إلى مدارس الصعيد، لمدة شهرين لمهمة تفتيشية، أو إن شئت الدقة لمهمة ترفيهية. لقد كان سيد يعيش أزمة نفسية خانقة يعرفها طه حسين جيدا، ويقارنها بالأزمة التي مر بها يوم نشر كتابه "في الشعر الجاهلي".

انطلق سيد إلى التفتيش في الصعيد جذلان مبتهجا كطفل، وفي جيبه ست جنيهات هي كل ما تبقى من المعاش. لاحقا ستطيب له الإقامة في الصعيد فيمدد إجازته ذات الشهرين لتصل إلى تسعة شهور.. راح يتنقل بين مدارس سوهاج، وبني سويف، والمنيا.. في هذا الترحال أمضى تسعة أشهر، وما أعظم سعادته في تلك الأيام، لا رقيب عليه في العمل. الآن في وسعه أن يفعل ما يشاء، ولا سيما ما يبدو له أجمل ما في الحياة، وهو أن يغدو ويروح في القرى بين احترام الناس ونظار المدارس والمدرسين، وبساطة الناس وصدق محبتهم.

وقد بدا له الحنين إلى موطن صباه، إلى قريته الجميلة، فأخذ يقضي أغلب وقته الصباحي في إتمام كتابه الهام: (طفل من القرية)، ثم يرتفع الضحى فيقول حسبي ما كتب اليوم، فيتناول إفطاره بيضة وقطعة جبن صغيرة، ويرتدي بذلته على عجل ويخرج في نشوة يمتص بخار الحقول ويحس بالحياة، ويلاحظ البراعم وهي تتفتح لشمس الربيع. في المساء يلتقي بعض كبار السن، ويسألهم عن القرى وعن بعض التفاصيل التي لم يكن يهتم بها عندما كان في قريته، ثم يعيد صياغتها بطريقته وهو يتحدث عن ذكرياته وطفولته. وكتب إهداء كتابه إلى طه حسين جاء فيه: "إلى صاحب كتاب "الأيام" الدكتور طه حسين بك، إنها يا سيدي أيام كأيامك، عاشها طفل في القرية..".

وهذا ما حدث مع الدكتور "طه حسين" عندما ثارت أزمة حول كتابه "في الشعر الجاهلي" فسافر إلى فرنسا، وهناك كتب كتابه الهام "الأيام" يتحدث فيه عن ذكرياته وطفولته، فكتب يقول: "كتبته هرباً من الحياة الواقعية وأنا في فرنسا،

وكنت ضائقاً أشد الضيق بالحياة العقلية في مصر، لأن أزمة كتاب في الشعر الجاهلي كانت قائمة، وهذا أصابني بضيق شديد جعلني أفزع إلى الماضي".

على أي حال، بعدما انتهى سيد من كتابه "طفل من القرية" كان شهر رمضان قد جاء، وكان سيد يتطوع أحياناً ليصلي في الناس التراويح في مسجد الشيخ جابر في سوهاج، وقضى معظم أيام شهر رمضان يقرأ القرآن بتدبر وتأمل.. وهنا، بدأت تلوح كالبرق أفكار عن التصوير الفني في القرآن فبدأ يسجلها على الورق باسترخاء من دون أن ينسقها أو يرتبها وفقاً لمنهج معين على الإطلاق، ثم وجد نواة من هذه الأفكار أثمرت بحثاً متكاملاً هو "التصوير الفني في القرآن"، وما انقضت الشهور التسعة حتى كان قد أتم معظم فصول هذا الكتاب الفريد..

كان من عادة سيد قطب أن يتناول جميع كتابات صديقه الدكتور طه حسين بالنقد والتحليل والمعابثة فيشيد ببعضها وينتقص بعضها الآخر، فقرَّبت هذه المعابثة بين الرجلين وأدامت الألفة بينهما.

وكان سيد كلما كتب كلمة قاسية في حق طه حسين أتبعها بكلمة تلطف قسوة هذه الكلمة حتى في أعوامه الباكرة عام ١٩٣٤، عقب تخرجه من كلية دار العلوم، وقبل أن تتوثق أواصر الصداقة بينهما كتب يخاطب طه حسين: "على أي حال يا دكتور أنت خبيث، ورزقي على الله، وليس هذا الخبث عيباً فيك تبرأ منه، بل ربما كان أحد العناصر الممتازة التي دفعت بك إلى مركزك الذي تتبوأه الآن بين المصريين".

ثم عمل سيد في وزارة المعارف التي كان طه حسين مستشاراً فيها، واستمر سيد ينتقده بنفس الأسلوب الذي يحبذه طه حسين ويغتبط به، ولم يحدث صدام بينهما أبداً، حتى في مرحلة التزام سيد الإسلامي، فإنه لم يتعرض له بالنقد الجارح إنما كان يتلمس له المعاذير والمبررات، في حين شن هجوماً عنيفاً على العقاد، متهماً

إياه بالزيغ والضلال، وكاد يكفره لأنه قال في كتابه المسمى (نشأة العقائد الإلهية): "ترقى الإنسانُ في العقائد كما ترقى في العلوم والصناعات!".

لكن أين سيد قطب- بعد التزامه الإسلامي- من كتابات صديقه الدكتور طه حسين، الذي حمل لواء التشكيك في القرآن والسنة والسيرة والتاريخ.. فهو الذي أنكر وجود إبراهيم وإسماعيل، وهو الذي كذب القرآن في دعوى وجودهما، وهو الذي زعم أن قصة إبراهيم وإسماعيل وأبوتهما للعرب أسطورة، لفقها يهود جزيرة العرب لغرض سياسي واستغلها القرآن لغرض ديني. وهو الذي كان يقول لطلابه في الجامعة: "ليس القرآن إلا كتاباً ككل الكتب الخاضعة للنقد، فيجب أن يجري عليه ما يجري عليها، والعلم يحتم عليكم أن تصرفوا النظر نهائياً عن قداسته التي تتصورونها، وأن تعتبروه كتاباً عادياً فتقولوا فيه كلمتكم..".

وهو الذي لم يجد في الأدب العربي القديم ما يستحق أن ينشره سوى أخبار الخلاعة والمجون كما كان يفعل في "حديث الأربعاء". وقد كتب الدكتور عبد الحميد سعيد في مجلة النهضة الفكرية عام ١٩٣٤ يقول:

"حديث الأربعاء" فيه العجب العجاب؛ إذ تتمثل فيه الرذيلة بأشنع مظاهرها، وتظهر فيه نفسية الرجل بما يشرحه بعناية خاصة وإطناب من قصص المجون والفجور بأسلوب جذاب، وبطريقة خلابة تؤثر في الناشئ المسكين، وتزين له سبيل الفساد، وتحبب له الانغماس في الشهوات. بعد أن شوَّه له الدين وتعاليمه، ومثله أمامه تمثيلاً لا يرغِّبه فيه، وأعطاه صورة مشوهة منفرة عمن قاموا بالدعوة إليه، ولم يترك مسبة إلا نسبها إليهم، فقد طعن في الخلفاء والعلماء من عظماء الأمة الإسلامية، وشوه تاريخ الإسلام بحيث لم ينج من مطاعنه إنسان، ولم يخص بثنائه في عصر الدولة العباسية الزاهر إلا هؤلاء الشذاذ من أهل المجون والفحش، فجعلهم مرآة ذلك العصر، أما أولئك المصلحون من أهل العلم والفضل الذين أقاموا صروح المدنية في العالم، ورفعوا أعلام الفضيلة في سائر الأنحاء، فلم

يذكرهم بخير، بل خلع عليهم من المساوئ والشتائم والسباب ما أثبت التاريخ أنهم بريئون منها..".

في مقابل هذا كله ماذا كتب سيد قطب، في مرحلة التزامه الإسلامي عن صديقه طه حسين؟

نطالع في هذا الصدد رسالة أرسلها سيد في مرحلة التزامه الإسلامي إلى أنور المعداوي، في مارس ١٩٥٠ بعدما أسندت وزارة المعارف إلى طه حسين يقول فيها: "إنني أعتقد على أية حال، أنه من الخير للبلد أن يكون هذا الرجل (طه حسين) في وزارة المعارف. ولست أسأل عما يكون لي أو عليَّ، فطريقي واضح أمامي، وهدفي معروف لي في جميع الظروف".

هذا كل ما قاله سيد قطب عن طه حسين بعدما ترك صحبة الأدب والأدباء..

ومن المعلوم أن سيد قطب لم يكن شديد القسوة في نقد كتابات طه حسين، إنما كان دائم التلطف به يناقشه بطريقته المميزة التي يولع بها طه حسين؛ فهي أقرب إلى المزاح المكشوف مع صديقين اعتاد كل منهما على معابثة الآخر.

وطه حسين من أولئك النفر الذين يحبون المشاكسة والمعابثة؛ فهو يغتبط بالنقد الصريح مهما كان قاسياً ولاسعاً، وأمثال تلك النماذج من الشخصيات تسعى دوما لأن تضع نفسها في المواضع التي تُلحق بها المسبة والأذى، وتجلب عليها سوء المعاملة والغضب، كي تظهر بمظهر الضحية المقهورة، فهي تستمتع بالإذلال والإهانة، وتشعر بالملل والسآمة إذا سارت الحياة معها بسهولة ويسر؛ لأنها ترى كل عزيز ونفيس في الدنيا لا ينال إلا بالمشقة والألم، وتشعر بالذنب والكآبة بعد كل إنجاز جديد، إن لم يعقبه ألم وكدر. وكأن هذه ضريبة مفروضة كان يجود بها طه حسين، من كرامته وعزة نفسه، عن طيب خاطر، مقابل ما ناله من المناصب الرفيعة، بعد أن عانى في طفولته من الإذلال والنقيصة..

كان سيد قطب يعي جيداً دوافع طه حسين، فهو يرى أفكاره ليست نابعة من قلبه ولا من اعتقاده ولا من إيمانه، إنما هي أراء يعلنها لينال منها الأذى الذي يريح نفسه، ويخفف عبء ضميره، وأيضاً يلفت الأنظار إليه، فإذا نال منها ما يشتهي تراجع عنها وتنصل منها.

أما مع العقاد فالشأن مختلف، فالعقاد يعي ما يكتب، ومحال أن يتراجع عن كلمة كتبها، أو يعتذر عن فكرة طرحها، والويل كل الويل لمن ينتقده أو يرى رأياً مخالفاً لرأيه.

وبعدما ابتعد سيد عن العقاد أصبح يتلمس أوهى الأسباب ليهاجمه ويحطم كل ما سبق أن قاله عنه، وما سكبه عليه من براميل المديح، فهو لم يكن يرى في الدنيا شاعراً ولا أديباً ولا مفكراً ولا فيلسوفاً إلا العقاد، لكن منذ عام ١٩٤٨ أصبح يلمز شاعرية العقاد بقوله: (..إن الوعي هو أبرز سمات المدرسة العقادية، والوعي في الشعر معوق للغناء، وما لم يكن الانفعال وراءه دافقاً حاراً إلى الحد الذي يغمر الوعي ويجرفه، تتعرى الفكرة وتتجرد وقد تبرد فتبتعد عن ميدان الشعر بمقدار ما يتخلى عنها التدفق والحرارة).

ثم يأتي إلى مرحلة الإجهاز النهائي على العقاد في تفسيره (في ظلال القرآن) حيث وجه للعقاد آخر ضرباته وأشدها خطراً، حينما استخدم نصوص الدين للهجوم على العقاد، والطعن في عقيدته وإيمانه والتقليل من شأنه واحتقاره بكل ما وسعته الحيلة إلى ذلك، فلم يذكر اسم العقاد في كل تفسيره إلا مرة واحدة قائلاً عنه أولاً بطريقة تشي بالاحترام: (كتب الأستاذُ العقادُ في كتابه يقول..)

ثم بعد ذلك يشير إليه بأنه مجرد كاتب دون ذكره بالاسم، بقوله:

(..وواضح سواء من رأي "الكاتب" نفسه، أو مما نقله ملخصاً من آراء علماء الدين المقارن..)

ثم يشير إليه مرة أخرى دون ذكر لاسمه، ثم يبدأ بالهجوم المبطن عليه بقوله:

(والذي لا شك فيه أن الله سبحانه يقرر في كتابه الكريم، تقريراً واضحاً جازماً، شيئا آخر غير ما يقرره (صاحبُ) كتاب: "نشأة العقائد الإلهية" متأثراً فيه بمنهج علماء الأديان المقارنة، ويتابعهم فيه..)

ثم يلمزه مرة أخرى، مهوناً من شأنه، بأنه مجرد مخدوع بنظريات الباحثين في تاريخ الأديان:

(وينزلق بعض من يكتبون عن الإسلام مدافعين؛ فيتابعون تلك النظريات التي يقررها الباحثون في تاريخ الأديان- وفق ذلك المنهج الموجه- من حيث لا يشعرون! وبينما هم يدافعون عن الإسلام متحمسين يحطمون أصل الاعتقاد الإسلامي الذي يقرره القرآن الكريم)..

ثم يختتم هجومه قائلا: (ولعل هذه اللمحة المختصرة- التي لا نملك الاستطراد فيها في كتاب الظلال- تكشف لنا عن مدى تغلغل مناهج الفكر الغربية ومقرراتها في أذهان الذين يعيشون على هذه المناهج والمقررات ويستقون منها، حتى وهم يتصدون لرد الافتراءات عن الإسلام من أعدائه).

هكذا رمى سيد قطب- ذلك الثائر التائب- بالمنجنيق جدار تراث العقاد الفكري الإسلامي، بكل العنفوان الكامن في ضميره المثقل بالتوتر والألم، فبلغ من قوة الهزة أن ذبذباتها لا زالت تتردد حتى اليوم في إنتاج العقاد الفكري فصدَّعت شطراً كبيراً منه!.

٣٣- الفتوة بين سيد قطب والعقاد

والآن دعنا نميط اللثام عن سر مهاجمة سيد قطب لأستاذه العقاد، وقد كُتب في هذا الموضوع مئات المقالات والأبحاث، لكن أيّاً منها لم يُصب كبد الحقيقة. وإننا

كي نحل هذا اللغز يجب أن نفهم سمات العصر الذي عاش فيه هذان العبقريان اللذان لم يتعارفا قط.

ومن أظهر سمات ذلك العصر ما كان يسمى بظاهرة "الفتوَّات"، التي كانت معروفة ومنتشرة في الحارات الشعبية، وقرى الصعيد. وكان نظام الفتونة يكاد يكون معترفاً به، وكان هناك فتوة شهير اسمه «عرابي» فتوة الحسينية، أكبر وأشهر فتوة في مصر، وكان عرابي رجلاً رهيباً ذا سطوة، لدرجة أن كبار السياسيين كان يخطبون ودَّه ليساعدهم في كسب أصوات الناس لما يتمتع به من تأثير جماهيري رهيب، وكان شكله وتركيبته الجسمانية والنفسية يوحيان بالزعامة، وفي طلعته هيبة، وفي صوته شموخ..

والفتوة لا بد أن يتمتع بذكاء حاد، وبقدر كبير من الشهامة والرجولة. والفتوة يختلف عن البلطجي الذي لا يتورع عن فعل أي شيء.

وكان للفتوات دور وطني حين كان معترفاً بهم، خاصة في ثورة ١٩١٩ وأكبر مقاومة واجهها الإنجليز على المستوى الشعبي كانت من الفتوات.

إذن.. يمكننا أن نقرر بأن المعارك الفكرية هي امتداد لظاهرة الفتوات، ولقد نشأ سيد قطب في قرية تنشب فيها المعارك بالشوم لأتفه الأسباب، وهو قد تأثر- مثل كل أهالي القرى- بمعارك الشوم ولعبة التحطيب، ولا تجد شخصاً من قرى الصعيد إلا وامتزجت نفسه بهذه اللعبة الخطرة.

وسيد لم يمارس الفتوة الجسدية مثل فتوات الصعيد لأن جسده لم يسعفه، لكنه مارس الفتوة الفكرية، وأجبر الآخرين على دفع الإتاوة وهم صاغرون، وإلا سيكون مصيرهم الحرق والتنكيل. هذا ما كان سيد والعقاد يفعلانه في معاركهم القاسية، فهم يمارسان الفتوة الصعيدية في أبهى صورها، ولكنها "ليست فتوة للتكسب والطمع وأكل العيش، كلا، إنما هي إرضاء للنفس.. إنها تشبه اللصوصية التي يمارسها أبناء الأثرياء في الصعيد، لا يقال إنهم يسرقون ليعيشوا، إنما هي فتوة،

يمارسها الشاب في أول صباه تصريفاً للطاقة المختزنة في بدنه، والتي لا يجد لها تصريفاً إلا في هذا السطو الليلي وقطع الطريق. هؤلاء لا يسطون على بيت أرملة، أو على منزل لا رجال فيه، أو منزل فيه رجال عجزة ضعفاء.. واللص الذي يسطو على بيت أرملة أو ضعيف هو اللص "النتن" الذي يحتقره رفاقه وأهل القرى جميعاً، بينما كبار اللصوص الذي يسطون على بيوت الأقوياء والأثرياء هم محل احترام الجميع، فوق أنهم موضع رهبة من الجميع"[١٨].

لكنْ سيد لم يقدر أن يمارس هذه الفتوة لضعفه الجسماني، وأمراضه الكثيرة التي لازمته طوال حياته. فهي لا تعينه على الحركة والجري والضرب، وها هو ذا يستعيض عن معارك الشوم بمعارك القلم، ولا يجد سلواه إلا في ممارسة هذه المعارك القلمية والمناوشات الفكرية مع أدباء عصره، فكتب ذات مرة يقول: "كنت أول المغتبطين بالمعارك الأدبية، مهما كان فيها من خصومات، ومهما كان فيها من ضجيج، وذلك أن خصومة الحياة عندي خير من سلام الموت، وأن ضجة العاصفة أفضل من صمت الركود". وفي عام ١٩٣٣ نشر قصيدة بعنوان "الجبار العاجز" يعبر فيها عن هذه الأمنية جاء فيها:

حَطَّم الدهرُ قواه فانحطمْ وتنزَّى الداءُ فيه والألم
صرخةُ الجبارِ يشكو مرغماً ذلة الشكوى وإهوانَ الرَّغَمْ
يشتكي العجزَ وما يؤلمه فيه إلا كبح نفسٍ تضطرمْ
يشتكي العجزَ الذي أقعده عن صراعاتٍ وهولٍ يقتحمْ

أقول: إن شأن سيد شأن أهالي قرى الصعيد لا يملأ عينيه إلا الفتوة الكبير، الذي تجدر مصادقته والتقرب منه والدفاع عنه والاحتماء به إذا لزم الأمر.. وقد احتشد هذا كله في العقاد، الفتوة الخطير "عرابي الحسينية(!)" ذلك الفتوة الصعيدي الشرس الذي لا تلين له قناة، والذي لا يقدر أحد أن ينازله أو يقارعه.

---

[١٨] كتاب (طفل من القرية): سيد قطب

وقوة العقاد ليست في قلمه فحسب، إنما في نفاذه إلى مكمن القوة والضعف لدى كل إنسان، وقد أدرك العقاد بطبعه- الذي لا يبارى فيه- قوة تلميذه سيد الذي راح يلتصق به، فلم يقدر على الإفلات منه، خوفاً من طيشه وتهوره، وطول لسانه، وقوة بيانه، وأيضا حباً في استخدامه في الهجوم على أعدائه.

ولم يكن ثمة هناك من هو أجدر من سيد يتخذه العقاد سنداً وذراعاً فولاذية يضرب بها. ومع هذا، فإن العقاد ظل يتلافى سيد، ويحاول التملص منه، وعدم الالتصاق به، أو اتخاذه صديقاً حميماً، يُفْضي إليه بمكنون نفسه.

كان العقاد دوماً يجعل بينه وبين سيد مسافة إن اقترب منه سيد ابتعد، وإن ابتعد عنه سيد اقترب، وظلت هذه مسافة مأمونة محسوبة بميزان دقيق، فقد كان لا يأمن سيد وتقلباته المباغتة من النقيض إلى النقيض.

لهذا، كان العقاد دائم الحذر من سيد، لم يتخذه خِلاً، كما لم يتخذه خصماً، إنما اعتبره واقعاً مفروضاً عليه من حيث يريد أو لا يريد، وكان العقاد يروم أن تبدو الأمور بينه وبين سيد- ذراعه اليمنى- طبيعية، محاولاً قدر الإمكان ألا يطلعه على خباياه وأسراره، لأنه يعي جيداً أن هذا الفتى سينقلب عليه عاجلاً أم آجلاً، وقد صدق حدس العقاد فيما حدس.

كان العقاد يدرك أن تعلق سيد به إنما هو لقوته وبأسه، فإن أحس ضعفاً أو تقهقراً لدى العقاد، فلا بد أن يخرج عليه ويتجاوزه، كما يحدث في الصعيد عندما تكون الغلبة للقوة والبطش.. فطالما كان الفتوة قوياً قادراً على البطش بالآخرين بلا رحمة، طالما التف حوله الأتباع والمناصرون، فإن أحسوا منه ضعفاً أو خوراً، فما يلبث أن ينقض عليه فتوة قوي جلد ويجهز عليه، ثم يعلن تسيده بدلاً منه، ويفرض وجوب الطاعة له!. هذا ما كان يدركه العقاد من طبيعة سيد بغريزة الفتوة الكامنة في نفسه، وهو الذي مارس الفتوة الفكرية عن جدارة واقتدار، فأدمى أقواماً واكتسب عداوة أقوام، فأصبح حريصاً على ألا يطلع سيداً على نقاط

الضعف من نفسه، كي لا يتخذها سيد ثغرة للهجوم عليه، والإطاحة به في وقت من الأوقات..

لذلك كان سيد يعتقد أن العقاد كما هو قوي في قلمه وفكره قوي أيضا أمام ضغوط الحياة وشظف العيش. لكنه اكتشف- ويا لهول ما اكتشف- أن العقاد ضعيف أمام ضغوط الحكومة، كما صرح بذلك لأبي الحسن الندوي عام ١٩٥١ بقوله: "إني كنت أعتقد أن مثل العقاد في عقله الكبير، وشخصيته العظيمة، لا يخضع للضرورات والملابسات، كالحكومة والسلطة، ولكنه سالمها!".

وقد صدق حدس العقاد فيما كان يتوقعه من غدر فتاه وذراعه اليمنى، وذلك بعدما مات العقاد موتاً معنوياً في نظر سيد، حينما انسحب من المعارك الأدبية، والتجأ إلى الهدوء وتأليف الكتب العميقة الهامة، وحينما استقال من حزب الوفد وتزعزعت مكانته، وأصبح بلا نفوذ، وانفض عنه الأتباع والمشايعون، وركن إلى الهدوء، ولم يعد له ذلك البأس الشديد الذي كان له في ذروة مجده. في ذلك الوقت، ظن سيد أن الطريق ممهد إلى قلب العقاد ليتبوأ مكانته المفقودة، بينما هو غارق في خضم أزماته، لكن شعور العقاد تجاه سيد لم يتغير، وظلت المسافة بينهما كما هي لم تتغير.

هنا، بدأ سيد يبحث عن ذريعة ليثور على العقاد، وكانت الذريعة حاضرة منذ سنوات، عندما أحجم العقاد وصمت عن تقديم أي كتاب لسيد أو التعريف به، أو ذكره مجرد ذكر! هنا انقلب سيد على العقاد وحاول الانتقام منه بكل ما وسعه الانتقام.

لقد حدث بالضبط ما يحدث مع فتوات الصعيد، عندما يكون أحدهم تابعاً للفتوة الكبير، ذلك الرجل القوي البأس، ثم يدركه الضعف فيسالم أو يهادن، ثم يغفل عن تابعيه فيهملهم بقصد أو بدون قصد، وتكون في نفس أشدهم بأساً، وأقربهم منه مكانة بعض الإهانات التي تجرعها وسكت عنها لكنه لم ينساها، هنا

يقوم هذا الفتى الثائر الغضوب بإعطاء ولائه لفتوة أضعف بأساً، وأحقر شأنا، لا يأبه به أحد.

هذا ما فعله سيد بالضبط عندما قدَّم شعر (محمود أبو الوفا) على شعر العقاد. فكتب في أغسطس من عام ١٩٥١ يقول: (في الجو رائحة تفوح، رائحة شعر، إنها أنفاس محترقة، للشاعر محمود أبو الوفا، ذلك الشعر الذي لم نعرفه في حينه، لأننا كنا في غفلة عن إدراك حقيقة الشعر في ذلك الحين، كنا نلتمس الشعر مخنوقاً في ركام الفكرة المعتلة الجامدة، أو متقزماً في اللفتة الذهنية البارقة. فأما الشعر كما هو مجردا من القوالب والأشكال، طليقا من ثقل الفكر، ولمعة الذهن، واصطناع المشاهد والموضوعات، طليقاً، رفرافاً، فيه طلاقة العطر والشذى فهو لم نحفل به كثيراً).

هكذا بين عشية وضحاها أصبح شعر العقاد مخنوقاً في ركام الفكرة المعتلة الجامدة، ومتقزماً في اللفتات الذهنية البارقة، لا يقدر على الطيران أو التحليق بسبب ثقل الفكرة، وتكلف اصطناع المشاهد والموضوعات..

كان هذا آخر مقال نقدي كتبه سيد قطب قبل أن يعتزل النقد كلياً ويتجه إلى الكتابة الدينية، ودعا سيدُ نُقادَ الأدب- في هذا المقال- أن يهجروا شعر العقاد ويتجهوا إلى شعر أبي الوفا فقال في ختام مقاله:

(..أحب أن أقرر بعد هذا كله أن شعر أبو الوفا (ظاهرة فنية) لها مظاهر قوتها الخاصة، ومظاهر ضعفها الخاصة.. ظاهرة فنية مستقلة تستحق الدراسة في تاريخ الشعر العربي كله.. ظاهرة نيئة لم تدرس بعد حق دراستها، لأن النقد الفني لم يكن من اليقظة بحيث يلتفت إلى الظواهر الفنية التي تولد بين الحين والحين).

٣٤- إلى أمريكا

تنفس الصبح، وبدأ بنشر خيوطه البيضاء التي بددت ظلمة الليل، واختلط النور الأبيض الرمادي بزقزقة العصافير وهي ترفرف بالقرب من نافذة سيد، التي تطل على شجرة السنديان الضخمة، التي اعتاد الجلوس تحتها في حديقة بيتهم في حلوان. كان سيد يتقلب طوال الليل قلقاً، ينتظر انبلاج الصبح، موعد سفره إلى أمريكا، ذلك العالم المثير المجهول، الذي طالما حلم به.

وما هي إلا لحظات حتى امتلأ الجو نوراً، وأشرقت أشعة الشمس الوردية من وراء الأفق، وبدأ يسمع ضجيج الناس في الشارع الذي دبت فيه الحياة، وتناهى إلى سمعه أصوات باعة الصحف، والعمال، والباعة الجائلين، والموظفين، وتعالت أصوات محركات السيارات، وحوافر البغال والحمير.

نهض سيد نشيطاً، وكان أول شيء خطر على ذهنه بعض الكلمات والجمل الإنجليزية التي كان يسترجعها قبل نومه: (كم الساعة الآن.. كم عمرك.. لماذا جئت إلى أمريكا..)

وفي الثالث من نوفمبر عام ١٩٤٨ وفي الساعة العاشرة صباحاً ركب العربة التي ستقله إلى ميناء الإسكندرية هو والأشخاص الستة المبتعثين معه إلى أمريكا. بدأت العربة تمر عليهم واحداً تلو الآخر، وقد تأثر بلحظات وداعهم المهتاج لآبائهم وأمهاتهم وأولادهم. وراح يقارن بينه وبين وداع أخواته الصامت المستكين.

كانت تتنازعه أفكار كثيرة، وعواطف شتى.. إنه سيسافر إلى أمريكا، ذلك العالم الأخاذ البديع الذي طالما سمع به وقرأ عنه، إنها نفس المشاعر والأحاسيس التي انتابته يوم جاء إلى القاهرة، الساحرة، من بلدهم في الصعيد، منذ ثمانية وعشرين عاماً ليدخل المدرسة ويصبح أفندياً، تحقيقاً لرغبة أمه، فأين هي أمه الآن!

لقد أحس يوم جاء إلى القاهرة وهو صبي بالوحدة والخوف، الممتزج بالفرحة والغموض، وقد أسلم الصبي قياده لخاله رحمه الله الذي كان يقيم بالقاهرة ويعمل صحفياً ويعرف القاهرة جيداً: ضواحيها ومعالمها وشوارعها وكثيراً من أسرارها..

كان الصبي سعيداً، مبهوراً بما يرى ويسمع. لكن الأيام مرت سريعة وخمد الانبهار. كان قبل مجيئه للقاهرة يستمتع بالريف ومباهجه وأجوائه وناسه، لكنه منذ جاء إلى القاهرة أصبح ينفر من الريف ولا يجد له طعماً ولا متعة، حتى القاهرة لم تعد لها متعة ولا بهجة.

تذكر سيد والده ونظراته ودعاءه وعَبَراته. لم يكن يفهم كثيراً من هذه المشاعر، لكنه كان يحسها. وسيطر عليه مرة أخرى في هذا الصباح نفس الشعور الغامض الذي انتابه يوم أن جاء إلى القاهرة.. إنه ما زال يذكر نظراته إلى أبيه الذي كان يتمزق حيرة، وإلى أمه التي كانت تسح الدموع بغزارة.. وينظر إلى إخوته الصغار الحائرين وهم يبكون..

في الساعة السادسة من مساء يوم الخميس وصل سيد إلى ميناء الإسكندرية، ولم يكن معه أحد في الميناء ليودعه، فقد ودعه إخوته في القاهرة وأشفق عليهم من السفر معه إلى الإسكندرية، فلم ير داع لمرافقته إلى الإسكندرية وتجشم عناء الذهاب والإياب.

صعد سيد ورفاقه الستة على ظهر الباخرة التي كانت راسية في حوض السفن. وكانت عملية شحن الباخرة لا تزال جارية على قدم وساق، وسادت في أرجاء الباخرة بلبلة من الأقاويل بعدة لغات حول مغادرتها وموعد إقلاعها من الميناء، في الوقت الذي كانت راية الإقلاع الزرقاء ترفرف فوق ساريتها.

وبحلول الساعة السابعة مساء كان جميع الركاب وطاقم البحارة على متن الباخرة، بينما تولت الشرطة حراسة المعبر الفولاذي الموصل بين الباخرة ورصيف الميناء، لمنع المتسللين من اجتياز ذلك المعبر والاختباء في الباخرة. وعندما صعد

الربان المسئول عن القيادة إلى ظهر الباخرة تمت إزاحة المعبر الثقيل بعيداً عن الباخرة، أما الأسلاك المعدنية الغليظة، التي كانت تشد الباخرة إلى مراسيها على الرصيف، فقد تم إرخاؤها لتنزلق بعيداً عن الباخرة. وانحنى الجسر الثقيل الذي كانت تعبر فوقه الأحمال- قبل دقيقة خلت- وانعطف مائلاً إلى جانب الرصيف. وأطلقت الباخرة صفارة المغادرة، وأعطى المسئول عن الرسو والإقلاع إشارة الانطلاق من خلال بوق كان يتكلم فيه مودعاً ومعرباً عن تمنياته للمسافرين برحلة سعيدة. وانطلقت الباخرة في حركة هادئة رتيبة وعبرت بوابة الحوض إلى مياه البحر. وبدا البدر من وسط سحابة كانت تحجب الأفق جليلاً مهيباً، وغادر الأصدقاء والأقارب الذين جاءوا لتوديع ذويهم الميناء وهم يلوّحون بأيديهم.

لقد غمرت سيد فرحة عارمة. فهذه هي المرة الأولى التي يبحر فيها فوق هذه المياه مسافراً، وأخذ يتابع بافتتان شديد المشاهد المتحركة التي تجري أمام ناظريه، فقد بدا له كأن الباخرة واقفة بينما الذي يتحرك هو مدينة الإسكندرية، ولم تتلاش هذه الصورة المضللة للبصر إلا بعد أن أصبحت الإسكندرية بمنأى عن الأنظار.

وكان يبدو باهتاً أعداد كبيرة من السفن والبواخر التي تحتشد على الميناء، بأنوارها المضيئة فوق صواريها، وهي تتلألأ وتنعكس في الماء، مما يضفي على الإسكندرية مظهر مدينة الأنوار الساكنة والمدهشة والمثيرة للتأمل.

وقد بدا البحر هادئاً ساكناً متلألئاً مع انعكاس ضوء القمر الذي أصبح الآن صافياً منيراً لا يحجبه ضباب ولا غيوم. وبدأ الهواء النقي المنعش المشبع بالملوحة يهب بارداً طرياً واعداً برحلة بحرية ممتعة. والمشهد كله كان مليئاً بالروعة والجمال. وبالرغم من أن مدينة الإسكندرية قد اختفت تدريجياً عن الأنظار إلا أن توهج هالات أنوارها المتلألئة لا تزال تتراءى في الأفق على مدى مسافة تزداد اتساعاً كلما ابتعدت الباخرة عنها.

٣٥- في عرض البحر

في اليوم التالي، صباح يوم الجمعة، كانت السفينة قد ابتعدت كثيراً عن اليابسة، ولم يعد يُرى حولها سوى الأفق الذي ينفسح كلما أوغلت فيه، ولا يحيط بالسفينة غير الفضاء الأزرق، الذي بدت فيه كنقطة متحركة وسط هدوء رهيب، والبحر ما زال على زرقته ولألائه، والسماء ما برحت صافية جميلة، والشمس المشرقة ما برحت تسطع دافئة متألقة، والطقس المعتدل يزداد برودة كلما تقدمت الباخرة باتجاه الغرب، والعين لا تقع إلا على الطيور البحرية والحيوانات المائية، والبحر ساكن هادئ شبيه بلوح زجاجي متحرك، والموج يعلو ويهبط برفق.

في تلك الأجواء صفت النفوس وامتلأت إشراقاً وخشوعاً، وقام مبشر مسيحي في رقبته صليب يزاول تبشيره مع ركاب السفينة، وأعانه هذا الجو الرومانسي على مهنته، واقترب من سيد ورفاقه يبشرهم بالمسيحية وبمحبة يسوع لهم.. في تلك اللحظة انتفض سيد، ذلك الفتوة الصعيدي الغضوب، يذود عن حرمه وشرفه، إزاء دخيل استخف بشموخ هذا الفتوة وجبروته. وخطر له أن يقيم صلاة الجمعة على ظهر السفينة إمعانا في إغاظة هذا الدخيل!. وأعانه رفاقه على هذا الاقتراح، تحمساً لدينهم الذي بدا محتقراً مستهاناً به من كل من هبَّ ودبَّ.

وإزاء هذا التصميم، الذي بدا على وجوه هؤلاء الرفاق، وافق ربان السفينة الإنجليزي على إقامة الصلاة، وسمح لبحارة السفينة وطهاتها وخدمها وكلهم نوبيُّون مسلمون أن يصلّوا معهم. وقد فرحوا بهذا فرحاً شديداً؛ إذ كانت تلك المرة الأولى التي تقام فيها صلاة الجمعة على ظهر هذه السفينة. وقام سيد بإلقاء خطبة الجمعة والإمامة في الصلاة، وتحلق الركاب الأجانب حولهم يرقبون الصلاة.

وفجأة، حدث شيء لم يكن أحد ينتظره من هذا الفتوة الصعيدي. فقد غلبه التأثر وخنقته العبرات، وهو الرجل الذي لم يَفضح وجهُه قط شعوره: إن عينيه

تترقرق فيهما الدموع الحارة، التي تنهمر الآن على خديه.. إن سيد يبكي من الفرح!. فرح العثور على الشاطئ المجهول الذي طالما بحث عنه وحلم به.

إن هذه اللحظة لأعظم لحظة مر بها سيد في حياته.. لحظة ينعم فيها الإنسان بفرح غير محدود لا يذوقه إلا مرة واحدة في حياته.. لحظة فرح قصيرة، لكنها أغنى لحظات حياته على الإطلاق.

وما إن انتهت الصلاة حتى جاءهم كثيرون من الأجانب يهنئونهم على نجاح هذا «القدَّاس»!

لكن ما لفت نظر سيد وطبع في ذاكرته لسنوات وسجله في تفسيره "الظلال" بعد مرور سنوات على هذه الحادثة، سيدة يوغسلافية مسيحية كانت شديدة التأثر والانفعال تفيض عيناها بالدمع، ولم تتمالك مشاعرها، حينما جاءتهم تشد على أيديهم بحرارة وتقول في إنجليزية ضعيفة: إنها لم تملك نفسها من التأثر العميق بصلاتهم المليئة بالخشوع والنظام والروح. ثم سألتْ هذه السيدة أحد رفاق سيد عن اللغة التي كان يتحدث بها «قسيسكم»؟. فلما أخبروها قالت: "إن اللغة التي كان يتحدث بها ذات إيقاع موسيقي عجيب، وإن كنت لم أفهم منها حرفاً". ثم كانت المفاجأة لسيد ورفاقه بأنها قالت: لقد لفت حسي، فقرات ذات إيقاع موسيقي عميق كانت ترد أثناء كلام «الإمام» أحدثت في نفسها رعشة وقشعريرة! إنها شيء آخر، كما لو كان الإمام مملوءاً من الروح القدس حسب تعبيرها المسيحي. وأدرك سيد أنها تعني «الآيات القرآنية» التي وردت في أثناء خطبة الجمعة والصلاة.

لقد صدقت هذه السيدة لقد كان سيد مملوءاً بسلام واطمئنان عجيبين في تلك اللحظات، وسوف يكتب رسائله إلى أصدقائه يحدثهم عن هذا الفرح الروحي الذي يعيش فيه، وقد جُمعت هذه الرسائل في كتاب: «أفراح الروح» الذي جاء فيه:

"إن الشر ليس عميقاً في نفوس الناس إلى الحد الذي نتصوره. إنه تلك القشرة الصلبة التي يواجهون بها كفاح الحياة للبقاء. فإن أَمِنوا تكشفت تلك القشرة الصلبة عن ثمرة حلوة شهية.. هذه الثمرة الحلوة، إنما تتكشف لمن يستطيع أن يشعر الناسُ بالأمن من جانبه، بالثقة في مودته، بالعطف الحقيقي على كفاحهم وآلامهم وأخطائهم وعلى حماقتهم كذلك..

إننا عندما نلمس الجانب الطيب في نفوس الناس، نجد هناك خيراً كثيراً قد لا تراه العيون لأول وهلة، حتى الذين يبدون في أول الأمر أنهم شريرون أو فقراء في الشعور.

فقط شيء من العطف على أخطائهم، وحماقتهم.. شيء من الود الحقيقي لهم.. شيء من العناية- غير المتصنعة- باهتماماتهم وهمومهم، ثم ينكشف لك نبع الخير في نفوسهم، حين يمنحونك حبهم ومودتهم وثقتهم، في مقابل القليل الذي أعطيتهم إياه من نفسك بصدق وصفاء وإخلاص..

كم نمنح أنفسنا الطمأنينة والراحة والسعادة، حين نمنح الآخرين عطفنا وحبنا وثقتنا، يوم تنمو في نفوسنا بذرة الحب والعطف والخير. أما حين نعتزل الناس لأننا نحس أننا أطهر منهم روحاً، أو أطيب منهم قلباً، أو أرحب منهم نفساً، أو أذكى منهم عقلاً- فلا نكون قد صنعنا شيئا كبيراً، لقد اخترنا لأنفسنا أيسر السبل وأقلها مؤونة.

إن العظمة الحقيقية أن نخالط هؤلاء الناس مشبعين بروح السماحة والعطف على ضعفهم ونقصهم وخطئهم، وروح الرغبة الحقيقية في تطهيرهم وتثقيفهم ورفعهم إلى مستوانا بقدر ما نستطيع. وبالتجربة عرفت أنه لا شيء في هذه الحياة يعدل ذلك الفرح الروحي الشفيف الذي نجده عندما نستطيع أن ندخل العزاء أو الرضا أو الثقة أو الأمل أو الفرح إلى نفوس الآخرين.. إنها لذة سماوية عجيبة

ليست في شيء من هذه الأرض، إنها تجاوب العنصر السماوي الخالص في طبيعتنا، إنها لا تطلب لها جزاءً خارجياً، لأن جزاءها كامن فيها.

إننا نعيش حياة مضاعفة، حينما نعيش للآخرين، وبقدر ما نضاعف إحساسنا بالآخرين، نضاعف إحساسنا بحياتنا، ونضاعف هذه الحياة ذاتها.. عندما نعيش لغيرنا، فإن الحياة تبدو طويلة عميقة، تبدأ من حيث بدأت الإنسانية وتمتد بعد مفارقتنا لوجه هذه الأرض. أما عندما نعيش لذواتنا فحسب، فسوف تبدو لنا الحياة قصيرة ضئيلة، تبدأ من حيث بدأنا نعي، وتنتهي بانتهاء عمرنا المحدود".

***

ها هو ذا فاقد السكينة قد طاب نفساً، وقد بدت هذه السكينة من خلال كتاباته التي خطها في لحظات صوفية تغشَّته في "كاليفورنيا". وهو الآن لا يرغب إلا بما هو طبيعي إلى أقصى الحدود: أن يعيش حياته في سلام مع الدنيا!

لكن أنى للمرء أن يجد إيماناً على هذا النحو المباغت، إذا لم يكن المرء يحمل في نفسه نواة الإيمان! وكيف يغدو المرء، بين عشيه وضحاها، رقيق القلب، طيباً، متواضعاً، وديعاً، وقد ظلَّ طوال ثلاثين عاماً لا يزن العالم إلا بعين الناقد الذي لا تأخذه لومة لائم.

إن سيداً، ذلك الكاتب الغضوب، الذي كان يمتشق قلمه الحاد عند أقل معارضة يعارضه فيها كاتب، غدا نتيجة لتحوله الروحي، في تلك الأيام أكثر طيبة ورقة ولطفاً.. لقد غيَّر هذا التبدل الروحي وجهة نظره وطريقه تفكيره غير أنه لم يغير صميم طبيعته، فلا يمكن الهرب من نفسه. فانعدام المرح وشعور الكآبة يخيمان بظلهما على نفسه الثائرة، فلم يكن مفطوراً على الرضا، فلابد أن يكافح حتى الساعة الأخيرة من حياته بغير هوادة.

وسرعان ما يصفق الباب إلى الأبد بينه وبين القراءات الأدبية. فالمعارك الأدبية والأدب لا تهب له الإيمان الصحيح، بل على العكس من ذلك، إنها تترك الإيمان يتسرب ويفسد. هكذا يصفق الباب بقوة في وجه النقد الأدبي والقراءات الأدبية. وعلى الفور يبدأ سيد انتفاضة وحشية محمومة، بقراءة كتب التراث، تلك الكتب التي ضيعها في غمرة انبهاره بالعقاد.

لقد شبع بصورة نهائية من المعارك الأدبية، فكل معركة أدبية تبدو مثل الأخرى، فلا يرى فيها شيئاً جديداً، إنما يرى الشيء ذاته في كل معركة، ولقد شبع من قراءة الروايات المملة والكتابة عنها، وشبع من قراءة دواوين الشعر التافهة، ومن تملق الأدباء له ليكتب عنهم ويقدمهم ويضيع أوقاته، في حين لا يلتفت إلى نفسه وإلى تأليفاته.

٣٦- نيويورك

بعد تسعة أيام من إبحار السفينة بين غيم وصحو وجزع واطمئنان وصل سيد إلى ميناء نيويورك، وأول ما ظهر له من هذه المدينة تلك الكتلة البنائية الهائلة التي كانت تظهر كأنها تصل الأرض بالسماء تسمى «تمثال الحرية». وهو تمثال لامرأة يقوم على صخرة في وسط الميناء، وقد رَفعت يدها اليمنى إلى السماء كأنها تشير إلى القادمين إلى هذه البلاد بالدخول متنعمين بالحرية شعار هذه البلاد.

تلفت سيد حوله وقد أحس بالخوف قليلاً، وسط حشد هائل من الناس الغرباء من كل جنس ولون، يروحون ويجيئون، والكل مشغول بنفسه، وأخذ يبحث عن مندوب البعثات المصرية المكلف بانتظارهم. ماذا لو لم يظهر المندوب، وهو لا يحمل في جيبه إلا ثلاثة وأربعين دولاراً.

لم يمض كثير من الوقت حتى ظهر المندوب، والفضل يرجع لبعض رفقائه الستة خفاف الحركة وخفاف التحفظ، الذين أخذوا يدورون في الميناء يسألون بدون تهيب أو تحفظ كأنهم من أبناء البلد، حتى عثروا أخيراً على مسئول البعثة المصرية "محمد لبيب"، الذي تعمد التأخر حتى يشعرهم بأهميته ومكانته، ولم يرتح سيد لصوته اللزج ولكنته التي اجتهد أن يجعلها أمريكانية، وأخذ هذا المندوب يعامل سيد كأنه مجرد شخص قادم للحصول على شهادة يحَسَّن بها وضعه المادي والاجتماعي. وتلك أول صدمة تلقاها سيد، الذي جاء إلى أمريكا بصفته خبيراً في المناهج، فإذ به يجد نفسه إنساناً عادياً عليه أن ينافق ويداهن ويتوسل.. كما عليه أن يكافح عشرين عاماً أخرى ليتقن اللغة الإنجليزية، ويدرس المناهج، ويغرق في استيعاب الدراسات والأبحاث والمؤتمرات وترجمة المصطلحات..

وفي جزيرة صغيرة قريباً من الميناء تم الكشف الطبي عن ركاب السفينة، كما تم الفحص القانوني لأوراقهم، ثم قادهم المندوب إلى لوكاندة "مانجر"manager التي تشرف على الشارع الخامس، وقريباً من اللوكاندة تقع جملة من الشوارع المتقاطعة يطلق عليها شارع خمسة، أو شارع ستة، أو شارع سبعة، مما جعل سيد يتندر لرفقائه قائلاً: "يبدو أنهم فرغوا من الأسماء التي يسمون بها الشوارع فوضعوا لها نُمَراً عددية".

كانت الغرفة التي نزل بها سيد بها كل ما يلزمه: حنفية ينزل منها الماء البارد، والماء الساخن في أي وقت يشاء. وباب الغرفة عبارة عن دولاب له بابان مُحْدَوْدَبان، أحدهما داخلها، والآخر خارجها، لوضع الملابس التي هي في حاجة إلى التنظيف من الباب الداخلي ثم يقفله، فيأتي الخادم كل صباح يفتح الباب الخارجي فينظفها ثم يضعها مكانها، واذا فتح باب غرفته في الصباح وجد على عتبته أهم الجرائد اليومية، فيأخذها ويقرأ بعض الأخبار ذات اللغة الإنجليزية السهلة التي تشرحها الصور المعبرة.

وبجانب سريره منضدة عليها أدوات الكتابة من حبر وورق وظروف وأقلام. وفي الجهة اليسرى وضع الكتاب المقدس، وفي الجهة الأخرى وضع مجلد ضخم فيه جميع العناوين الهاتفية التي في المدينة وضواحيها، وبجوار المنضدة كرسي صغير عليه تلفون متصل بعامل اللوكندة، فإذا أراد منه شيئاً أتاه في الحال، وإذا أراد أن يصله برقم تلفون آخر في اللوكنده أو المدينة فعل بسرعة.

وفي اللوكندة صالة كبيرة للأكل، كان يجلس فيها سيد مع مجموعة من الأصدقاء والصديقات الأمريكان لتزجية الوقت والهروب من الملل.

إلا أن هناك مشكلة أساسية في إقامة سيد في نيويورك وهي عدم ملاءمة جوها لصحته المعتلة دوما؛ إذ كان جوها شديد الحرارة صيفاً مشبعاً بالرطوبة المهيجة للأعصاب، وفي الشتاء برودة شديدة تكاد تجمد الدماء في العروق. كما أن هواءها ملوث بدخان عوادم آلاف الاتوموبيلات التي لا تنقطع حركتها ليلاً ولا نهاراً.

وقد قضى سيد الأسبوع الأول من إقامته في نيويورك في نزهة استكشافية نظمتها الإدارة العامة للبعثات في المدينة وما حولها، حيث ظهرت نيويورك بكامل عظمتها وهم يمتطون يختاً يسير فوق النهر، فشاهد الكُبري التاريخي الذي يربط نيويورك ببروكلن brooklyn ، وقد بدا الكبري الذي هو من عجائب الدنيا المعلقة بين السماء والأرض في طول مروع، يتصل بالأرض على قاعدتين قام عليهما عمودان هائلان.. كما لفت انتباهه المصانع والمعامل التي أفشت عن نفسها من خلال مداخنها التي كانت تخترق الجو، وتملؤه بدخانها الكثيف، فكانت المدينة كلها تعج بالمصانع المختلفة التي تظهر بالليل وكأنها كتلة واحدة ملتهبة تتغلغل جذوتها في الجو وتصل أعمدة دخانها إلى عنان السماء.

ومن فوق اليخت المبحر على نهر «هيدسون» Hudson ظهرت جامعة كولومبيا، والمباني الجميلة التي يسكنها سراة القوم.

وعندما ركبوا الأتوبيس واخترق شوارع المدينة وصل إلى آخر شارع برودوي Broadway، فسار بين البساتين اللطيفة حتى وصل إلى المعمل الكيماوي الزراعي للمدينة، فأدهشتْ سيدَ قطب الآنساتُ اللاتي يعملن في التحاليل الكيماوية، ويدرسن النباتات والزهور، وقد بدا على محياهن الجد والنشاط والتصميم، فشعر بالخجل من وقوفه وسط هذا المحفل العلمي الهائل الذي لم يكن يتخيله.

وفي زيارته لجامعة «كورنيل» Cornell التي شيدت عام ١٨٦٥ هاله ألقاب الدكتوراه التي وزعت على مائتين من طلبتها في يوم واحد، ثم ساروا إلى حيث قدم لهم طعام الغداء، وبعد الغداء أخذ الخطباء من كل حدب وصوب، يتكلمون بخليط من لغات شتى، بعبارات ضخمة من التبجيل والتعظيم، شاكرين الجامعة التي تفيض عبقريتها بتلك الأوساط العلمية، وأحزنه أنه لم يتكلم شخص بالنيابة عن مصر في هذا الاحتفال.

ومما لاحظه سيد أن الدكاكين الكبرى والبنوك ليس لها حراس ليلاً، بل لها أجراس أوتوماتيكية فإذا مستها يد إنسان أعطت إنذاراً يتصل بمركز البوليس، فيحضر لوقته ويضبط الواقعة من غير أن يبلغ عنها أحد سوى هذا الصوت.

كما رأى العديد من التجار السوريين، يملكون فنادق ومطاعم وأماكن تجارية، ويعملون في الحرير والسجاد والمطرزات والأواني النحاسية المنقوشة وغير المنقوشة. وللسوريين اليهود بنك اسمه بنك لبنان، كما لهم جريدتان عربيتان هما: « البيان» و «مرآة الغرب» تنقلان الأخبار الدقيقة عن الشرق وعن أمريكا باللغة العربية لمن يعيشون في أمريكا. ومما أعجب سيد في السوريين، في تلك الفترة، ترابطهم القومي ومساعدة من يَفد عليهم من أهل جنسهم، فيمهدون له الطريق للعمل، ويخففون عنه أثقال الغربة حتى يقف على قدميه.

ولأهل نيويورك ولع خاص بالأندية؛ فلكل طائفة منهم أندية يجتمعون إليها وقت فراغهم من أعمالهم، فالطلبة لهم أندية، والعمال لهم أندية، والتجار لهم أندية،

ولكل جالية أندية خاصة بها، فالإنجليز لهم أندية، والفرنسيون لهم أندية.. إلا إن كثيراً من هذه الأندية لا تقبل في عضويتها إلا من كان على درجة من الوجاهة وسعة المال، حتى الطلبة لا يقبلون في أنديتهم الطلبة الفقراء وإن جمعتهم معاً قاعات الدراسة، على الرغم من الديموقراطية التي يدَّعونها ويرفعون عقيرتهم بها.

وهناك العديد من الأندية الخطرة مثل «نادي الإجرام» الذي يجتمع فيه أولئك المجرمون الذين لا قلب لهم ولا رحمة، ويقررون الفتك بالفريسة التي أوقعها حظها العاثر بين أيديهم. كما أن هناك نادياً يطلقون عليه «نادي المنتحرين» يجتمع في هذا النادي كل من وقفت به آماله عن الوصول إلى غايتها من حب، أو زواج، أو ثروة.. وأعضاء هذا النادي يجتمعون من وقت لآخر لعمل القرعة لمن حان دوره للانتحار، حتى وصل من انتحر في نيويورك وحدها ما يقرب من ألف شخص في غضون عام، ثلثهم من النساء والأطفال.

ومما أدهش سيد في مدينة نيويورك عدم وجود مكتبات تبيع الكتب للجمهور كالتي كان يراها في القاهرة تملأ دائرة الأزهر والأوزبكية والظاهر.. فلما استفسر عن ذلك قيل له: "ليس لدى القوم وقت يقرؤون فيه الكتب؛ فكل قديم عندهم لا قيمة له، بل الجديد هو المرغوب فيه، لذلك ترى الجرائد عندهم لها المركز الأول، خصوصاً التي تهتم بشئون المال والصناعة والتجارة.. أما الكتب فيغرم بحيازتها سراة القوم، لا للقراءة، إنما لجعلها ضمن رياش المنزل ليزيده جلالاً وفخامة.

وقد زار سيد مع رفاقه المبتعثين المفوضية المصرية، فاستقبلهم الوزير المفوض «رمسيس بك». ومن الانتقادات التي وجهها سيد أن دار المفوضية المتهالكة لا تليق بها. كما أخذ على المسئولين بخلهم في الإجابة على ما كان يستفسر عنه من المسائل العامة، حتى لكأنها سر من الأسرار السياسية.

وقد بدا الفرق واضحاً بين السفارة المصرية والسفارات الأخرى حيث يوجد في السفارات من الموظفين ما لا يقل عن خمسين موظفاً؛ هذا للسياسة، وذاك

للجرائد، وذاك للزراعة، وغيره للتجارة.. وهكذا لكل شأن من الشؤون موظف خاص به لا يشتغل بغيره، فهو يتقنه ويحيط بجميع تفصيلاته. أما مفوضية مصر فليس فيها غير نفر ثلاثة، تريد من كل واحد منهم أن يكون كاتباً ومحاسباً ومحرراً ومترجماً، فيستعمل نفسه في كل غرض من الأغراض، وفي كل لون من الألوان حسب مقتضيات الأحوال.

٣٧- أكذوبة تحرير العبيد

يرجع الفضل إلى «ويليام»، الخادم الأسود في لوكندة مانجر في إمداد سيد بوفرة من المعلومات عن العبيد في أمريكا، كما يرجع الفضل إليه في تحسين لغة سيد الإنجليزية، وكسر حاجز الخوف الذي يعاني منه بادئ الأمر أيُّ متعلم للغة جديدة. وقد توثقت صداقة دافئة بين سيد وبين هذا الخادم فكان يحادثه كلما أتيحت له فرصة، وكذلك أمده بمعلومات- لا جديد فيها- عن العبيد، فكان يقول:

"عند معاملة الأمريكيين للعبيد لا ينظرون إلى شيء اسمه عواطف، أو رحمة، أو شفقة، أو آداب، أو عدالة.. ففي سكة الحديد جعلوا لنا عربات خاصة، فلا نركب الترام إلا في نهاية عرباته، هذا إن وجدت لنا أماكن فيها.. وحُرِمنا من امتلاك العقارات.. وفي الكنائس لا نجتمع مع البيض لأن لهم كنائسهم الخاصة.. حتى أمام منصة القضاء اذا وقف أبيض وأسود سُمِع كلام الأول، وضرب بكلام الثاني عرض الحائط..

وبلهجة ساخرة ومرارة كان يضيف: لولا الحرب العالمية الثانية لم يتح لي شرف الخدمة في هذا اللوكندة؛ لأن السود كانوا إلى وقت إعلان الحرب يشتغلون في الزراعة، فلما حصل التجنيد افتقرت ولايات الشمال إلى العمالة؛ فانتقل إليها نحو مليون من سود الجنوب يشتغلون في المصانع والفنادق والمطاعم.. "

عموماً، كل هذه المعلومات ذائعة ولا جديد فيها، لكن الجديد الذي ذكره ويليام أن تحرير «إبراهام لنكولن» للعبيد لم يكن عن رغبة في تحريرهم، بقدر ما كان منافسة اقتصادية. ذلك أن العبيد المستجلبين من أواسط أفريقيا لم يستطيعوا مقاومة الطقس البارد في الشمال فنزحوا إلى الجنوب. ومعنى هذا أن يجد المستعمرون في الولايات الجنوبية الأيدي العاملة الرخيصة على حين لا يجدها الشماليون، فتم لهم التفوق الاقتصادي على الشمال؛ فأعلـن الشماليون الحرب على الجنوبيين زاعمين تحرير العبيد!

لقد لاحظ سيد أن موضوع السود والبيض، موضوع حساس، بل هو مركب نقص لا يجوز لغريب أن يمسه بحديث، فمن العسير جداً على نفوسهم أن يمتزجوا مع من كانوا بالأمس القريب عبيداً، اشتروهم بمالهم، فإن كان الزنوج يسعدهم أن يمتزجوا مع البيض، فالبيض لا يسعدهم أن يمتزجوا مع الزنوج.

باختصار فإن مشكلة السود والبيض هي الداء الذي ينغص عليهم عيشهم ولا يعرفون له دواء، فبالعقل يرون شيئاً، وبالشعور يريدون شيئاً آخر، وسيظلون إلى أبد الدهر نهباً بين عقلهم من ناحية وشعورهم من ناحية أخرى.

وقد حدثه وليام عن منظمة "كو كلوكس كلان" تلك المنظمة التي أنشئت لمحاربة المهاجرين والأجانب بصفة عامة، والعبيد بصفة خاصة. وقد وَضعت هذه الجمعية لنفسها قوانين خاصة بين جدران مجتمعاتها السرية، وكثيراً ما كان يتم العثور على أسود غارق في دمه بالليل في أحد شوارع المدينة، من غير أن يُعلم من الذي جنى عليه هذه الجناية. فأصبحت القلوب في فزع مستديم من هذه الفئة السرية التي لا يُعلم حقيقتها، وكان لهم لباس يغطي الجسم كله لا يظهر منه غير أعينهم، يلتحفون به في مظاهراتهم ليوقعوا الرعب في قلوب من يراهم، وشعارهم أمريكا للأمريكيين.

على أي حال، في بداية سفر سيد إلى أمريكا كانت له ملاحظات معتدلة عن الشعب الأمريكي فكان يقول: "الرجل الأمريكي عالَم غريب في جميع أطواره، فهو عالَم وحده في طبيعته وعقليته وأنظمته، لا يعرف للحياة معنى غير العمل والكسب، ولا يعرف للعمل صفة غير النظام والدقة، لا تقف همته عند شيء اسمه القناعة؛ فكل عمل يسلم لعمل هو أكبر منه. ومن صفته العناية بجميع الأعمال صغيرها وكبيرها، ويهتم بالقيام بمواعيده في نفس الدقيقة التي حددها، ويحافظ على زمنه حفاظه على حياته، وإذا تكلم في التليفون تكلم بسرعة هائلة لا يضيع معها ثانية واحدة ليست ضرورية في العمل، واذا توقفت سيارته في طريق عمله تركها إلى غيرها.

والرجل الأمريكي ليست للعاطفة من سبيل إلى قلبه. واذا وُجد عنده شيء من العاطفة ففي أخس درجاتها، والفرق بينه وبين الرجل الشرقي في تأثير العاطفة: أنها لا سلطان لها عليه إلا اذا فرغ من عمله، ولها كل التأثير على الرجل الشرقي حتى وهو بين براثين الخطر، كما قال عنترة:

ولقد ذكرتُكِ والرماحُ نواهلٌ مِنِّي، وبِيضُ الهند تقطر من دمي

وكلما سمع سيد هذا البيت ضحك بملء فيه؛ لأن شيخ قريتهم الشيخ أحمد كان ينشده هكذا:

ولقد ذكرتكِ والحمارُ معاندي وسط الشريطِ وقد أتى الوابورُ

ولسوف يضحك بملء فيه مرة أخرى، بعد هذا اليوم بخمس سنوات، في السجن الحربي، بعد سماعه أحد الظرفاء، وقد نال علقة ساخنة من العساكر، ينشد هذا الشعر فيقول:

ولقد ذكرتكِ والجنودُ تعجّني وسط العنابرِ بالعصا يا سوسو

وبالجملة فإن الرجل الأمريكي لا يتقيد بشيء اسمه «النظام الاجتماعي. فلا يقيد نفسه بلباس السهرة في الاجتماعات الليلية، وتراهم في المسرح وقد جلس صاحب الاسموكن بجوار صاحب اللباس الأزرق أو الأحمر أو الرمادي. وكثيراً ما ترى الشخص وخصوصاً الشباب يلبس القميص على جلده مباشرة من غير ياقة، وأكمامه مشمرة إلى ما فوق الساعد، وكان أصل هذه العادة شدة الحر، ثم أصبحت رمزاً للقوة والفتوة.

أما المرأة فلا ترى نفسها أقل من الرجل في حقوقه المدنية، فهي تتشبه به في كلامه وهندامه، وتعمل معه في المصانع والمعامل والمحال التجارية والإدارات المختلفة، وتمشي معه كتفاً لكتف في الألعاب الرياضية، وتسير بمفردها حيث شاءت ليلاً ونهاراً؛ تدخل المطاعم والمسارح، وتركب الترامويات والتكسيات، وتلبس اللباس الرياضي (اسبور) وهو بنطلون إلى الركبة، وجاكيتة فتحتها إلى الرقبة، ولا أدري إذا كان ذلك فاتحة إلى لبس البنطلون الطويل تشبهاً بالرجل في ذلك؟

والمرأة الأمريكية لا عاطفة لها: فتراها وسط المعارك، وتراها أمام منصة القضاء تترافع وتخطب، وفي المستشفيات تداوي الأمراض، وتبتر الأعضاء، وفي المصانع تشتغل بالحديد والنار ، وقلما تفكر في الزواج لميلها إلى الحرية المطلقة.

ولقد رأينا صدق ملاحظة سيد قطب في انعدام عاطفة المرأة الأمريكية في وقتنا الحاضر من خلال مشاهدتنا حياة الحيوانات المفترسة في الغابات، فنعجب لمن يصورون هذه المشاهد كيف لا تخالط قلوبهم الرحمة لهذا المخلوق الضعيف الذي وقع بين أنياب الأسود، ونزداد عجباً عندما نسمع صوت امرأة ضمن طاقم التصوير، تستمتع بهذا الافتراس. وفي غالب الأحايين تجد هذا الطاقم هو الذي زج بالثور المسكين ليقع ضحية لهذه الأسود المفترسة دون أن يرف لهم طرف، أو يخفق لهم قلب.

ويواصل سيد ملاحظته قائلا: وبالجملة فالأمريكيون لديهم افتخار ومبالغة في كل شيء، فتجدهم تكثر على ألسنتهم عندما يتكلمون عن أي شيء في أمريكا، كلمة "في العالم" in the world فيقولون: هذا أفضل شيء في العالم، أو أحسن شيء في العالم، أو أكبر بناء في العالم؛ والعالم يقصدون به أمريكا. فالأمريكي يجهل العالم الخارجي جهلاً عجيباً، ولا يعطي من وقته للأنباء الخارجية عند قراءته للصحف سوى دقيقتين فقط، واهتمامه مقصور إلى حد كبير على البيئة المحلية القريبة، فيُعْنى القارئ أكثر ما يُعنى بشئون الولاية التي يعيش فيها، ولقد عجب سيد من مدى النزعة الإقليمية بينهم، ففي كولمبيا مثلاً لا يكاد يقرأ قارئ واحد أي صحيفة غير الصحيفة المحلية التي تصدر في كولمبيا..

كما يفتخرون بمصانعهم الضخمة وجامعاتهم الفخمة، فيقولون إذا كانت القرون الوسطى قد شيدت الكنائس الفاخرة، فإننا قد شيدنا الجامعات العظمى والمصانع الضخمة. والأمريكيون يبالغون في الإعلانات عن بضائعهم، فإذا فتحت الراديو فسوف تجد بعد كل إذاعة تستغرق خمس دقائق يذاع إعلان تجاري، فتجد الإعلان يتخلل الأحاديث والغناء والموسيقى، فلا يمكن أن تفتح الراديو وتستمع بإذاعة متصلة في موضوع واحد مدة نصف ساعة مثلاً.

وقد رأينا ولع الأمريكيين بالدعايات في كتبهم التي يخصصون مقدماتها للدعاية للكتاب بأنه سوف يحل مشاكل العالم، وأن مؤلف الكتاب وحده الذي عنده المفتاح الذي يستطيع في يسر أن يفتح مغاليق الأسرار؛ فهو الدواء الشافي لجميع الأدواء، وهو العلاج الذي لا بد مبرئ أمراض العصر كلها!

٣٨ - بدائية الشعب الأمريكي

على أي حال، في بداية الأمر، كان سيد يتحلى بروح الدعابة والسخرية في تعامله مع الأمريكيين، وقد يشفق عليهم أحياناً ويرثى لحالهم أحياناً أخرى، فكان

عندما يجلس مع بعض أصدقائه في بهو الفندق ويرى بدائيتهم في الطعام؛ كأن يأكلوا اللحم المملح مع البازلاء المُسَكَّرة، أو يشربوا مرقة العجل المطبوخة بالسمن والخل والدقيق والتفاح والملح والفلفل والسكر.. عندما يرى ذلك يقول متفكهاً: نحن في مصر نضع السكر على البطيخ، وفي اليوم التالي يقول نحن نضع الفلفل الحار على البطيخ، فيسارعون إلى فعل ذلك ويستطعمونه ويعجبون به!

إذن الأمريكيون بدائيون في كل شيء: في الملابس الفاقعة الألوان، الخالية من تناسق اللون ورهافة الذوق، في الطعام الخالي من جمال الإعداد وتناسق الطعم، فقط هم ينظرون إلى المنفعة الحسية من وراء أي شيء. هذه هي الفكرة التي سيطرت على سيد في تلك الأثناء وأصبح يراها في كل تصرف وفعل للأمريكيين، وأصبحت الأمور تتكشف له حيناً بعد حين، وتزداد الفكرة وضوحاً في ذهنه وإشراقاً في نفسه.

ومما لاحظه سيد عن الرجل الأمريكي مسارعته إلى نسبة نفسه إلى أصله الأوربي، فيقول إنه إنجليزي أو ألماني أو إسباني الخ، وكأنه بهذا يريد التبرؤ من صفة الهمجية والبدائية المنسوبتين إلى الفرد الأمريكي.

أما انطباعاته عن مدينة نيويورك فهي بمثابة دكان كبير زاخر بالمعروضات يدب فيه النشاط والحركة والبيع والشراء كأنها أجواء عيد. ونيويورك مدينة فريدة في تصميمها؛ إنها مدينة لا تكاد تقع عينك فيها على شيء قديم، كأنها شيدتْ بالأمس القريب، ولم يمض عليها في الحياة إلا زمن قصير، لهذا لا تحس فيها بجلال التاريخ.. فأنت تتحرك فيها من شارع إلى شارع فيكون انتقالك من مكان إلى مكان، لكنك لا تنتقل من زمن إلى زمن كما تفعل عندما تكون في القاهرة، فتنتقل، مثلاً، من مصر القديمة إلى مصر الجديدة، أو من حي الحسين إلى الزمالك.

الغريب أن شوارع نيويورك بين ناطحات السحاب تبدو ضيقة، فهي تضيق الصدر ولا تشرحه؛ فيشعر الإنسان وهو سائر بين هذه الناطحات بأنه تافه ضئيل

أمام هذه العمائر العالية.. هذا هو الشعور الدفين في نفس الفرد الأمريكي؛ فهو على اعتزازه بفرديته وشخصيته يخشى على نفسه أن يُصهَر ويطحن أمام جبروت هذه الأعمال الضخمة والمباني الكبيرة. ذلك ظاهر من فرحة الناس التي لا تنقطع برؤية الأفلام السينمائية الكرتونية، التي تضع الفأر الضئيل في خطر الافتراس من القط الكبير، لكن الفأر ينجو بنفسه أخيراً. فرحة الناس بهذا المعنى المكرر في أفلامهم، تعكس ما هو دفين في نفوسهم من خوفهم من فتك الجبار العظيم بالتافه الحقير. والجبروت هو جبروت الناطحات، والتافه هو الفرد الذي يمشي في الشوارع بين هذه الشوامخ.

هناك تجلت في ذهن سيد وفكره أكثر وأكثر بدائية الشعب الأمريكي؛ فالعمارة في نيويورك رائدها المنفعة لا الجمال؛ فليس في بنائها الظاهر زخرف ولا نقش ولا بروز ولا انحناء، إنما هي خطوط مستقيمة عالية تبرز منها ثقوب هي النوافذ، وكل نافذة منها هي غرفة.. إن الغرض المقصود من الناطحات هو المنفعة، على حين كان الغرض المقصود من العمائر في مدن أخرى هو الجمال.

***

في نوفمبر ١٩٤٩ ذهب سيد لحضور محاضرة في جامعة هارفارد في أسبوع يسمونه "أسبوع الاهتمام بالدين". لاحظ سيد أن بعض الجامعات بدأت تستضيف متخصصين في الدين يتكلمون عن وجوب تكوين جمعيات دينية بين أساتذة الجامعات، بحيث تكون ميادين أبحاثهم منصبة على إبراز التوافق بين الأبحاث العلمية والديانة المسيحية؛ فيوفق كل من عالم الطبيعة وعالم الكيمياء وعالم النبات بين نتائج بحثه العلمي وبين ما ورد في الإنجيل!

وكان قد تم تأسيس "جمعية الأساتذة المسيحيين في الجامعات" من شهور قلائل، واقترح أحد المحاضرين ضرورة النظر في إدخال التعليم الديني في مناهج الجامعات، مهما تكن الكلية ونوع دراستها طباً كانت أو هندسة أو فلسفة.

رفع سيد يده واعترض على شيء ذكره المحاضر الجامعي، لكن سيد استفزه وأثار حنقه ردُّ سيدة كانت تجلس على مقربة منه عندما قالت: إنكم تعتبرون قصة ألف ليلة وليلة بما فيها من شهوات جنسية قصيدة الإسلام الكبرى!

نظر سيد إليها نظرة شزراء، لكنه تدارك نفسه وحاول أن يلطف انفعاله ونظراته بابتسامة متكلفة. بعدما انتهت المحاضرة حاولت السيدة أن تفتح معه حواراً وتقدم له اعتذاراً؛ فعرف أن اسمها "راشيل" وهي تدرس في هذه الجامعة. لكن ليس هذا كل شيء.

٣٩- الفن الأمريكي

في ديسمبر ١٩٤٩ ذهب سيد إلى متحف للفن الحديث؛ لم يكن البناء ملفتاً للنظر بفخامة أو جمال. كان البناء بسيطاً غاية البساطة؛ الجدران والسقوف كلها بيضاء ساذجة البياض، فلا زخرفة ولا نقش؛ والغرف يفتح بعضها على بعض من غير أبواب خشبية، والأرض بلاط منقوط بغير غطاء، والمقاعد كنبات بسيطة في أواسط الغرف. في تلك اللحظة تجلت له بدائية الشعب الأمريكي على أوجها.

طاف سيد بالمتحف مسرعاً بعض الشيء يريد أن يلقي نظرة سريعة تدله على الفنانين جميعاً؛ تبين له أنهم يرسمون لوحاتهم في جو المدرسة الحديثة التي تراعي البناء اللوني في الصورة أكثر من أي شيء آخر، كانت ألوان الصور صارخة مثل ألوان ملابسهم، ومثل ألوان أطعمتهم، التي هي أقرب إلى البدائية. بعدما درس الصور على مهل؛ وجدها كلها ذات طابع واحد؛ كان الإنسان يبدو ضئيلاً صغير

الحجم في وسط الصورة، لا قيمة للإنسان أو المشاعر أو القيم النبيلة، لكنه وقف عند صورة اسمها « الأسرة» رسمت على هيئة خليط متداخل من جلود الثعابين، لا تتبين فيها شيئاً بذاته أبداً، فإذا ما بعدت عنها تبين لك في خفوت واختلاط صورة رجل نام على جنبه متكئاً على ذراعه وهو عاري الجسد، وامرأة نامت في نفس الوضع تقريباً من الناحية المضادة، بحيث يكون رأس كل منهما في طرف من طرفي الصورة يميناً وشمالاً، وعند تلاقى جسديهما في الجزء الأوسط صورة طفل.

تلك هي نظرتهم إلى حقيقة الأسرة؛ فقط اتصالٌ عارٍ نفعي، بين رجل وامرأة ينتج طفلاً!

أدرك سيد بأن الأمريكيين لم ينشئوا فناً خاصاً بهم، إنهم تابعون للاتجاهات الفنية الأوروبية، فالفن لا يتغلغل عميقاً في حياة الإنسان الأمريكي؛ إنهم يضيفون الفن إلى حياتهم إضافة من خارجهم دون أن تمس منهم صميم القلب، فترى الرجل منهم قد أثرى وجمع الملايين، دون أن يعيش حياة فيها التفات جاد إلى الفن، ثم تراه يشتري بكذا مليون صورة أو تمثالاً يهديها إلى هذا المتحف أو ذاك، كأنما يكفر بهذا عن خطيئة افتقاره للفن في حياته؛ إنهم يحاولون أن يخلقوا لهم جذوراً وأصالة مثلما حدث في نيويورك، عندما جاءوا بجدران كنيسة وسقوفها وسائر أجزائها من مواضع مختلفة بأوروبا، وأقاموها على أرضهم ليكون لهم كما للبلاد القديمة أثر قديم! وكما تم شراء دير قديم من إسبانيا، من قبل ثري أمريكي، ونقله إلى فلوريدا، بعد أن فككت أجزاؤه حجراً حجراً ونقلت وأعيد بناؤها، ثم جعلت متحفاً يدخل إليه الزائرون بأجر معلوم ليستعيد الثري ماله وزيادة.. هكذا الفن في أمريكا يشتري أكثر مما ينتج. ويجتلب بالجملة كأنه سلعة من السلع التي تباع في أسواق الجملة.

هذا بالإضافة إلى أن الشعب الأمريكي شعب منبسط وليس هو بالمنطوي على نفسه؛ فانبساطه النفسي يخرجه من حدود نفسه، ومن ثم يكون رجل أعمال ولا

يكون فناناً؛ ويكون مخترعاً، ولا يكون رساماً أو نحاتاً؛ فالأمريكي مشغول بالمغامرة والكشف خارج نفسه، وليس هناك ما يدعوه إلى الانطواء على دخيلة نفسه، والتأمل في ذاته.

كل هذه الأفكار والخواطر كانت تتوارد إلى سيد وهو جالس يستريح من التعب على كرسي في بهو المتحف. وفي تلك اللحظة مرت مجموعة كبيرة من الطالبات، كل منهن تحمل لنفسها مقعداً، ومعهن سيدة أكبر منهن سناً. أخذتْ الفتيات يحْدثن ضجة حين مررن بالغرفة التي يجلس فيها، حتى إذا ما غادرنها نظر إلى السيدة التي كانت في نحو الثلاثين من عمرها، إنها هي "راشيل" التي قالت له الجملة المستفزة في المحاضرة..

كثيرون قالوا إن تعارف راشيل مع سيد كان مدبراً من أوله إلى آخره. أنا كذلك ربما أميل إلى هذا الرأي أحياناً. لكن لندع التعجل في الحكم على الأمور حتى تتكشف لنا الأحداث من تلقاء نفسها.

عموماً، لقد كانت راشيل في هذا اليوم مرحة بدرجة ملحوظة، كانت اليوم أميل إلى الجمال كثيراً، وعلى ملامحها علامات الثقافة، وفي عينيها بريق جذاب، فقالت: ما رأيك في جماعة من الناس تمر في متحف من المفترض أن يكون هادئاً صامتاً، فيحدثن مثل هذا الضجيج؟

قال سيد وقد سرت في روحه انتعاشة مفاجئة:

لولا أنك امرأة لقلت لك: ماذا تتوقعين من مجموعة من النساء إلا الصخب والضجيج؟

ردت راشيل، وفي عينيها لمعة تشجع على التفكه في الحديث:

قلها ولا تبال، فإني أقولها معك!

بعد لحظة نظرت راشيل إلى صورة تمثال معروض فقالت: أنا مفتونة بالفن المصري، انظر إلى هذا الانسياب في نحت التمثال!

قال لها سيد: ربما ازددتِ رفقاً بالفن المصري حين تعلمين أن من تحدثينه الآن مصري!..

رفعت راشيل حاجباها في دهش وقالت متفكهة:

إنها المرة الثانية التي أرى فيها مصرياً، أما المرة الأولى فكانت كليوباترة!

اهتم كل منهما بالآخر، وعَرّفتْ راشيل عن نفسها بأنها من أهل نيويورك، تخرجت في الجامعة، وحصلت على درجة جامعية في الموسيقى والفنون؛ وهي تدرس الآن دراسات عليا.

بدأت تتوثق علاقة صداقة قوية بين سيد وراشيل. كانت راشيل ذات شعر أحمر، جذابة الحديث، فتية، ذات طلعة ناعمة، وعينين زرقاوين، تتمتع بموهبة كبيرة باعتراف الجميع، وكان يدور بينها وبين سيد عراك صامت؛ كل منهما يحاول السيطرة على الآخر ليجذبه إلى معتقده، دون أن يصرح بذلك، وكان سيد أحياناً يستغرق في الصراحة دونما حذر، وفي لحظات أخرى يحاول أن يكون غامضاً فيراوغ، وأحياناً يكون جريئاً إلى حد التهور، ومع ذلك يتظاهر بالانفتاح والاستعداد لقبول آرائها وأفكارها إن اقتنع بها، وشخص مثل هذا ستكون حياته صعبة في ظل هذه الشروط، وسيخلق لنفسه الكثير من الأعداء.

في هذه الليلة حضر مع راشيل رواية تمثيلية في مسرح «زيجفلد» مستمدة من حكايات ألف ليلة وليلة؛ وهي رواية من فصلين، كان الفصل الأول يبدأ من ساعة الفجر إلى ساعة الغروب، فبدأ من المسجد عند أذان الفجر إلى السوق في ساعة الضحى، إلى مناظر في حديقة قصر الوزير؛ وأما الفصل الثاني فبدأت مناظره من الغروب إلى الفجر، أغلبه « حريم » تم تقديمه على أنه حياة الوزراء والخلفاء في الإسلام.. المناظر كلها تنقلك إلى جو من الأحلام؛ يسلبك عقلك ووعيك و

يتركك سائحاً في حلم، إنها تنقلك بقفزة واحدة قروناً إلى الوراء، فتجد نفسك غارقاً في عبق التاريخ..

لكن هذا الجمال وهذه الفتنة اللتان أغرقتا سيد في حلم للحظات جعلتاه يستيقظ محزون الفؤاد، مغموم النفس، ضيق الصدر. فكم مرة ذُكِر القرآن بسخرية؛ وكم مرة ذكر الإسلام في ازدراء؛ وكم مرة ذكر محمد صلى الله عليه وسلم في استخفاف وتحقير؟.. كيف جعلوا الوزير المسلم لا يتصرف إلا كالأبله المجنون؟ وكيف جعلوا الخليفة لا يتكلم إلا كما يتكلم المجاذيب بغير عقل؟

لقد كان في وسط هذا الجمال كله من مناظر وغناء وموسيقى، ووسط هذا السحر كله من أضواء وظلال تتعاقب وتتغير في لطف ودقة وفن، إلى درجة لم يكن يتصورها في الإخراج المسرحي- لقد كان في وسط هذا كله يعاوده الألم الممض مما يرى ويسمع، حتى أوشك أن يهب واقفاً وسط المسرح صائحاً: أيها الأفاكون المخادعون لماذا تنظرون إلى الإسلام وإلى القرآن و إلى محمد صلى الله عليه وسلم هذه النظرة الخبيثة السيئة؟ لماذا تستخدمون كل هذا الإخراج الفني البديع لتسحروا أنفس ملايين البشر وتغسلوا أدمغتهم!

كم ألف ألف خطبة وخطبة، وكم ألف ألف مقالة ومقالة، وكم ألف ألف رجل ورجل تحتاجه تلك اللحظة لتزيل من أذهان الأمريكيين أثر هذه المسرحية السيئة؟! لقد خرج الناس من المسرح مأسورين مبهورين مفتونين، وخرج سيد محزوناً مغموماً مكروباً. وبقي حبيس غرفته لأيام لا يغادرها.

٤٠- الأمريكيون والاسلام

كان الجو رائعاً في هذا اليوم، فالسماء أصفى من البلور، والشمس ناصعة الضياء، فخاف سيد أن يضيع هذا الجو وهو حبيس غرفته. وقف أمام المرآة

الكبيرة، وقال لصورته: أنت في أمريكا والجو رائع، فكيف تظل حبيس غرفتك؟ خرج يخبط في الشوارع مشياً كيفما اتفق.. كان اليوم الأحد، والشوارع خالية من السابلة، والبيوت مقفلة على أصحابها، والدكاكين مغلقة على بضائعها.. مشى نصف ساعة أو نحوها، في هذا الجو الجميل الرائع بشمسه المشرقة، وسمائه الصافية، وبرده الخفيف الذي يعين على المشي ولا يرهق الجسم، لكن سيد عاد إلى غرفته ثقيل القلب، محزون الفؤاد، ولم يدر لهذا الغم سبباً، فلماذا تكون الشمس مشرقة والنفس غائمة؟ إنه يشعر بضيق شديد، ويشعر بوحشة وعزلة، فقام وأعد لنفسه قدحاً من الشاي، فتحسن مزاجه بعض الشيء، لكنه بقي قلقاً لا تستقر به جلسة ولا رقدة..

كان مما آذى سيد سخرية الأمريكيين وتهكمهم من العرب وقلبهم للحقائق بشكل متعمد، من خلال ما تنشره صحفهم ومجلاتهم من الأخبار الملفقة، فقد نشرت مجلة "پوست" مقالاً بعنوان: «أغرب سكة حديدية على وجه الأرض»؛ يقصد بها الخط الحديدي في شبه الجزيرة العربية، حيث راح الكاتب يصف كيف يقف القطار في وسط الطريق ليؤدي المسافرون الصلاة؛ وكيف «يفاصل» الركاب في أثمان التذاكر؛ فالعامل في شباك التذاكر يقول: إن ثمن التذكرة تسعة وعشرون ريالاً، فيقول الأعرابي: بل خمسة عشر؛ ويصرّ عامل التذاكر على أنها تسعة وعشرون، فيقول الأعرابي، فلنجعلها ثمانية عشر؛ فيؤكد العامل حالفاً بالله أن التذكرة لا يقل ثمنها عن تسعة وعشرين ريالاً، فيأخذ الأعرابي في عد نقوده، حتى إذا ما قرب من النهاية، تمهل في العد لعل عامل التذاكر يتهاون قليلاً في إصراره. وتقول المجلة بأن الأعرابي لا يطمئن أبداً أن يسلم صندوقه لعمال القطار نظير إيصال من الورق لا يساوي عنده شيئاً؛ وتراه في المحطة يجرى وراء صندوقه، يريد أن يكون معه حيث يكون؛ فإن كان الصندوق في عربة البضائع فهو يريد أن يركب هناك، لكن ناظر المحطة يصيح فيه بأن ذلك مستحيل عليه؛ فيقول الأعرابي: إذن آخذ أمتعتي معي في عربة الركاب. ويزعم المقال أن أعراباً كثيرين ينامون ليلاً على

القضبان، متخذين من القضبان وسائدهم لأنها تكون باردة في قيظ الصحراء، فيأتي القطار وقد يقتل منهم واحداً أو أكثر، لولا حذر السائق الشديد، لأنه لو قتل نائماً في الطريق تعرض للثأر..

ثم يعرض الكاتب عرضاً ساخراً للطريقة التي يحكم بها القاضي في أمثال هذه الحالات؛ إذْ يجلس القاضي والقرآن على رأسه، فيقول إن الحادث إذا وقع بين متحرك وساكن كان المتحرك هو المسئول، وعلى هذا الاعتبار يحكم القاضي ضد سائق القطار؛ ومبدأ آخر هو أن الحادث إذا وقع بين متحركين فالتبعة واقعة على أسرعهما حركة، وعلى هذا الاعتبار حكم القاضي في قضية دهس القطار لجمل بإدانة السائق؛ ومبدأ ثالث هو أنه إذا وقع الحادث بين سبب ومسبب، فالسبب دائماً هو المسئول، وعلى هذا الاعتبار كانت إدارة السكة الحديدية مسئولة عن كل حادث مهما كانت ظروفه..

والعجيب أن الأمريكيين يجهلون العقيدة الإسلامية جهلاً تاماً، فإذا اجتمع سيد ببعضهم سألوه عن عقيدته الدينية وإلى أي كنيسة ينتمي؟ فإذا أخبرهم بأنه مسلم، لم يفهموا معنى كلمة مسلم، فيقولون لم نسمع بكلمة مسلم هذه "لعلك تكون محمدياً"؟ فهم يسمون الإسلام بالمحمدية؛ لأنهم يعتقدون أنه عقيدة أنشأها رجل بدون وحي من الله، ويعتقدون أن الرجل المحمدي له زوجات كثيرات تركهن وراءه في حريمه في الشرق! إنهم يظنون بالإسلام شر الظنون فهو عندهم وثنية أو شر من الوثنية، وهو عندهم همجية أو شر من الهمجية..

أما مصر فإنهم يجهلونها جهالة تامة، ولا يعرفون منها إلا قناة السويس، ودائما يسألون هل تقع مصر في المنطقة الأفريقية التي بها ذباب تسي تسي؟

***

جاءته راشيل في الصباح لتأخذ سيد إلى مدرسة الأحد في الكنيسة، كان ضباب الصبح الكثيف يحول دون الرؤية؛ لكن ما هي إلا لحظات حتى طلعت الشمس وانجاب الضباب، وأصبح النهار مشرقاً كالبلور الصافي. في الكنيسة اجتمع الأطفال في أعمار مختلفة يتلقون دروساً في المسيحية. كانت راشيل متطوعة للتدريس في الكنيسة أيام الأحد، وأرادت أن تقدم سيداً للأطفال كنموذج لرجل جاء من أرض الإنجيل أو ما يجاورها.. كان الأطفال في فصول دراسية ملحقة ببناء الكنيسة، بها فناء واسع للَّعب يمتلئ بالكرات والعرائس والمجلات..

وقفت راشيل أمام ثلاثين طفلاً، وأعلنت أن معها زائراً جاء من مصر القريبة من أرض الإنجيل، وبدأ مدرس يعرض الصور بالفانوس السحري[١٩] عن القدس وتل أبيب ويافا وغيرها من بلاد فلسطين.. كانت الصور منتقاة بعناية بحيث تعرض التقدم والمدنية في المناطق اليهودية، وتعرض الفقر والتخلف في المناطق العربية، ثم عرض المدرس صورة بوابة في القدس أسماها «البوابة الذهبية» وقال لهم إن هذه البوابة مغلقة، أغلقها المسلمون، وهم يزعمون أن الوادي الذي ينتهي إلى هذه البوابة مشدود فيه سلك رفيع، سوف يمشي عليه الناس يوم القيامة، وعندئذ ستنفتح البوابة لمن يستطيع الوصول..

أثارت هذه القصة اهتمام الأطفال، وأخذوا يسألونه: أين هو السلك؟ هل مشى أحد على السلك؟ من الذي أغلق البوابة؟ وكيف ستفتح البوابة حين يحين وقت فتحها؟

كان المدرس يرد على أسئلتهم بقوله: هذه عقيدة المسلمين وعلينا أن نحترم عقائد الناس؛ ثم أخيراً قال لهم: مهما يكن من أمر هذه القصة فنحن باعتبارنا مسيحيين لا شأن لنا بها؛ وكل ما يجوز لنا أن نقوله إزاءها هو أنها عقيدة المسلمين، وأننا نحترم عقائد الناس لكننا لا نلتزم بها.

---

[١٩] الفانوس السحرى Magic lantern هو نوع مبكر من أجهزة عرض الصور يعرض صوراً مرسومة أو مطبوعة أو صوراً فوتوغرافية على ألواح شفافة. تم استخدامه في القرن السابع عشر وحتى منتصف القرن العشرين، ثم تم استبداله بجهاز عرض الشرائح.

فلما انتهى من عرض صوره قال لهم: ربما تفضل زائرنا بالتحدث إليكم. وقف سيد وقال لهم: ما دامت قصة السلك قد أثارت اهتمامكم فأحب أن أقول لكم لا يوجد في تلك البوابة سلك ولا يحزنون؛ إنما السير على سلك رفيع أو ما شابه ذلك، يراد به الرمز إلى العمل الصالح، وانفتاح البوابة لمن يستطيع الوصول رمز لدخول الجنة جزاء العمل الصالح؛ فالعمل الصالح كثيراً ما يكون عسيراً؛ لأن الإنسان لا بد أن يقاوم شهواته ورغباته، لذلك شُبِّه بالمشي على السلك الرفيع؛ وهذا شبيه جداً بما قاله المسيح في الإنجيل: (اجتهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق؛ فإني أقول لكم إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون. ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذي يؤدي إلى الحياة، و قليلون هم الذين يجدونه)[٢٠].

دهش الحاضرون من إجابة سيد وسرعة بديهته، ثم أخذ الأطفال بعد ذلك يمطرونه بأسئلة عن مصر والهرم وأبي الهول والجِمال والصحراء وأوراق البردي ومقابر الفراعنة..

ثم جاءه مدرس يلح عليه أن يصعد معه إلى الطابق العلوي ليتحدث إلى تلاميذه، فصعد معه. كانت أعمارهم بين الثالثة عشرة والخامسة عشرة، وقد علم أن هؤلاء يُعَدَّون لمهمة التبشير. كانوا ستة أولاد وأربع بنات؛ أما البنات فقد جلسن هادئات في ركن من الغرفة، وأما الأولاد فكانوا شرذمة من المجرمين! جلسوا جلسة فيها كثير من الشذوذ والتحدي. وقف سيد أمامهم وابتسم، وتساءل في نفسه: أي نبات يا ترى سيخرج من هذه البذور؟ إنهم فريق من الأطفال المشردين الذين بدأوا حياتهم بالجريمة، وسوف تنتهي حياتهم بالجريمة كما بدأتْ.

انتهى الاجتماع، وكان لكلمة سيد وقع عميق في نفوس السامعين، ظهر في نظرات الدهشة وفي تحية الإعجاب التي حيَّوه بها عند انصرافه.

---

[٢٠] إنجيل لوقا ١٣/ ٢٤، ومتى ٧/ ١٤

٤١- احتقار

بعد أيام من مشاهدة العرض المسرحي دعته راشيل لتناول الطعام في منزلهم مع شخص قدمته إليه على إنه والدها، وقبل البدء في الطعام شبك الرجل يديه وطأطأ رأسه، ثم قال عبارة أدرك سيد أنه أعدها خصيصاً من أجله؛ قال "أشكرك يا رب على ما أمامنا من طعام، وأدعوك يا رب أن تعطي كل محروم مثل ما عندنا من طعام.. أشكرك يا رب على أن جعلت لنا هذه البلاد وطناً نتمتع فيه بالحرية والديمقراطية؛ وأدعوك يا رب أن تهب البلاد التي لا تتمتع بمثل هذه الحرية مثل ما وهبتنا..".

وبعد تناول الغداء جلسوا في مكتبة البيت الهادئة التي بدت وكأنها مكتبة أثرية، واختفت راشيل متذرعة بالانشغال بترتيب بعض الأشياء في البيت، فأصابت سيد الدهشة والذهول عندما امتدت يد الرجل إلى رف من رفوف المكتبة وأخرج كتاب سيد قطب "العدالة الاجتماعية في الاسلام".

وبعد حديث طويل دعاه الرجل إلى أن يتعاون مع الأمريكان، وعرض عليه أموالاً طائلة لترجمة الكتاب وافتتاح دار نشر، وقدم له عروضاً مغرية كثيرة حتى يكون أحد الذين يسيرون في فلك الأمريكيين، لكنه رفض ذلك بشدة، وكان سيد يرى فيما بعد- كما ذكر علي عشماوي في مذكراته- أن السبب الرئيسي في القبض عليه عام ١٩٥٤والحكم عليه بعشر سنوات: رفضه التجنيد لصالح الأمريكان، فكان هذا أحد أنواع الانتقام التي حدثت ضده".

هكذا إذن، لقد امتعض سيد عند سماعه هذه الكلمات، وود لو يفرُّ من هذا المكان الذي عزم على ألا يعود إليه أبداً. ومع ذلك ظلت علاقته مع راشيل كأن لم يصبها شيء، مع أن أساسها كان قد تداعى منتظراً العاصفة القوية التي تكتسحه من أساسه وتهوي به رأساً على عقب. وجاءت العاصفة بعد يومين أو ثلاثة حينما دعته راشيل لزيارة الكنيسة التي تتبعها.

قبل دخول سيد إلى مكان الاجتماع صباح يوم الأحد وضعت راشيل على صدره شارة حمراء كبيرة، حتى يعرف الجميع أنه مجرد زائر وليس عضواً من أعضاء كنيستهم..

قادته راشيل إلى مكان متقدم حيث جلست بجانبه. بدت قاعة الكنيسة واسعة، وقد تناثرت في المكان عدة لمبات كهربائية مضاءة، وبدأت الأناشيد الدينية تصدح من فرقة موسيقية تأخذ مكانها في دور علوي بنهاية القاعة الكبيرة، عندما ظهر رئيس الكنيسة على خشبة المسرح.

وألقى رئيس الكنيسة موعظته بعد قراءة عدة أسطر من أحد أسفار التوراة- وليس الإنجيل- واستمع سيد إلى كلماته وتعبيراته، فتملكته الدهشة. وبعدما انتهت شعائر الصلاة سألته راشيل عن رأيه فيما شاهد وسمع، فقال لها سيد ببساطته المعهودة: "إن رئيس كنيستهم يهودي وليس مسيحياً".

أبلغت راشيل رئيس الكنيسة بما قاله سيد. وكان سيد يتوقع أن يطلب رئيس الكنيسة لقاءه ليسأله عن أسباب وصفه بأنه يهودي وليس مسيحياً؛ لأن رئيس كنيسة مسيحية ينبغي أن يكون مسيحياً، لكن المفاجأة كانت بأن رئيس الكنيسة طلب من راشيل قطع علاقتها بسيد ولم تقابله بعد ذلك مرة أخرى!.

وإمعاناً في النكاية في تلك الليلة، حدثت حادثة مستفزة أخرى؛ فبينما سيد جالس في غرفته بالفندق يسترجع أحداث هذا النهار، سمع دقاً شديداً على باب الغرفة المجاورة لغرفته، وسمع نداءً عالياً؛ ثم تحول الدق إلى باب غرفته، فقام وفتح الباب، وكان إذ ذاك يرتدي البيجاما، وإذ به إزاء ثلاثة رجال في حالة من المرح الشديد، فلما رأوْه صاحوا: ها أنت ذا يا "جو"! وأخذوا يجذبونه من يده جذباً لم يقو على مقاومته، فجعل يأمرهم بامتعاض أن يتركوه، لكنهم مضوا في جذبه قائلين: تعال هنا يا جو، حتى أخرجوه أمام غرفته، ولما رأوا على وجهه

أمارات الانقباض والامتعاض، تركوه قائلين: الظاهر ليس له نصيب في حياة المرح..

عاد سيد إلى غرفته وأقفلها، لكنه لبث مدة طويلة لا يستطيع استئناف ما كان فيه، كما لم يقدر على النوم في تلك الليلة.

منذ تلك اللحظة، أصبح انتقاد سيد للمجتمع الأمريكي أشد قسوة وأكثر ضراوة، خصوصاً بعدما رأى غرورهم وعجرفتهم في التعامل مع الملوَّنين، ومنذ الآن لن يكف عن انتقاد كل ما تقع عليه عيناه؛ فإذا ذهب إلى الفندق أمعن النظر في نزلائه وناقشهم إن تيسرت له المناقشة، وإذا دخل معهداً أو جامعة استدرجهم إلى المناقشة في موضوعات أخلاقية واجتماعية وحضارية وسياسية. وإذا دخل المستشفى للعلاج ناقش المرضى أو الممرضين، وإذا جمعته جلسة مع بعض المثقفين ناقش خلفياتهم الفكرية واهتماماتهم الثقافية، وأظهر بدائيتهم في الأفكار والمعارف والثقافات، وفي الآداب والفنون، وفي أذواقهم في الطعام والشراب واللباس..

وإذا رأى الكنائس في مدينة سعى إلى تفسير كثرتها، وسبب المبالغة في تزيينها وبهرجتها، وإذا انتقل إلى متحف أمعن النظر في رواده وزائريه، وحلل أذواقهم ومشاربهم، وإذا جلس مع مفكرين أو أدباء أو صحفيين أو سياسيين، عرض عليهم نماذج شوهاء من مجتمعاتهم وقارنها بالنموذج الإسلامي المضيء.

وإذا رأى الأمريكيين يسارعون إلى أعمالهم الرتيبة في الصباح والمساء انتقد أداءهم للعمل بطريقة ميكانيكية آلية لا تختلف عن الآلات التي صنعوها، أو المصانع التي شيدوها.

كان سيد يرى أن أمريكا ورشة ضخمة، لا مكان فيها للمشاعر والأحاسيس، وكان يعجب عندما يرى سرب الحمائم الوادعة في نيويورك تتبختر في هدوء، أو يسمع هديلها الحزين وهي تنوح على أيكة قريبة من نافذته.

بصريح العبارة، لقد كانت روح العقاد الناقدة وصراحته المتجهمة تستحوذ على سيد في كل مكان، ولم يكن من السهل عليه التخلص من هذه الروح العقَّادية؛ فكان في تعامله مع الأمريكيين يكاد يكون عقاداً روحاً وفكراً، جالباً على نفسه مشكلات جمة منذ الآن ومما يستقبل من الأيام.

أخذ سيد يسترجع الحوادث التي مرت به منذ وطأت قدماه أمريكا، وانتظمت في ذهنه فكرة واحدة: تجنيده لصالح المخابرات الأمريكية، والعمل على تقديم أمريكا على أنها البلد النموذجي الأوحد الذي يجب أن يحتذى به، وليس وراء هذه الحقيقة حقيقة أعلى، ويحق للشعوب الأكثر علماً سلب وطن الآخرين الذين لا يضاهونهم علماً، كما فعل الأمريكان بالهنود الحمر، وكما فعل اليهود بالفلسطينيين..

هنا تذكر سيد عندما كان ذات يوم في جولة مع بعض الأصدقاء الأمريكيين ومروا على رصيف محطة قطار في جنوب الولايات المتحدة، فشاهد نساء من بقايا الهنود الحمر جالسات على الأرض، كل منهن قد رصت أمامها قليلاً من العقود والخرز؛ كنَّ نظيفات جداً، تبدو عليهن الوداعة، لا ينظرن إلى أحد، كل منهن قد أحنت رأسها نحو الأرض، لا تنظر حتى لمن يشتري من بضاعتها شيئاً! وقد رأى سيدة تشتري من إحداهن عقداً لم تسألها عن الثمن، بل أخذت العقد وناولتها نقوداً، ومدت المرأة يدها وأخذت النقود وعيناها ما تزالان تنظران إلى الأرض!

الخاطر المقلق الذي ملأ رأس سيد هو هذا: منذ مائتي عام كان هؤلاء الهنود هم أصحاب البلاد الأصليين، ولم تكن أمريكا قد وُجِدت بعد، فكيف أصبحوا الآن يقيمون في محابس منتشرة على طول الولايات المتحدة وعرضها.. كيف أصبحوا لا يعدون مواطنين أمريكيين؛ فليس لهم حق التصويت والانتخاب!.. هل من العدل للدخلاء أن يغتصبوا البلاد من أهلها؟

في اليوم التالي أجابته راشيل عن تسائله البريء دون أن يرف لها جفن:

إن الحركات التاريخية يُحكم عليها بنتائجها وليس بمبادئها. هنا أمة عظيمة خُلِقت، ولا تستند إلى ماض، ومن يقول إن النهوض لا يكون إلا بالاستناد إلى تراث الأقدمين، فهو كلام يصلح للإنشاء في كراسات التلاميذ! الحياة لمن هو أكثر علماً وفاعلية ونشاطاً..!

أراد سيد أن يغير الموضوع كي لا تفضح نظراته وملامحه احتقاره لهذه المخلوقة ذات الظُرْف الشيطاني، التي أمامه، فسألها قائلاً:

إنني لم أر الهنود الحمر يرتدون ملابسهم المألوفة، إنما رأيتهم يرتدون ملابس عادية مثل سائر الناس؛ فأين الريش الذي يتميزون به على رءوسهم كما نراهم في الصور؟

ضحكت راشيل ثم قالت بلهجة الخبير العارف بكل التفاصيل:

إنهم لا يلبسون ثيابهم الوطنية الأصلية إلا في مناسبات، وهم عادة لا يلبسونها إلا إذا تقاضوا أجراً لقاء ذلك، كأن يلبسوها مثلاً لمخرج سينمائي أو نحو ذلك، فهي مورد كسب لا أكثر ولا أقل!

وكان سيد قد قرر أن يغادر جنوب الولايات المتحدة إلى الغرب إلى سان فرانسيسكو..

٤٢- سان فرانسسكو وما بعدها

وصل القطار في الصباح الباكر إلى محطة سان فرانسسكو؛ وظهرت سفينة كبيرة تنساب على مياه المحيط الهادئ، وكانت السماء مغطاة بغشاء من سحاب الصبح وضبابه. مشى سيد في غمرة المسافرين إلى حيث ذهب تيارهم، فانتهى به المطاف إلى غرفة انتظار قبيحة المنظر، ذات مقاعد خشبية مطلية باللون الأزرق، لا تصلح كاستراحة حتى في محطة مصرية؛ ومن هناك ركب معدية بخارية كبيرة عبرت

الخليج إلى مدينة سان فرانسسكو. كانت مياه الخليج هادئة فكأنها لوح مصقول من زجاج أزرق، وتساءل سيد هل هذا لأن الخليج محاط بالجبال، أم لأنها ساعة الصبح الباكر حين يهدأ البحر، أم لأن المحيط بطبعه « هادئ»؟

منذ الوهلة الأولى شعر أن مدينة سان فرانسسكو مدينة خفيفة الدم، حلوة الطعم، ذات طابع جذاب؛ وإن كان لا يدري على وجه الدقة أين موضع الجاذبية فيها؟ أهو شوارعها الصاعدة الهابطة مع سفح الجبل؟ أم موقعها على شاطئ المحيط؟

وفي بهو الفندق بسط خريطة المدينة وراح يدرس كيف تكون طريقة سيره، فطريقته دائماً هي السير على الأقدام كلما استطاع ليتعرف على أجزاء المدينة التي يزورها.

كان أول مكان قصده في سان فرانسسكو ميداناً تتوسطه حديقة جميلة في وسطها نافورة بديعة حط على حافاتها وحول جدرانها عشرات من الحمام وطيور الماء البيضاء؛ فلما عبر الميدان إلى الجانب المقابل وجد المكتبة العامة؛ فدخل في بهوها وصعد السلم ليجد قاعة فسيحة نظيفة لامعة هادئة تتدلى من سقفها نجفة كبيرة من البلور، وعلى جدرانها رصت رفوف الكتب، وجلس قراء متناثرون هنا وهناك.. كان الوقت ضحى؛ واستعرض الكتب سريعاً فوجدها بجميع اللغات ما عدا اللغة العربية.

قبل الغروب استقل سيارة عامة وصعد الجبل في طريق يدور صاعداً، وأخذ ينظر إلى سان فرانسيسكو في ضوء الغروب العنبري: منظر تنحبس له الأنفاس؛ السفوح كلها مغطاة بالمنازل التي يغلب عليها اللون الأبيض، والمنازل تموج مع موج الجبال ارتفاعاً وانخفاضاً، وعلى مقربة من القمة منازل صغيرة؛ ومن منزل صغير منعزل خرجت امرأة شابة تحمل باقة من الزهور لفتها بقرطاس من الورق،

وعلت شفتي سيد ابتسامة خفيفة؛ إذ ارتدت أفكاره عفواً، إلى الأبيات المشهورة التي يعرب فيها الشاعر الخيام عن أمنياته فيقول:

ومقامي غصنٌ مظلٌ بقفرِ
ورغيفانِ مع زجاجةِ خمرِ
وحبيبٌ يهواه قلبي
كل زادي وديوان شعرِ

عاد سيد إلى الفندق، لكن سرعان ما اعتلَّت صحته، ودخل المستشفى في العاشر من فبراير ١٩٤٩، وعاوده الحنين إلى مصر كأشد ما يكون الحنين ونظم في سان فرانسيسكو قصيدتين معبرتين هما: "دعاء الغريب" و "هتاف روح" قال في الأولى:

يا نائيات الضفاف هنا فتاكِ الحبيب
عليه طال المطاف متى يعود الغريب؟
يا أرضُ رُدِّي إليك هذا الوحيد الغريب
هواه وقْفٌ عليك رُدِّي فتاكِ الحبيب

وقال في الثانية:

في النفس يا مصرُ شوق لخطرة في رُباكِ
لضمة من ثراكِ لنفحةٍ من هواكِ
لومضةٍ من سماكِ لهاتفٍ من رؤاكِ
ظمآنُ تهتفُ روحي متى تراني أراكِ؟

بعد يومين من دخول سيد المستشفى اغتيل حسن البنا، المرشد العام لجماعة الإخوان المسلمين في ١٢ فبراير ١٩٤٩، تعجب سيد من مظاهر الفرح والابتهاج التي رآها لدى موظفي المستشفى بسبب اغتيال مواطن مصري. كثيرون ممن يسارعون إلى تكذيب بطلنا في كل حكاية يرويها، قالوا إن هذه القصة مختلقة ومحض خيال من سيد ولا أساس لها من الصحة.

الحقيقة ربما كنت مضطراً إلى الإذعان إلى رأيهم المجحف هذا لو أن هذه الحكاية حدثت في إحدى الولايات الجنوبية للولايات المتحدة، لكن من سوء حظهم أنها حدثت هنا في غرب الولايات المتحدة، ولقد أكد كثير من الكتاب والرحالة، غير سيد، قديماً وحديثاً اهتمام الناس بالإسلام في غرب الولايات المتحدة أكثر من اهتمامهم به في الولايات الجنوبية، والفارق بعيد بين أهل الجنوب وأهل الغرب في الثقافة والانفتاح والتفكير.. هنا لديهم أسئلة دقيقة تدل على أنهم ليسوا في عماء وجهالة عن العالم الخارجي كالتي رآها سيد في كولمبيا، فكانوا هنا يسألون عن الإسلام، وعن جماعة الإخوان المسلمين، وعن الدروز، وعن الباكستان، وعن مصر، وكان يدركون الفرق بين العقيدة المسيحية والإسلام..

٤٣- من أمريكا إلى الإسكندرية

حقاً إنه لشيء مؤسف أن نجهل أين اختفى سيد بعد ذلك، فكأن الأرض انشقت وابتلعته، فلم يُسمع له صوت، ولم ير له طيف. في الحقيقة بعد هذه الأحداث المؤلمة، التي مر بها سيد، عزفت نفسه عن الاحتكاك بالأمريكيين أو التعامل معهم، وأصبح يؤثر العزلة والتأمل والصمت، وغادر سان فرانسيسكو وأقام في قرية ريفية جميلة، تقع في واد زراعي في قرية "بالو آلتو".

في هذا المكان كتب سيد جميع رسائله إلى أصدقائه وإخوانه..

كان الفندق الذي نزل فيه سيد نظيفاً، وكان أكثر زائريه من الإنكليز والفرنسيين. وكان الجو رطباً بارداً ليلاً لدرجة أنه لا يستطيع التنزه دون معطف غليظ، ومع أن نافذة غرفته كانت مغلقة، فقد كان يشعر بهبوب شيء من الهواء الرطب البارد من خللها، كان سيد يترك الفندق صباحاً ويتجه نحو الوادي، فينحدر بمحاذاة شلال منهمر له دوي هائل. هناك كان يصعد تارة إلى قمة الجبل، وتارة ينزل إلى أسفل الوادي، وينظر إلى مسيره من أعلى الطريق إلى الوادي فيجده سحيقاً، ثم يصل إلى جسر تصب المياه من تحته، فينزل إلى الوادي ليرى مقر الشلال العظيم الذي يخر بقوة، فيشرب من ذلك الماء الزلال البارد العذب الذي لم يكن يشبع منه.

ومن غريب المصادفات أن كلباً كان يرافقه دوماً في نزهته هذه متطوعاً، كان يقف عندما يقف، ويمشي عندما يمشي، واذا أراد أن يطل على الوادي السحيق وعلى مصب الشلال، وقف بين رجليه كأنه يومئ إلى محل الخطر الذي كان يداهمه لو تقدم خطوة! وإذا مر ببعض الكهوف، كان الكلب يدخل معه في الكهوف ويمشي أمامه وهو ينبح نبحاً خفيفاً.

وفي أيام أخرى يذهب فيقعد على مرتفع عال في سفح جبل من الجبال المحيطة بالفندق يستقبل أشعة الشمس الجميلة. لم يكن يحب أن يكون شاعراً في تلك اللحظة، إنما كان يتمنى لو كان رساماً، يأخذ الطبيعة كمعونة للتعبير عما يشعر به.

كان يرى أمامه، وعن يساره منظر ذلك الوادي، ويعلو الوادي السماءُ بلونها الأزرق الصافي، الذي فيه شيء من السحاب الدائم المرور الذي ينعكس ظله على الوادي، ويسمع خرير المياه يرافقه هبوب الريح الخفيف على ورق الشجر.

وعند الساعة السابعة مساء، كانت الشمس لا تزال ترى من رؤوس الجبال، ومما يجلب النظر في ذلك المشهد الغريب: كلما اقتربت الشمس من المغيب، انقشعت السحب من السماء، ثم يعقب ذلك برودة الجو، والشمس لا تزال في

ذرى الجبال البعيدة، وعندها يكون المكوث في الخارج بدون معطف يكاد يكون مستحيلاً؛ فيعود إلى الفندق بمرافقة الكلب الذي يصحبه دوماً، وعلى ما يظهر أن أرباب الفندق قد أعدوا مثل هذه الكلاب لمرافقة السياح الغرباء، حتى إذا ما ضلوا الطريق في رحلاتهم هدتهم إلى مكان الفندق.

الغريب في الأمر، أن الطريق دوماً خالياً من المارة، ولم يكن يرى مخلوقاً يتوقف أبداً ليتأمل جمال الطبيعة الساحر الخلاب. لقد امتحنهم ستة أشهر لم يشهد مرة واحدة فرداً أو أسرة جالسة تستمتع بذلك الجمال البارع الحالم، لا سيما في ليالي الصيف التي ترف فيها النسمات كالأحلام، المهم لديهم هو تنمية الحديقة وتنظيمها، بنفس الطريقة التي ينظم بها صاحب المتجر متجرة، وصاحب المصنع مصنعه!

على أي حال، في العاشر من أغسطس ١٩٥٠ بدأ سيد يستعد للعودة إلى مصر، كان يسيطر عليه شعور غريب، كان يشعر بأنه كان مسجوناً معقود اللسان، لا يقدر على التعبير عن كل ما كان يجول في فكره، كان عدم تمكنه التام من الإنجليزية يحول بينه وبين التعبير عن أشياء كثيرة يود قولها وبيانها، تمنى لو كان تمكنه من التعبير بالإنجليزية بمثل تمكنه من التعبير بالعربية، بل أحياناً يتمنى أن يتبدل الحال فتصبح العربية مكان الإنجليزية، والإنجليزية مكان العربية! فهو لم يعد يريد أن يكتب باللغة العربية أكثر مما كتب. إنه يريد أن ينقل هجومه إلى قوم آخرين ليوصل إليهم كل ما يريد فيوجعهم ويؤلمهم ويؤثر فيهم. كانت بداخلة طاقة هائلة من السخط جعلته يرفض كل العروض المقدمة له بالبقاء في أمريكا، لدرجة أنه لم يحاول دراستها ولا حتى مقارنتها..

كان سابقاً كلما استقل قطاراً من ولاية إلى ولاية يترك روحه تمتص كل ما تقع عليه عيناه من جمال الطبيعة. الآن هو في طريقه إلى ميناء نيويورك ليبحر إلى مصر، لقد أغلق روحه عن استقبال أي شيء مهما كان جميلاً، لم يعد يهمه بحيرة "والو"

التي تحفها من جميع الجهات جبال مشجورة بأشجار الصنوبر.. ولم يعد يتأثر بسنابل القمح المخضرة التي تغطي الجبال وتتماوج متلاحقة مع الريح كأنها موج البحر.. ولم يعد يتأثر بالجبال التي تلوح من الأفق البعيد وقد تلفعت بالسحاب، وبدت أسافلها مكسوة بأشجار الصنوبر السامقة.. ولم يعد يتأثر بما يراه من الأنهار الصغيرة، رائقة الماء كأنه البلور، وقد ظهرت الصخور في قاعها كأنما تنظر إليها عبر لوح من الزجاج، وقد تدفق ماؤها من بين الصخور هابطاً من شواهق الجبال محدثاً صوتاً يملأ الأسماع. لقد كان يداخله إحساس بأن هذه الطبيعة ليست طبيعة محايدة، إنها أمريكية مخادعة؛ لا ترحب بالغرباء ولا ترغب في وجودهم في أحضانها!

كان يرى الجبال قد اتخذت صورة غير التي استقبلته بها عند قدومه إلى أمريكا، فقد بدت الجبال كأنها ظلال قاتمة، لا يرى منها إلا سوادها، فلا خضرة الأشجار بادية، ولا بياض الثلج ظاهر عند قممها.

وفي صباح الحادي عشر من أغسطس ركب الباخرة التي تقله إلى مصر، كانت الشمس محجوبة كعادتها، والغيوم مختلفة المناظر والألوان، وسرعان ما تبددت الغيوم وانقشعت السحب وظهرت الشمس جلية واضحة، ولم يبق في السماء إلا بعض الغيوم الصغيرة التي لم تعكر صفو الجو، لم يكن لدى سيد رغبة في التمتع برؤية البحر ولا بالحديث مع أحد، لقد شبع من كل شيء له علاقة بأمريكا، حتى أنه لم يسجل أي خواطر عن رحلته أثناء العودة، بقي لا يتكلم إلا للضرورة، كان يسيطر عليه إحساس غريب، وشتان بين إحساسه يوم ركب السفينة قادماً إلى أمريكا وبين إحساسه الآن، كان فقط يمتلئ حباً وشوقاً لمصر، وبعد تسعة أيام، وتحديداً في العشرين من أغسطس ١٩٥٠، وصلت الباخرة إلى ميناء الإسكندرية.

وصل التاكسي إلى البيت، نعم هذا هو البيت، لم يتغير، نظر إليه سيد بإمعان، وكأنه يستفسر منه عن أحوال من بالداخل، كان يلف المكان سكون شامل، إنها

الساعة الثانية صباحاً، صعد سيد السلم بسرعة، طرق الباب متردداً، وكأنه غريب، بعد لحظات جاءه صوت حميدة تسأل من بالباب؟

ما أجمل هذا الصوت وأعمقه وأطيبه، إنه صوت الريف، إنه صوت بلده، إنه صدى مصر الحبيبة، لقد أعاد هذا الصوت ذكريات سنين طويلة..

٤٤- بين الثورة والإخوان

في عام ١٩٢٨بينما كان سيد قطب منهمكاً في معاركه الأدبية، وقصائده الشعرية، كان هناك في مكان، يبعد عن القاهرة ١٢٠ كيلومتراً، وعلى الضفة الغربية للقناة، حركة إسلامية وليدة، تكافح بقوة لنشر الإسلام وإحياء الخلافة.

بطبيعة الحال، لم يكن سيد قطب، قبل سفره إلى أمريكا، مهتماً لا بجماعة الإخوان المسلمين ولا بمرشدها، وكان دوماً يؤيد آراء أستاذه العقاد؛ الذي عُرف عنه بأنه وفدي متعصب. كان حزب الوفد في صراع حاد، مع جماعة الإخوان، فكلاهما يريد أن يكسب الشارع إلى صفه. وبعد أن كان الوفد هو المسيطر على الشارع، أصبح له في الميدان منافس قوي شديد البأس، يقود الجماهير ويكسب كل يوم أرضاً جديدة وجمهوراً جديداً، ويخسر الوفد أمامه جزءاً من جمهوره التقليدي. كان الإخوان أقوى صوتاً، وأشد تأثيراً. وظهرت شعبية الإخوان الفتية، بعد الحرب العالمية الثانية، مما أدخلهم في صراع مع الوفد. وبدأ الصراع غير الشريف بين الطرفين، وكان الوفد هو البادئ بالاحتكاك غالباً، مغتراً بقدرته المادية والأدبية؛ فإذا كان الإخوان لا يناصرهم إلا الطبقة الوسطى والدنيا، فإن الوفد تناصره الطبقة العليا: طبقة البكوات والباشوات والإقطاعيين والرأسماليين، والإنجليز أيضاً.

كان الإخوان يتهمون حكومة الوفد بأنها جاءت على أسنة رماح الإنجليز منذ ١٩٤٢، واستغلت ظروف الحرب العالمية، لفرض الأحكام العرفية، واتخاذها تُكَأَة لإنفاذ ما تريده ضد خصومها السياسيين.

في المقابل استمرت حملة الوفد على الإخوان في صحفهم وجرائدهم واجتماعاتهم.. وكانت صحيفة الوفد (صوت الأمة) تتهكم على حسن البنا، وتقول عنه (مدرس الخط) وتقول: كيف يجترئ مدرس الخط على مخاطبة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا؟

وكان العقاد، يقول: إن "حسن البنا" يهودي مغربي جاء لتخريب الإسلام!. ويطيب لسيد الآن مخالفة أستاذه العقاد في كل آرائه وإثبات نقيضها.

***

عموماً، كان كتاب سيد قطب "العدالة الاجتماعية في الإسلام" هو الجسر الذي نقل سيد قطب من عالم الأدب إلى عالم السياسة، ومن عالم المثل إلى عالم الواقع، ومن صومعة المكتب إلى ضجيج الشارع. وقد لقي هذا الكتاب حفاوة بالغة لدى جميع الأوساط، خصوصاً الإخوان المسلمين، الذين اعتبروا سيد قطب يعنيهم بالعبارات التي سطرها في بداية كتابه: "إلى الفتية الذين كنت ألمحهم بعين الخيال قادمين؛ فوجدتهم في واقع الحياة قائمين، يجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، مؤمنين في قرارة نفوسهم أن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.. إلى هؤلاء الفتية الذين كانوا في خيالي أمنية وحلماً، فإذا هم حقيقة وواقع.. أهدي هذا الكتاب".

أعجب شباب الإخوان خاصة والمرشد الهضيبي على وجه الخصوص بهذا الكتاب، لكن سفر سيد إلى أمريكا حال دون التواصل معه وضمه إلى الجماعة إن أمكن. وبعد رجوع سيد من أمريكا، وفي عام ١٩٥١كتب كتابه الثوري الثاني: "معركة الإسلام والرأسمالية" الذي نال إعجاب الضباط الأحرار وجمال عبد

الناصر شخصياً، فقد كان أقرب إلى فكر الثورة منه إلى فكر الإخوان، وبهذا بدأ الضباط الأحرار يتقربون من سيد قطب.

٤٥- لقاء الشيخ الندوي

من الأحداث المهمة التي وقعت عام ١٩٥١، زيارة الشيخ أبي الحسن الندوي (الهندي) لمصر، ولا زالت عبارة قيلت في هذا اللقاء يتردد صداها حتى اليوم، دون أن تجد لها إجابات شافية، وأهمها أن الجد السادس لسيد قطب كان قد هاجر من الهند واستقر في مصر.

مكث الندوي في مصر ما يزيد على خمسة شهور، كانت زيارته خصبة، لا يكاد يخلو يوم منها عن محاضرة، أو درس، أو لقاء.. التقى الشيخ الندوي في القاهرة بمعظم العلماء والدعاة والمفكرين والأدباء، وسجل عنهم ملاحظاته الدقيقة في كتابه "مذكرات سائح في الشرق العربي".

وكان الشيخ أبو الحسن الندوي قد ذاع صيته بعد نشر كتابه الفريد (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) الذي يعتبر نظرة جديدة إلى التاريخ الإسلامي، وإلى التاريخ العالمي من المنظور الإسلامي. وقد ساعده على ذلك معرفته التامة بالإنجليزية والعربية والفارسية، بالإضافة إلى الأوردية.

كان الندوي متصلاً بركب الثقافة الإسلامية في الشرق العربي، حريصاً على مسايرتها، يتلقف كل ما تنشره المطابع، وتصدره مكتبات مصر من غث وسمين- كما قال عن نفسه- فقرأ كتابات محمد حسين، والعقاد، وأحمد أمين، ومحمد حسين هيكل، وأحمد حسن الزيات، والمنفلوطي، والرافعي، وكان ملتزماً بمطالعة مجلة «الرسالة» و«الثقافة»، وما يكتبه سيد قطب فيهما؛ فقرأ كتاب «العدالة الاجتماعية

في الإسلام»، ووجد فيه أسلوباً جديداً من الكتابة والبحث والعرض لم يجده لدى الكُتّاب الإسلاميين، وخاصة العرب.

راح الندوي يتلمس العنصر القوي والروح العالية في كُتّاب مصر والأقطار العربية، فلم يجدها في كتابات المصريين إلا لمعات في كتابات العقاد الذي كان يبدو في كتاباته باحثاً حراً، وناقداً عميق النظر. وعلى شاكلة أسلوب العقاد وجد كتابات سيد قطب، خصوصاً كتابه "العدالة الاجتماعية في الإسلام". لكنه وجد في الكتاب أشياء نفر منها، مثل انتقاد سيد قطب لعثمان بن عفان، فاستجاب سيد للشيخ الندوي وحذف هذه الانتقادات من الطبعات اللاحقة للكتاب.

على أية حال، في يناير ١٩٥١ توجه الشيخ الندوي، في سيارة الحاج حلمي المنياوي، صاحب المطابع العربية في القاهرة، إلى بيت سيد قطب في حلوان، كان ذلك يوم الجمعة، وقضى معه النهار بطوله وجزءاً من الليل. لقد كانت جلسة لا تنسى، حيث تفتح قلب سيد للشيخ الندوي منذ اللحظة الأولى، وقد كان هذا ديدن الشيخ الندوي في كل من يخالطه، فقد وضع له القبول في عين كل من يلقاه.

كان الندوي في الثامنة والثلاثين، نحيف البدن، نحيل العود، له لحية سمراء، وعيون صافية عميقة النفاذ، ووجه أبيض لوحته الشمس وأكسبته حمرة متقدة، ونبرات صوت دقيقة، ولغة عربية ناصعة يقلب فيها الضاد إلى ظاء. كانت ملامحه كأنها منحوتة من شخصيات الأسلاف الغابرين، تجمع بين القدسية والبهاء، يرتدي ثياباً خفيفة الوزن والثمن، كأنه رحالة أو زاهد في صومعة، يغلب عليه الأدب الجم، والتواضع الظاهر، يحمل حماس الشباب وحكمة الشيوخ، وفكر العالم المدقق، وقلب المؤمن الغيور..

كان سيد قطب قد قرأ كتاب الندوي «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، فوجده ينسجم مع نفسيته ويتجاوب مع منهجه وأسلوبه، فأَنِسَ كل منهما

بصاحبه، وأفضى إليه بذات نفسه ومكنون صدره.. تحدث سيد في هذا المجلس كثيراً عن حياته الخاصة والعوامل التي حولت مسار حياته.

هذه الألفة السريعة بين الرجلين، دفعت الشيخ الندوي أن يطلب من سيد أن يكتب مقدمة لكتاب "ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين" غير المقدمة التي كان قد كتبها أحمد أمين. وافق سيد فكتب مقدمة مختصرة جعلت رواجاً كبيراً للكتاب. هذه المقدمة هي التي حثت الإخوان بأن يطلبوا من الشيخ الندوي أن يكتب مقدمة لكتاب الشيخ حسن البنا: "مذكرات الدعوة والداعية"؛ فلبى طلبهم عن طيب خاطر.

فوجئ الشيخ الندوي، في أول لقاء مع سيد، بوجود الفجوة الواسعة بين حالته الصحية وجسمه الضعيف، وبين أسلوبه القوي المتحدي المسعور الذي يشعر الإنسان بلهيبه ووهجه، وقلمه المتدفق الذي يتطاير منه الشرر كأنه جذوة من نار، وقد هزه هذا الانطباع الذي سجله في مذكراته بقوله: "من الطريف أني كنت قد رسمت في مخيلتي صورة خيالية لسيد قطب، شأني مع كثير من المؤلفين الذين أقرأ لهم.. كنت أتخيله أديباً في العقد الرابع من عمره، فارع القامة، عريض المنكبين، قوي البنية.. فإذا هو إلى القصر أقرب، يظهر أنه في العقد الثالث[٢١] تخرج من دار العلوم، ولا يظهر بادئ ذي بدء أنه صاحب هذا الأسلوب القوي في الموضوعات الدينية، وظهر لي من كلامه أنه واضح التفكير نقي الذهن".

عندما اجتمع سيد مع الشيخ الندوي، كاشفه بمكنون نفسه وأعمق مشاعره بصراحة وصدق، بل إنه قلل من قيمة نفسه وبخس من قدرها، على غير عادته، فاندفع أحد الحاضرين يثني على سيد قطب، قائلاً: "إن الكتب العظيمة التي ألفتها لا تصدر إلا عن قلب مؤمن، وعقيدة متينة، وخلق مستقيم..".

[٢١] كان سيد يومذاك في السادسة والأربعين، لكنه كان يبدو أصغر من عمره الحقيقي خصوصاً قبل دخوله السجن.

هنا، تكلم سيد وشهد على نفسه بكل صراحة وجسارة وقال: "أنا لا أعتقد أني أستحق هذا الثناء والمدح، وليس صدور كتاب دليلاً على أن المؤلف اجتاز المراحل الأولى في التربية وإعداد النفس، لأنني أعرف معركة قائمة بين بيئتي وما أنا فيه- من راحة ورخاء وفرص- وبين ما يطلبه الإيمان والجهاد من التضحية والإيثار، والزهد.. إن المرحلة النهائية لا تزال بعيدة، وإن الميزان ما ذكره القرآن: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ}؛ فما لم أر هذا المنزل الذي أسكنه، والوظيفة، والعطلة، وأسباب الغنى والفقر سواء، فإني لا أزال بعيداً عن حقيقة الإيمان، فلا أريد أن أخدع نفسي ولا غيري!".

وبعدما انصرف الحاضرون واختلى الشيخ الندوي بسيد، سأله قائلاً: أليست لديكم نية لزيارة الهند والباكستان؟ قال سيد: بلى ولدي باعثان إلى هذه الزيارة: الباعث الديني، والباعث الطبعي.. فلم يفهم الشيخ الندوي ماذا يقصد سيد بالباعث الطبعي! وهنا تابع سيد كلامه قائلا: "أما الباعث الديني فواضح؛ فإني أريد أن أزور هذه الأمة الإسلامية العظيمة، وأما الباعث الطبعي فلأن جدنا السادس كان هندياً، وهو "الفقير عبد الله"، لذلك لا تزال السحنة الهندية موروثة في أسرتنا".

وقد سر الشيخ الندوي كثيراً بهذا الأمر، لكن محمد قطب- شقيق سيد- سينفي ذلك لاحقاً، بقوله: "إنه مجرد ظن، مبعثه أن تقاطيع وجوه العائلة قريبة الشبه بتقاطيع وجوه أهل الهند، فقالوا: لعل أحد أجدادهم قد هاجر من الهند، وهذا كان من باب المجاملة والدعابة مع الشيخ أبي الحسن الندوي".

والحق أنني أؤيد كلام سيد عن أصله الهندي، لأن طبيعة آل قطب الفكرية والنفسية، ونزعتهم الصوفية التأملية أقرب إلى تفكير فلاسفة الهند منها إلى تفكير

المصريين، وهذا ما جعل أفكار أبي الأعلى المودودي تجد صداها في نفس سيد وروحه منذ الوهلة الأولى. لكن محمد قطب يريد أن يوصد هذا الباب ولا يعطي خصومهم تكأة لمهاجمتهم بضراوة والتشكيك في أصلهم المصري، ولربَّ قائل بعد ذلك يقول- كما حدث مع الشيخ البنا- بأن أصل سيد يهودي جاء من آسيا لتخريب الإسلام!

عموماً، لقد رأى الشيخ الندوي- خلال هذه الشهور الخمسة- سيد قطب عدة مرات، والتقى به مرة ثانية بعد شهر من لقائه الأول، فعاتبه سيد على عدم الاتصال به، قائلاً له: لقد قرأتُ مقالكم الرائع: "اسمعي يا مصر"، وأرجو أن تسمع، فقال الندوي بلباقة وحكمة: إذا سمعتم أنتم فقد سمعت مصر!

بعد العشاء استأذن الندوي وألح سيد عليه بالمبيت لكنه رفض. وأهداه سيد نسخاً من مؤلفاته الاسلامية، و ليس هذا مستغرباً، لكن الغريب، أن سيد، في لقائه الثاني، يهديه نسخاً من مؤلفاته، قبل مرحلة التزامه، وخصوصاً روايته "أشواك" فأخذها الشيخ الندوي شاكراً.

والتقى سيد بالشيخ الندوي مرة ثالثة بعد محاضرته المحبطة التي ألقاها في جامعة القاهرة، عن الشاعر إقبال، ولنستمع إلى الندوي وهو يروي تفاصيل هذا اليوم الكئيب:

"كان موعد المحاضرة الساعة الثانية عشرة، مع أنه وقت السآمة والإعياء، ويصادف وقت الغداء أيضاً. دخلنا في المدرج، ورأيت عدداً كبيراً من الطلبة والضيوف، وجلست على منصة المحاضرات مع عدد من الخطباء ذوي الشأن، وحضر عدد كبير من طالبات الجامعة وجلسن مع الطلبة جنباً لجنب، وتقدم الدكتور عثمان أمين وألقى كلمته عن الدكتور محمد إقبال، وتلاه الدكتور محمد الصياد، وتبعه الأستاذ عبد المنعم الكرمي، وقد تسربت السآمة- التي لا تحتملها الشبيبة اليوم- إلى النفوس، وبدأ الجوع يساورهم، فأبدوا رغبتهم في اقتضاب هذه

الكلمة والانتهاء منها سريعاً، وكان موقفي حرجاً جداً، لقد عيل صبر الطلبة- ورصيده دائماً قليل و سريع النفاد عند الشباب- ثم إني غريب لا يعرفونني، ومظهري لا يلائم ذوقهم ولا يبعث فيهم الإجلال، وقد قصَّر من قدمني إلى المستمعين؛ فلم يذكر اسمي كاملاً، ولم ينسبني إلى بلدي حتى آخذ نصيبي من الاحترام الذي يأخذه عادة الضيوف الأجانب، ثم كان فيلم عن باكستان سيعرض بعد محاضرتي، فكنت حائلاً بينهم وبين ما يشتهون من التمتع برؤية الأفلام. افتتحتُ المحاضرة بعرض حياة محمد إقبال، فطلب مني الدكتور عثمان أمين أن أطوي هذا الفصل وآخذ في الموضوع، فافتتحتُ المحاضرة وأنا منكسر الخاطر، فما إن مضيت قليلاً حتى تلقيت منه إشارة الاقتضاب، وكان يبدو الضجر في وجوه الطلبة وتسمع همساتهم، وقلت مخاطباً الحاضرين: إني ضيفكم وحضرت بدعوتكم، فأرجو أن تعيروني دقائق حتى أستطيع أن ألقي هذه المحاضرة، لكني وجدت أن هذه الكلمة لم تصادف آذاناً صاغية، وبجانبي المشرف على هذه الحفلة يطالبني بالانتهاء من هذه المهمة التي لا تلقى الترحيب، ونفد صبري، فجلست وأنا منكسر الخاطر، متهدم الأعصاب، ثائر الفكر؛ فقد مُنِيت من الإعراض والانصراف بما لم أعرفه طوال عمري. وقبل أن تعرض الأفلام خرجت مع جماعتي، وجاء على أثري الشيخ عبد الوهاب خلاف، فاعتذر إليَّ فهونت الخطب، وقلت لا بأس وأظهرت التجلد.. وعلى كل، فقد انتهى هذا الأمر، وقد تلقيت عنه دروساً نافعة وإن كانت قاسية قليلاً، أدعو الله أن ينفعني بها".

سمع سيد قطب بما لاقاه صديقه الندوي من الإحباط والإعراض؛ فدعاه إلى بيته، وأثنى على محاضرته التي ألقاها في الجامعة- مع أنه لم يكن حاضراً وقتها- وقال: سررت بهذه المحاضرة كثيراً، وقد رأيت بين أفكار محمد إقبال وبين وجهة نظري توافقاً غريباً، فقد تخطى المعاني إلى الكلمات، خصوصاً في ما يخص الوجدان والروح، وإني لشديد الشوق إلى دراسة إقبال ونصوصه، وقد أرجأت ذلك في

كتابي: "لحظات مع الخالدين"[٢٢] وأرجو أن تزودوني بالكتب عن إقبال ودواوين شعره، فوعده الشيخ الندوي بذلك. لكن تسارع الأحداث بعد ذلك حالت دون أن يَبرّ كل منهما بوعده. ولم يخطر ببال سيد، بعد مرور أربعة عشر عاماً على هذا اليوم- في السجن الحربي- أن ذاكرته سوف تخذله، ولن تسعفه في تذكر اسم الشيخ أبي الحسن الندوي!

والتقى الشيخ الندوي بالشيخ محمد الغزالي، ورافقه في بعض رحلاته الدعوية في القاهرة، وأعجب كل منهما بصاحبه. وكعادة الشيخ الغزالي لا يكون في مكان إلا وينزع فتيل فتنة أو يشعل لهيب ثورة، يقول الشيخ الندوي: "أقيم احتفال ونودي باسم الشيخ محمد الغزالي وجاء على المنصة فارتجت القاعة بهتافات الإخوان، الله أكبر ولله الحمد، فمنع الإخوان عن هتافهم، وقال إننا في دار جمعية الشبان المسلمين وقد جاء في الحديث الشريف: (لا يؤم الرجلُ في سلطانه ولا في بيته إلا بإذنه) فسكت الإخوان؛ وأعجبتني لباقة الشيخ وفهمه للموقف وإطاعة الإخوان له. وتلاه الأستاذ سيد قطب فقرأ كلمة بمناسبة هذه الحفلة كانت موجهة إلى عبيد فرنسا[٢٣]، وكانت كلمة أدبية، تهكم فيها بهؤلاء العبيد الذين يسبحون بحمد فرنسا بكرة وأصيلاً، واقترح بأن تستبدل الكتب المقررة- التي تتكلم عن الثورة الفرنسية وتأثيرها في تحرير الفكر- بكتب تاريخ الاستعمار الفرنسي وفظائعه، وكانت الكلمة تقاطع بهتافات صارخة وتصفيقات حارة، وكان الجمع يهتف بين حين وآخر تسقط فرنسا العاهرة".

---

[٢٢] لم يكتب سيد قطب هذا الكتاب

[٢٣] نشرها بعد ذلك في كتابه دراسات إسلامية

٤٦- لقاء جمال عبد الناصر

في إحدى ليالي الصيف كانت حديقة بيت سيد قطب في حلوان تضم شاباً في الثانية والثلاثين؛ أنيقاً، متحفظاً، حاد الأنف، واسع العينين، ذا نظرة حذرة مستطلعة، معجباً بصوته الرنان الممتلئ حماساً وحرارة، كان كأنه يعد كلماته عداً، يصلح أن يكون فيلسوفاً، أو مخرجاً سينمائياً، ذا وجه به طاقة مكثفة، متشنجة وحبيسة، تبحث عن التفريغ في موضوع مناسب لم يأت أوانه بعد، ومع ذلك فقد كان خجولاً للعين الفاحصة، باحثاً عن المجد والشهرة بأي ثمن؛ كان ذلك هو البكباشي[٢٤] جمال عبد الناصر الذي حضر مرتين أو ثلاثة إلى بيت سيد برفقة بعض الضباط الأحرار، والتقطت لهم بعض الصور التي لم ندر أين ذهبت فيما بعد، كما روى ذلك سليمان فياض على لسان سيد قطب، وحصل تقارب شكلي بين الرجلين إلا أنه كان مشوباً بالاحتقار الصامت من كلا الطرفين.

كان سيد لا يرى في هذا البكباشي أصالة أهل الريف وطيبتهم، وكان البكباشي لا يرى في سيد فتوة أهل الصعيد وشِدَّتهم.

وبنظرة سريعة، في تلك اللحظة، إلى سيد ذي الوجه الحنطي، أجعد الشعر، رقيق الصوت ذي اللثغة المحببة في حرف الراء- تجد أمامك وجه مفكر ذي ملامح جدية، وعينين صريحتين يشع منهما حزن نبيل، بل يمكن القول إنهما صادقتان، تحت جبين مرتفع، طلق، وسريرة متزنة مطمئنة، وأصابع طويلة ناعمة تشي بأن صاحبها ذو نظرة فلسفية متأملة.

إذن، شتان بين الرجلين ذوَي الطبيعتين المختلفتين، رجل واقعي، عملي تكتيكي، يُخفي طموحه تحت مظهر عدم الاكتراث، ذي مزاج يعرف كيف يكبح الغضب، ويمثل ويتقمص الأدوار بسهولة، وإذا بحث عن ذريعة فسيعرف كيف يجدها في كل حين.. شتان بين ذاك الرجل، المتربص الغامض، وبين ذاك المثالي،

[٢٤] البكباشي معناها "الرائد" في الجيش التركي، تم استخدام هذا اللقب للرائد في الجيش المصري.

الحالم، ذي الطبع المستقيم، الذي يقدس الحرية، ولا يريد إلا أن يكون خادماً لضميره فقط.

لكن الصراع الحقيقي بين سيد وهذا البكباشي لم يبدأ بعد. فقد تواجها وحدق كل منهما في الآخر، واعترفا بأن لا تسامح بينهما، وسوف يصبح من المستحيل على كليهما العيش في المدينة ذاتها، وفي المجال الفكري ذاته. وما الصمت عندهما إلا انتظاراً للنطق بالكلمة الحاسمة. هذه الخصومة الكامنة في نفسيهما، لم تكن مجرد اختلاف في الآراء، إنما هي نزاع أصيل بين نفسين، وبين طبيعتين، فلا يمكنهما أبداً العيش طويلاً في سلام، إذ لا يمكن للحرية الفكرية أن تحقق ذاتها في ظل الديكتاتورية، ولا يمكن للدكتاتورية أن تعيش بسلام، ما دام هناك رجل حر يفكر.

ويغمر الحديقة فيض من المباهج والأحاديث الدافئة الطلية، دون أن يحسب أحد أنَّ نظرة ثاقبة استطاعت أن تلحظ خيط القدر الأسود المشؤوم في هذه الأحاديث المفرحة. وانطفأ ضوء المصباح في تلك اللحظة ليحجب عن العيون مأساة حقيقية غير منظورة.

في الحقيقة، لم يكن سيد قطب سعيداً بصداقته ولا مرتاحاً للحديث معه، وكذلك كان شعور البكباشي جمال عبد الناصر، الذي كان سيد ينفر منه غريزياً ويتمنى ألا تتكرر زيارته مرة أخرى. ومع ذلك فقد أسلم سيدٌ نفسَه إلى ذلك الطَّموح، واندفع يهاجم العهد الملكي بمقالاته النارية، ممهداً الطريق لهذا البكباشي الهادئ الصامت الكتوم الخجول ليصبح زعيم مصر الأول، بيده مقاليد السلطة الرهيبة للدولة التي حكمها الفرعون، والأمير، والسلطان، والخليفة، والملك..

من هو جمال عبد الناصر؟

يقال بأن جده "حسين خليل سلطان" ينتمي إلى قبيلة عربية استوطنت صعيد مصر مع الفتح الإسلامي، كان فقيراً لا يملك إلا منزله الذي شيده بالقرب من مسجد "بني مُر" في محافظة أسيوط، مركز أبنوب التي تشتهر بالعصيان والتمرد على الحكم من المجرمين والمطاريد.

وفي عام ١٨٨٨ ولد ابنه عبد الناصر، والد جمال، وبعد اثني عشر عاماً من مولده، افتتح الجد، فوق سطح المسجد، كُتّاباً يحفظ فيه القرآن لأطفال القرية، ويعلمهم مبادئ القراءة والحساب.

وفي عام ١٩٠٣ هاجر أصهاره إلى الإسكندرية ليعملوا بالتجارة، وأرسل معهم ابنه- والد جمال- إلى مدرسة النجاح الأهلية الابتدائية، ثم التحق للعمل في البريد، بمرتب قدره ١٢ جنيهاً، وتزوج في عام ١٩١٧ من فهمية حماد، ابنة تاجر فحم من الإسكندرية، وولد له جمال عام ١٩١٨.

كانت الفترة من ١٩٢٥إلى ١٩٣٠ فترة متاعب وعدم استقرار في حياة جمال، حيث نقل والده إلى مكتب بريد الخطاطبة، على حدود محافظتي البحيرة والجيزة، وأُرسل جمال إلى عمه خليل، بالقاهرة، ليلتحق بمدرسة النحاسين الابتدائية.. وفي عام ١٩٢٦توفيت أمه، الذي كان جمال شديد التعلق بها، وتزوج والده بعد وفاتها مباشرة، وساءت العلاقة بين جمال وأبيه بسبب زوجة أبيه وعاش مع جده لأمه.. وفي عام ١٩٣٣ عاد جمال إلى القاهرة ليعيش مع عمه خليل، ويلتحق بمدرسة النهضة في باب الشعرية.

هذا التنقل بين المدراس والمدن المختلفة، ساهم في تشكيل شخصية هذا الشاب وسلوكه؛ سواء في المدرسة الثانوية، أو في الكلية الحربية، أو في سيرته العسكرية والسياسية، مما جعله قلقاً يشعر بالتحفظ، والحيطة، والتكتم، ومشاعر الترفع والتطهر، ومشاعر الجفاء تجاه الآخرين.

٤٧- ثورة ٢٣ يوليو

في عام ١٩٥١ تدهورت الأوضاع السياسية، وذاع فساد البلاط الملكي إلى حد تعرض فيه البلاط للهجوم الجماهيري من كل الاتجاهات: الإخوان المسلمين، مصر الفتاة التي غيرت اسمها إلى "الحزب الاشتراكي المصري"، الشيوعيين، حتى الوفد الموالي للملك غيّر جلده وأصبح يهاجم الملك.. أما المجتمع المصري فكان يعيش تناقضات حادة: أثرياء ثراء فاحشاً، وفلاحين بالملايين أجراء جوعى، ونزوح من الأرياف والقرى للعيش في القاهرة، ومائتي ألف أجنبي يعملون في التجارة والبنوك، بينما توجد شريحة ضئيلة من التجار المصريين ورجال الأعمال، وأعداد متزايدة من خريجي الجامعات الطامحين إلى وظائف الدولة، وقوات بريطانية تحتل منطقة القناة، وصفقات أسلحة فاسدة، واندحار للجيش المصري في حرب فلسطين أمام حفنة من العصابات الصهيونية..

باختصار، كان النظام يترنح، وكانت الظروف كلها تدعو إلى الثورة، بل إن عدم الثورة في ظل تلك الظروف يعتبر شيئاً خارجاً عن المألوف، فقد كان الكل يتطلع إلى بطل يستعيد كرامة الأمة المفقودة وآمالها الضائعة.

وقع اختيار الضباط الأحرار على اللواء محمد نجيب ليكون قائداً للثورة، فقد خاض ٢١ معركة في حرب فلسطين عام ١٩٤٨ وأصيب ثلاث مرات، وكان حاكماً إقليمياً لسيناء، ومسئولاً عن مدافع الماكينة في العريش، وقائداً لمدرسة الضباط، ومديراً لسلاح الحدود، ثم رُقي إلى رتبة لواء، وأصبح مديراً لسلاح المشاة.

كان محمد نجيب يتمتع بشخصية صارمة في التعامل العسكري، وبطيبة وسماحة ومرونة في التعامل المدني، فلقد لقبه «إدوارد مولاك»، بصديق الأطفال بعد مرافقته في رحلة إلى الصعيد؛ حيث كانت صفاته تجتذب الأطفال وتجعلهم

يأنسون به، ويطيرون فرحاً برؤيته في المدن والقرى وفى الطريق الزراعي وعلى جانبي السكك الحديدية.

لهذا كان اختياره سر نجاح تنظيم الضباط الأحرار داخل الجيش، فحينما كانوا يعرضون على ضباط الجيش الانضمام إلى حركتهم ويسألونهم عن قائد التنظيم يقولون إنه اللواء محمد نجيب فيسارعون بالانضمام.

محمد نجيب ذو البشرة البنية التي استمدت لونها من طمي النيل، وذو الملامح الطيبة النقية التي كانت كأنها نحتت بإزميل وشاكوش، والشعر الأسود الخشن، الذي يضفي عليه حيوية الشباب، والعينين الذكيتين اليقظتين، التي لا تشتم منهما رائحة خبث أو غدر أو خيانة، والأسلوب البسيط في الحديث كأنه فلاح يتكلم عن غيطه وأرضه.

لقد كان كبيراً في السن والمكانة بما يكفي لإقناع الرأي العام بجدية القائمين بالانقلاب، وصاحب سجل عسكري مشرف، ونزعة معروفة بالتعاطف مع صغار الضباط وهمومهم في ظل الحكم الملكي، وهو بالمزاج والخبرة أقرب إلى العناصر الليبرالية في النظام القديم، منه إلى الضباط الأحرار، مما أنعش طموح الجماهير في إعادة مصر إلى ديمقراطية أفضل، لكنه لم يدر في خلده بأنه كان يشيد قصراً على الرمال في ظل هؤلاء الرفاق.

على أي حال، قبل الثورة، لم يكن لدى عبد الناصر ورفاقه أية نية بأن يحكموا مصر كلياً؛ فهم يفتقرون للخبرة السياسية والكفاءة الإدارية. وكانت سياسة عبد الناصر تأتي كرد فعل للظروف الداخلية والخارجية. أما بعد الثورة فقد تم توطيد سلطته من خلال تصفية السلطات القائمة: العرش الملكي، الأحزاب السياسية، كبار المسؤولين، كبار ملاك الأراضي، رجال المال، التجارة، الصناعة، التعليم، الإعلام، النقابات المهنية، اتحادات العمال، المجالس القروية في الريف، المؤسسات الدينية، جهاز الدولة الإداري.

فوجئ الضباط الأحرار بالسهولة التي تحقق بها انقلابهم، فلقد كان يفوق توقعاتهم، ففي الساعة الرابعة من صباح يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وجدوا أنفسهم يسيطرون على الجيش، وكان رد فعل الجماهير على البيان الأول للثورة مشجعاً، وخرجت المظاهرات المؤيدة للثورة في بعض الأحياء.

كان هناك اتفاق عام على تطهير القصر من الحاشية الفاسدة وموظفي البلاط الملكي، وكان كل ما يريده عبد الناصر ورفاقه إثبات أنهم تجسيد لإرادة الشعب، ولقد ضاعف التطهير ومحاربة الفساد بادئ الأمر من شعبية الضباط الأحرار، ورحب الفلاحون بقوانين الإصلاح الزراعي ترحيباً حماسياً، مما أعطى دفعة قوية للضباط الأحرار، بأن يشنوا حملة ضارية ضد كبار ملاك الأراضي.

عندما سيطر الضباط الأحرار، أفرجوا عن المعتقلين السياسيين في ظل النظام الملكي وفقاً لعفو عام، لكنهم ما لبثوا، بعد شهرين، بأن أصدروا قراراً بحل الأحزاب السياسية، وبدأوا حملات اعتقالات واسعة طالت عدداً كبيراً من القيادات الحزبية.

ظل هناك تعايش زائف، طيلة عامين، بين الإخوان المسلمين، وبين مجلس قيادة الثورة، حيث وجد الضباط الأحرار في الإخوان المسلمين غطاء شرعياً في نضالهم ضد الملكية والأحزاب الأخرى. ومن جانبهم، وجد الإخوان المسلمون فرصتهم للسيطرة على الجيش من خلال أعضائهم والمتعاطفين معهم. وبنهاية عام ١٩٥٣، كان الإخوان المسلمون هو التنظيم السياسي الوحيد في الساحة السياسية، الذي يقود جماهير غفيرة، ولديه استعداد لحكم مصر.

وقع الصدام الأول بين الإخوان المسلمين والضباط الأحرار بعد مظاهرات طلاب الجامعة في يناير ١٩٥٤ إبان الاحتفال بذكرى شهداء القنال، وأصدر مجلس قيادة الثورة قراراً بحل جماعة الإخوان تحت ذريعة معارضتهم قوانين الإصلاح الزراعي، واختراقهم الجيش والبوليس، وإقامتهم تنظيماً سرياً.. واعتقل المرشد

العام المستشار حسن الهضيبي، وأعضاء مكتب الإرشاد، وما يقرب من خمسمائة عضو آخرين.

ولما أظهر الرئيس محمد نجيب استياءه من هذه الإجراءات التعسفية تم وضعه تحت الإقامة الجبرية مع أسرته، في قصر زينب الوكيل بحي المرج بالقاهرة، بعيداً عن الحياة السياسية، ومنع من أي زيارات طوال عهد حكم عبد الناصر، وشطب اسمه من الوثائق وكافة السجلات والكتب، وظل ممنوعاً من الظهور الإعلامي حتى وفاته.

في مارس ١٩٥٤تفجرت مظاهرات حاشدة عبر أرجاء البلاد، وجابت الشاحنات شوارع العاصمة وهي تحمل عمال المصانع من ضواحي القاهرة، والفلاحين من ريف مصر، وجماهير هيئة التحرير وشبابها، وهم يهتفون:

"لا أحزاب، لا برلمان، لا تتنازل يا جمال.. لا حزبية، لا انتخابات". وبتواطؤ مع قائد البوليس الحربي هاجمت الجماهير مجلس الدولة- أعلى سلطة قضائية في البلاد – حيث كان مجتمِعاً لمناقشة الإجراءات القمعية لمجلس قيادة الثورة.

وشنت أجهزة الإعلام، التي يسيطر عليها الجيش، حملة عنيفة ضد هؤلاء المنتقدين، واتخذت إجراءات صارمة لتطهير الصحافة وفرض النظام والانضباط في الجامعات. وصدر قانون حماية الثورة، وتم حل النقابات المهنية والجمعيات، بما فيها مجلس نقابة الصحفيين.

وجاءت الضربة القاصمة لحركة الإخوان المسلمين بعد حادثة المنشية بالإسكندرية عام ١٩٥٤، التي وصفها الرئيس محمد نجيب في مذكراته بالمسرحية، عندما كان عبد الناصر يخطب في جمهور تعداده عشرة آلاف عامل، فأطلق عليه الرصاص محمود عبد اللطيف، عضو التنظيم السري الخاص للإخوان. وصاح جمال عبد الناصر بشكل مسرحي: "يا رجال، ليبق كل في مكانه، حياتي فداء لكم، دمي فداء مصر".

لم تمكن المسرحية (على حد تعبير محمد نجيب) عبد الناصر من قمع وسحق الإخوان، معارضيه الأشداء، فحسب، بل حولت مشاعر الجماهير للالتفاف حوله؛ ومن الآن فصاعداً سوف يُستقبل عبد الناصر بحماس متقد كلما ظهر بينهم، أو خطب فيهم، فقد أسرهم حبه.

في نفس الليلة كان هناك حملة اعتقالات شملت آلاف الإخوان المسلمين، وتم إعدام ستة من أعضاء مكتب الإرشاد البارزين، منهم: المستشار عبد القادر عودة (صاحب موسوعة التشريع الجنائي الإسلامي)، والشيخ محمد فرغلي (أحد المرشحين لمشيخة الأزهر الشريف)؛ والمحامي هنداوي دوير، والمحامي إبراهيم الطيب..

ومنذ ذلك الحين، ألغيت الأحزاب ووضعت قياداتها في السجون، وأغلقت الصحف الليبرالية المعارضة، وأجبرت أهم حركة دينية سياسية إسلامية في القرن العشرين على النزول تحت الأرض للعمل السري.

وتوالت ضربات الحظ في شكل سلسلة من الحوادث التاريخية طيلة عشرين شهراً منذ ١٩٥٥ حتى ١٩٥٦، ابتداءً من الغارات الإسرائيلية على غزة، وصفقة السلاح السوفياتية، وتأميم قناة السويس، وما تلاها من العدوان الثلاثي على مصر.

كل هذه الأحداث، أمدت عبد الناصر بمصدر جديد للنفوذ والشعبية والسلطة لم يتخيلها أحد من منافسيه. وبحلول ١٩٥٦ كان يتمتع بشهرة شعبية بوصفه مقاتلاً ماهراً، ومفاوضاً واقعياً حاسماً، ومواجهاً صارماً للإخوان القتلة والشيوعيين الأشرار. ونشر كتابه «فلسفة الثورة» تجسيداً لصورته كبطل في مخيلة الجماهير وعقولهم.

٤٨- دهشة وذهول

لقد أصاب سيد الدهشة والذهول عندما علم بأن عبد الناصر أصبح حاكم مصر الأول. راح يسترجع، بسخرية مريرة، ذكرياته مع هذا الشاب ورفاقه قبل شهور قلائل، عندما زاروه مرات عديدة في ليالي الصيف، وجلسوا يتسامرون في حديقة بيته بحلوان، وضوء المصباح، المعلق في فرع الشجرة فوقهم يطبع على العشب خيالات وظلالا، وينعكس في الأصابع الناعمة المحلاة بالخواتم..

معقول! أيحكم مصر هذا الذي كان يأتيني متذمراً من ظلم والده، شاكياً من خبث زوجة أبيه، ساخطاً على زملاء التدريس في الكلية الحربية، الذين لا ينفكون عن الدسائس والمناكفات، فهو قد سئم ألاعيبهم السخيفة على حد قوله. إن أحلام هذا الشاب، عند قدومه من بلدته باكوس، لم تكن تعدو مرتباً متواضعاً، وبيتاً صغيراً يضم زوجة وأطفالاً.. إنه لم يحلم مطلقاً بأن يكون رئيساً، ولم يكن لهذا الشاب أية أفكار سياسية يريد فرضها على العالم، أو أي ميل لإذلال الآخرين. إلا أنه منذ اللقاء الأول كان لديه استقلالية قوية عنيدة، تضاهي غرائز الأطفال؛ فهي لا تريد أن تسيطر، كما لا تريد أن يسيطر عليها.

إذن، كيف أصبح هذا الخجول، المنطوي على هموم نفسه "أبو الوطنية" يعلّم الآخرين الكفاح والتضحية وفلسفة الثورة، ويتكلم بزهو وخيلاء، ويهين عِلية القوم وأكابر الناس، جاعلاً من شخصه بالذات مرجع كل كفاح، ومحور كل مجد، والشعب مجرد نكرة، وباتت صوره تعرض في جميع الأسواق، وفي واجهات المحلات. ولم يكن مصور الرئيس الحاذق بحاجة إلى المغالاة في التملق ليعطي لهذا الصعيدي الأصل، طابعاً دكتاتورياً، لأن رأس البكباشي لم يكن مجرداً من أمارات الديكتاتورية: جبهة مستديرة ومتناسقة، وأنف ذو انحناءة مشدودة بعض الشيء، وشفتان حساستان ذواقتان، وعينان قاسِيَتان لا تلتمعان بأي بارقة مودة أو عطف،

ولا تستطيع النفاذ إلى ما ورائهما، وذقن ممتلئة جيدة الاستدارة، ويدان معروقتان كأنهما مخالب نمر.. كل هذا شكّل بروفيلاً مهيباً وجذاباً.

وبدأ انهمار الأغاني والأناشيد التي تشيد بجمال: (يا جمال يا حبيب الملايين)، و(ضربة كانت من معلم..)، (ناصر كلنا بنحبك ناصر) (أجمل أعيادنا المصرية برئاستك للجمهورية) ..

عموماً، على الرغم من هذه الأحاسيس والمشاعر، تجاه عبد الناصر، فقد صاحَبَ سيد قطب مجلس قيادة الثورة وعمل معهم، كمستشار فني للثورة، فألفى نفسه في جو غريب لم يألفه، وكان يلاحظ، أثناء ذلك، مبلغ الحقد الدفين، على الإخوان المسلمين، من قبل المقربين من عبد الناصر؛ حسبما ورد في سجلات التحقيق مع سيد وهو في السجن الحربي: "كنت في ذلك الوقت ألاحظ عن قرب نمو الخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين؛ لأنني أعمل أكثر من اثنتي عشرة ساعة يومياً، قريباً من رجال الثورة، ومعهم، ومع من يحيط بهم، خصوصاً الأستاذ فؤاد جلال- وكيل جمعية الفلَّاح- الذي كان يغذي الخلاف بين رجال الثورة والإخوان المسلمين، ويضخم المخاوف منهم، ويستغل ثقة الرئيس جمال عبد الناصر به، ويبث هذه الأفكار في مناسبات كثيرة، لم يكن يخفيها عني، لأنه كان يراني كذلك مقرباً من رجال الثورة، وموضع ثقتهم..".

في أغسطس ١٩٥٢ طلب رجال الثورة من سيد أن يقدم ندوة في الإذاعة، فأعدّ موضوعاً عن "أدب الانحلال" تم رفضه، بسب إكثار سيد من ترديد كلمة "عبيد" فنشره في بعض الصحف وقدم له بقوله: "كان مقرراً أن يذاع هذا الحديث من محطة الإذاعة المصرية في الساعة الثامنة من مساء ١٠من شهر أغسطس ١٩٥٢، لكن جو المحطة لم يكن قد تطهر بعد إلى الحد الذي يسمح بإذاعة مثل هذا الحديث؛ إذ إن الكثيرين هناك يحسبون أنفسهم مقصودين بوصف "العبيد". كما

أن الحماية ما تزال مفروضة على الأصوات الدنسة التي تذيع على الناس: «الدنيا سيجارة وكاس!».

أصبح رجال الثورة ينفرون من سيد وآرائه التي يرونها أراء إسلامية متشددة، وكذلك بدأ هو ينفر منهم عندما أدرك أنهم يرحبون بالآراء الغربية المخالفة لتعاليم الإسلام. وهكذا فإننا نرى من الساعة الأولى حتى الساعة الأخيرة، أن هذا الكائن الحر الطبيعي، الكامن في سيد قطب، كان يحارب دائماً كل ما هو اصطناعي مزيف في هذا الوسط الذي لم يألفه منذ أن وجد نفسه مغموساً فيه.

على أي حال، في أكتوبر ١٩٥٢، أرسل سيد مع بعض من يثق بهم من أصدقائه وأصدقاء عبد الناصر، فطبيعة سيد تأباه أن يريق ماء وجهه ويذهب بنفسه يستجدي الآخرين- أرسل إلى عبد الناصر يفضي إليه برغبته في تولي وزارة المعارف؛ فهو الأقدر والأكفأ لهذا المنصب. لكن عبد الناصر تجاهل طلبه، بل قابله بالتهكم والسخرية، وفي نهاية الأمر عيَّن وزيراً للمعارف أقل من سيد خبرة وعلماً وكفاءة، مما جعل سيد يثور ويغضب ويحتقر هذا المخلوق، الذي أكد إحساسه القديم بأنه يحسده ويبغضه.

ولم يتأخر رد سيد على هذا العبث، فقام بتقديم استقالته، لاعناً التعليم والوزارة، قائلاً: "لا يشرفني العمل في وزارة يكون أمثال هؤلاء يتحكمون فيها ويديرون شئونها".

كان ذلك في أكتوبر بعد قيام الثورة بأربعة شهور. لقد ضحى بوظيفته وسنوات خدمته، التي بلغت تسعة عشر عاماً. حاول الوزير "إسماعيل القباني" أن يثنيه عن عزمه، لكنه رفض، وظل أكثر من عام ممتنعاً عن العمل، وأرسل القباني طلباً إلى مجلس الوزارة يطالب "مدّ خدمة سيد عاماً حتى تكتمل المدة القانونية لمعاشه" إلا أن مجلس قيادة الثورة رفض الطلب وصادق على الاستقالة من تاريخ تقديمها،

رافضاً أن يضيف، ولو يوماً واحداً، إلى مدة خدمته ليستحق راتبه التقاعدي القانوي.

بمشقة وجد سيد شيئاً من القوت عبر وظيفة متواضعة؛ تصحيح نصوص مطبوعة ليجمّل مؤلفات الآخرين، بيد أن هذا العمل غير المنظم لا يكفي ليطعم الأفواه التي في رعايته. سنوات معتمة طويلة كان عليه أن يقضيها والنفس معتوقة والطاقة مشلولة.

لكن سنوات العوز هذه لم تتمكن سوى من جسده. صحيح أنها أضرت بذلك البدن الضعيف الحساس، لكنها لم تنل أبداً من استقلاليته ومن روحه الأبية.

هكذا فإن هذا الإنسان الحر فضل أن يبقى خادم الفقر الأبدي، فضل أن يخون النوم في لياليه، على أن يخون ضميره المستقل. إنه النموذج العظيم الرائع لأبطال الفكر الحر، وقدسية الكلمة، والحق الراسخ في حرية الفكر والضمير.

منذ الآن فصاعداً، لن يهاجم سيد العهدَ الملكي، ولن يهجم عليه بكلمة، بل راح يستذكر أيامه الخوالي في ذلك العهد الجميل ويتمنى عودتها، وأخذ يقارن بين الحرية التي كانت ممنوحة في ذلك العهد البائد(!)، كما يسمونه الآن، وبين الحرية الممنوحة بعد الثورة.

لقد أطلق العهد الملكي، أيام الاحتلال الإنجليزي، الحرية للصحف أن تكتب ضده ما تشاء، وأطلق الحرية لزعماء الأحزاب بأن يدبجوا الخطب الوطنية التي تهاجم الملك والإنجليز.. كان مصطفى النحاس، وكان سعد زغلول..، وكان مصطفى كامل الذي كان يخطب منددا بالاحتلال، ولا أحد يتعرض له، كان يقيم الاحتفالات في المدارس، التي أنشأها الحزب الوطني، يلعن فيها الاحتلال ويبين مساوئه ولا يتم اعتقاله. كانت صحيفة اللواء تضج بالهجوم والنقد ولا تتم مصادرتها. بل والأكثر: كان يسافر إلى خارج مصر، يخطب ويندد بالاحتلال، ثم لا يكون، ثمت ترقب لوصوله واعتقاله والتحقيق معه.

في الطرف المقابل، كان المثقفون الشوام واقعين تحت نير الدولة العثمانية، يعانون الظلم والقهر والعسف.. الأمر الذي حدا بالكثيرين منهم أن يهاجروا إلى مصر، فيجدون متسعاً لصحفهم ومجلاتهم وكتبهم؛ فأنشأوا الأهرام، والمقتطف، ودار المعارف، ودار الهلال، وروز اليوسف، والمقطم، واللطائف، ومؤسسات ثقافية أخرى.. ثم توالت الصحف المصرية ذات التنوع الفكري: البلاغ، والسياسة، والمصري، وأخبار اليوم..

٤٩- من الثورة إلى الإخوان

عموماً، بعدما نأى سيد عن رجال الثورة ونأوا عنه، أخذ يكتب بعض المقالات ويرسلها إلى الصحف والمجلات لقاء بعض الجنيهات التي تعينه على شظف العيش. في تلك المقالات بدأ سيد يشن هجوماً على الطاغوت، وعملاء الاستعمار، وعبيد الطغيان..، يلمز بذلك رجال الثورة وعبد الناصر بالذات، ولم يرد أحد على مقالاته، وتجاهله رجال الثورة تماماً، وفي هذا التجاهل قتل لهذا الذي لا يمكن أن يعيش بدون شخص ينازله ويتحداه، فكتب يقول:

"في بعض اللحظات، كانت تراودني فكرة بائسة، وتلح علي إلحاحاً عنيفاً. أسأل نفسي في هذه اللحظات: ما جدوى أن تكتب؟ ما قيمة هذه المقالات التي تزحم بها الصحف؟ أليس خير من هذا كله أن تحصل لك على مسدس وبضع طلقات، ثم تنطلق تسوي بهذه الطلقات حسابك مع الرؤوس الباغية الطاغية؟ ما جدوى أن تجلس إلى مكتب، فتفرغ حنقك كله في كلمات، و تصرف طاقتك كلها في شيء لا يبلغ إلى تلك الرؤوس التي يجب أن تطاح؟!".

أرسل رجال الثورة بعض الأصدقاء المقربين منهم ومن سيد، وطلبوا من سيد أن يكف عن هذه المقالات بالتي هي أحسن، فكتب سيد يقول:

"قال له صاحبه- وهو يحاوره- يا أخي اسمح لي أن أقول لك: إنني لم أعد أفهمك.. إنك تريد أن تقف في وجه التيار .. إنك تلقي بنفسك إلى التهلكة بلا روية.. إنك تتصرف كأنك تريد أن تتخلص من الحياة .. قل لي: لحساب من تعرض نفسك لكل هذا؟ أنت تجابه قوى جارفة.. قوى تملك أن تجردك من سمعتك ذاتها فتظهرك للناس خائناً، وتجد ألف شاهد، وألف جهاز من أجهزة الدعاية تهتف بذلك ليل نهار.. إنك لست، غنياً، ولست فتياً، فأنت رجل تدلف إلى الكهولة.. وأنت لا تستند إلى حزب أو هيئة تنفق عليك اذا انقطع رزقك، أو تنفق على أهلك إذا انقطع عنهم عونك لسبب من الأسباب".

ولكن يا لها من بعيدة تلك السحب التي تتجمع مهددة منذرة! وكم لبثت تلك التهديدات بعيدة عن خاطر ذلك المثالي القابع وراء مكتبه، ينفّث عن غضبه ومكنون نفسه. ولم يدر بخلده قط أنه سيضطر عما قريب إلى تسديد الثمن.

ليس هناك شك أن من الأشياء التي صنعت قوة سيد قطب أنه لم يلطف مرة واحدة من صلابة فكرته الأولى، ولم يغيرها. كل كتاباته اللاحقة كانت تعني مُذ ذاك توسعاً في الموضوع، لكن من دون أدنى تصحيح لأفكاره المحسومة من قبل. وما السنوات التالية إلا لتخدم فكرته وتضعها موضع التنفيذ، ولن يغير بعد ذلك كلمة واحدة أساسية، بل وفي المقام الأول، لن يتغير هو شخصياً؛ فإما أن يحطمه المرء أو يتحطم المرء أمامه، كل الحلول الوسطية هباء. ثمة خيار واحد: إما أن تجحده وإما أن تسلم قيادك له. وسيظل أميناً لسجيته تلك، في تكتم وصمت، إلى أن يدركه الموت البطولي الذي اختتم به حياته.

حقاً لقد تأثر شباب الإخوان بمقالات سيد وأسلوبه وجرأته، فبدأوا يثنون عليه ويزورونه، ويتقربون منه، وأعجب سيد باحترامهم وأدبهم وطيبتهم. أهدوه

كتباً كثيرة، على رأسها كتب حسن البنا، التي أعجب بها خصوصاً كتاب "مذكرات الدعوة والداعية" وكتاب "مجموعة الرسائل".

أخذ سيد يتابع نشاطات الإخوان المسلمين ويكتب عنهم وينصحهم، بل وضع نفسه لهم مستشاراً فنياً تحت الطلب، يفكر ويصحح بعض أفكارهم. تقبل الإخوان ذلك برحابة صدر، ووجه سيد نداء للمرشد المستشار حسن الهضيبي، عبر مجلة الدعوة بأن يرد على بعض التساؤلات. وهنا التقط الهضيبي، الرجل الداهية المحنك، التقط هذا الخيط وبدأ يجذبه إليه برفق وهوادة.

قام المرشد الهضيبي بالرد على التساؤلات بطريقة جعلت سيد قطب يقع في حب المرشد الهضيبي والإخوان. بدأ الهضيبي كلامه بقوله "قال الكاتب الجليل الأستاذ سيد قطب.." ثم أثنى الهضيبي، في ثنايا كلامه، بذكاء ودهاء على كتاب سيد "العدالة الاجتماعية في الإسلام" وقال إن الإخوان يدرسونه بدقة..".

هذا التوقير الجم والاحترام المتبادل بين الإخوان وسيد دفعه إلى كتابة مقالين مؤثرين تحدث فيهما عن فضائل حسن البنا، نشرهما في كتابه "دراسات إسلامية" عام ١٩٥٣، كان المقال الأول بعنوان "حسن البنا وعبقرية البناء" والثاني "عدالة الأرض ودم الشهيد حسن البنا"، قال فيهما: " حسن البنا.. تُرى أكانت مصادفة عابرة أن يكون هذا لقبه؟ أم هي الإرادة العليا التي تنسق في كتابها المسطور بين أصغر المصادفات وأكبر المقدورات في توافق واتساق؟ ولكن من يقول إنها مصادفة، بينما الحقيقة الكبرى لهذا الرجل هي البناء، وإحسان البناء، بل عبقرية البناء..".

ثم يقول: "..إن هذا البناء الضخم.. الإخوان المسلمون.. إنه مظهر هذه العبقرية الضخمة في بناء الجماعات.. إنهم ليسوا مجرد مجموعة من الناس، استجاش الداعية مشاعرهم ووجدانهم، إنه عبقرية البناء تبدو في كل خطوة من خطوات

التنظيم: من الأسرة إلى الشعبة، إلى المنطقة، إلى المركز الإداري، إلى الهيئة التأسيسية، إلى مكتب الإرشاد".

في الواقع يعتبر كتاب سيد قطب "دراسات إسلامية" الصادر عام ١٩٥٣ هو الوثيقة العلنية التي يعلن فيها سيد قطب انضمامه إلى الإخوان المسلمين بشكل رسمي.

في مارس ١٩٥٣ انضم سيد قطب إلى الإخوان بشكل رسمي، كان مجال عمله الأمور الثقافية، أما الأعمال الحركية فقد ظل بعيداً عنها، وسافر مع بعض قيادات الحركة إلى دمشق والقدس وألقى هناك محاضرات مؤثرة، حضرها كبار قيادات الإخوان في سوريا والقدس، وبعدما رجع من السفر أوكل إليه "درس الثلاثاء" الأسبوعي، الذي كان يلقيه الشيخ حسن البنا، كما أسندت إليه رئاسة تحرير مجلة "الإخوان المسلمون"، التي توقفت عن الصدور في أغسطس بعد تفاقم الخلاف بين الإخوان ورجال الثورة، وكان يعمل في هذه المجلة إخوة سيد قطب الثلاثة: محمد وأمينة وحميدة.

شاع أن سيد قطب ابتكر شخصية "قرفان أفندي" الكاريكاتورية في مجلة "الإخوان المسلمون"، وأخذ يحملها هجومه الذى أراده على مرحلة ما بعد الثورة، وهذا ربما يكون صحيحاً إلى حد بعيد. وشاع أيضاً أن سيد قطب، بعد إغلاق المجلة، بدأ يكتب منشورات "التنظيم الخاص" التي كانت تصدر تحت اسم "الإخوان في المعركة" هذا ما ذكرته سجلات محاكمات الإخوان عام ١٩٥٤، واعترف بذلك "يوسف طلعت" أحد أعضاء التنظيم الخاص، الذي تم إعدامه عام ١٩٥٤.

كانت ذريعة الإخوان لإصدار هذه المنشورات السرية أن جميع الصحف أصبحت تتبنى سياسة الحكومة، خصوصاً بعد إلغاء جريدة المصري التي كانت لسان حزب الوفد، وبطبيعة الحال لم تكن هذه الصحف تنشر ما يذيعه الإخوان من

بيانات وردود على دعاوى الثورة واتهاماتها لهم، فلجأ الإخوان إلى إصدار نشرات سرية تشن حملات نارية على الثورة وزعيمها ورجالها.

٥٠ – عبد الناصر والمخابرات الأمريكية

عند تحليلنا للعلاقة بين سيد قطب والعقاد قلت هناك: إن من أظهر سمات العصر الذي نشأ فيه سيد قطب والعقاد هو ما كان يُعْرف بظاهرة "الفتوَّات"، تلك الظاهرة التي كانت شائعة ومنتشرة في الحارات الشعبية وقرى الصعيد. لقد كان الفتوة ظاهرة معترفاً بها في ذلك العصر ما لم يتحول الفتوة إلى بلطجي، والفتوة قد يتحول إلى بلطجي في فترة من الفترات، وتحت ظرف من الظروف، وهذا ما حدث مع عبد الناصر الذي يعتبر بلطجياً وليس فتوة.

لقد زَجَّ عبد الناصر نفسه في "لعبة الكبار" أو ما تسمى "لعبة الأمم". هذه اللعبة التي أصبح عبد الناصر أسيراً لها، ولم يستطع الفكاك من شرورها. لك أن تتخيل فتوة أو بلطجي استخدمه كبار القوم لتسيير مصالحهم، ثم هو يقحم نفسه في مصالحهم الخاصة؛ بل يريد أن يستحوذ على رجالاتهم الذين انخرطوا في نفس اللعبة، في حين أن مصدر رزقه ومقومات حياته تتوقف على هؤلاء الكبار؛ ومع ذلك هو يريد أن يستقل بذاته ويصبح لاعباً كبيراً، في حين أنه لا يملك من المؤهلات التي تمكنه من ممارسة هذا الدور. إن مصير شخص كهذا سيؤول إلى أن ينبذه الكبار وينأى عنه الصغار، عند انتهاء دوره الذي أنيط به، وهذا بالضبط ما حدث لجمال عبد الناصر في "عصر الفتوات" عندما استخدمه الغرب كبلطجي في المنطقة، فاستبد به التيه والغرور حتى ظن نفسه نداً لهم، لا بد من إطلاعه على أسرارهم واستشارته في أمورهم.

أراد عبد الناصر أن يبسط نفوذه على الدول العربية ويستحوذ على قادتها ويضمهم تحت لوائه بالترغيب تارة وبالترهيب تارة أخرى. وعندما بدأ بجس

نبض زعماء هذه الدول، وجد أن الأمر ليس بتلك السهولة التي تخيلها، فأوعز لإذاعة القاهرة أن تشن حملة قاسية، دون رحمة ولا هوادة، ضد معارضيه تهدف لإثارة الشغب في الدولة المتمردة. وتكللت خطته بالنجاح فأذعن له الملك الحسين، والملك سعود، وشكري القوتلي رئيس وزراء سوريا؛ إلا أن هذه الدول كانت تلعب على حبلين في آن واحد، مما أزعج عبد الناصر وأخرجه عن طوره وأثار ثائرته، فبدأ في سياسة متقلبة مع هذه الدول طوال فترة حكمه.

وفيما يلي فقرات طويلة، بدون تعليق، من الكتاب الأخطر حول هذا الموضوع، كتاب: "لعبة الأمم" الذي كُتب في حياة عبد الناصر عام ١٩٦٩ وتم تسليط الضوء فيه على أعمال جمال عبد الناصر. كَتب هذا الكتاب "مايلز كوبلاند"[٢٥] ضابط رفيع المستوى في المخابرات المركزية الأمريكية CIA كانت تربطه علاقة وطيدة بجمال عبد الناصر.

يقول مايلز كوبلاند: لقد كنا بحاجة إلى حاكم عربي يجمع بكلتا يديه سلطات تفوق كل ما تيسر لحاكم عربي آخر من قبل، سلطات تمكنه من اتخاذ قرارات تنفر منها الشعوب وتأباها. كان علينا أن ننشد ضالتنا في رجل متعطش إلى السلطة، لا يدفعه إليها إلا حب مطلق وشغف فريد بها. وطفقنا نبحث عن زعيم يكون مجنون سلطة، ولكن بادراك واتزان . لقد حاولنا تنظيم ثورة سلمية في مصر، تحت قيادة الملك فاروق نفسه، بحيث يقوم بإبدال النظام القديم بنظام جديد، لكن الملك كان فاقد القدرة على تركيز أفكاره. وكم من جلسة أبدى فيها تفهماً عميقاً لما يدور في مملكته، ووافق على اتخاذ الإجراءات لتنفيذ خطتنا، لكن في اليوم التالي كان يختفي عن الأنظار، ضارباً بعرض الحائط كل ما اتفق عليه في اليوم السابق..

..أما جمال عبد الناصر فقد كان من نوع آخر تماماً. لقد اعتاد أن يتأقلم إلى حد ما مع كل ربح نجنيه لصالحنا، من خلال عدم اعتباره خسارة له. وعلاوة على هذا،

---

[٢٥] مايلز كوبلاند (١٩١٦-١٩٩١) ضابط فى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية CIA كما أنه رجل أعمال وموسيقار، وأشهر مؤلفاته كتاب لعبة الأمم.

فإن لدى عبد الناصر القدرة على أن يتخذ قرارات حاسمة في المواقف الحرجة، التي تحقق لنا وله بعض المكاسب والمغانم، دون أن يدع المجال لجماهير شعبه أن تراها على حقيقتها. وكمثال على هذا، احتمال التوصل إلى اتفاق مع الإسرائيليين. فالمبدأ القائل "إن عدواً عاقلاً خير من صديق جاهل" هو ذاك المبدأ الذي نحرص عليه كل الحرص، بل و نعض عليه بالنواجذ.

..وهكذا أمكننا بحثنا من العثور على زعيم متعطش للسلطة "بونابرتي الطراز" ذي قدرة على جمع شمل شعبه حول قضية تتوحد فيها مخاوف الأمة وآلامها. ولو أن القدر أحاط عبد الناصر بظروف ما، وأوصدت دونه جميع الأبواب إلا اثنين: إما بقاؤه في السلطة ودمار البلاد، أو خروجه منها ونجاة البلاد، فأيهما يختار؟ ففي تحليلنا لواقع أي زعيم من فئة عبد الناصر- يعشق السلطة حباً في التسلط- يتبين لنا أنه سيفعل كل ما في وسعه للبقاء فيها ولو أدى ذلك إلى انهيار البلاد اقتصادياً، أو دخولها حرباً خاسرة مع أعدائها. واذا كان الحاكم بونابرتي الطراز، فان مبررات استئثاره بالسلطة ستبقى قوية على أمد الدهر، ولن يتزحزح قيد أنملة عن اعتقاده، ولن تفلح أسوأ الكوارث والنكبات في طي صفحة ذلك التفويض الذي منحه إياه الشعب في يوم من الأيام، ولن يجرؤ إنسان على تجريده من السلطة والإطاحة به..

..وكان أول ما بدأ به لضمان حكمه واستتباب سلطته هو توفير "وسائل القمع". وقد رأى عبد الناصر أنه- ببركاتنا ورضانا- سيتمكن من البقاء في القيادة طويلاً، وكل ما كان عليه أن يفعله وقتئذ هو أن يتعرف على آمال الجماهير وأحلامها ثم يهتف بها بأعلى صوته دون منافسة أحد له.. ما عليك إلا أن تدفع الجماهير إلى أن تتشوق وتطمح إلى ما يفيدها ويصلح أحوالها. وعلينا أن نتذكر، أن الهدف الرئيسي من دعمنا لعبد الناصر هو رغبتنا في توفر زعيم في بلد عربي رئيسي، يتمتع بنفوذ قوي على شعبه وعلى بقية العرب، وله من القوة ما يمكنه أن يتخذ ما شاء من القرارات الخطيرة- وغير المقبولة عند الغوغاء- مثل عقد صلح مع

إسرائيل. واستناداً إلى قواعدنا المدروسة وقواعد عبد الناصر، فان استتباب النظام ورضوخ الأمة، أمر يجب تحقيقه ولو اقتضى الأمر استخدام القوة واتباع أساليب البطش والإرهاب..

..ولم يتوفر زعيم في التاريخ الحديث يعرف تمام المعرفة ماذا تريد الغوغاء وإلى أين وجهتها أكثر من عبد الناصر نفسه. وبعبارة أخرى، لم يكن هناك من أدرك أكثر من عبد الناصر نفسه الحقيقة المحزنة بأن الغوغاء لا تدري أنها ضائعة، ولا تعرف إلى أين هي ذاهبة. فالغوغاء لا تريد مصالحها الحقيقية التي إن تحققت أعطتها كفاية وراحة، وليس مجرد تهدئة آنية للآلام. وكانت مهمة عبد الناصر التلاعب بإرواء الرغبات المستعجلة، وذلك لكسب الوقت بينما يسعى لإعداد الوسائل اللازمة لإرواء الرغبات المؤجلة. وقد ملأ عبد الناصر دوراً في مسرحية كان يفتش مخرجها عن ممثل ينجح في تأدية ذلك الدور، كما أفصح عن هذا في كتابه "فلسفة الثورة". والمهم هنا ليس نجاحه في تأدية الدور بقدر ما هو نجاحه في تحديد معالم الدور نفسه. ولقد قطع عبد الناصر شوطاً بعيداً في محاولته لتحديد معالم ذاك الدور بالرغم من إعطائه وصفاً مضللاً في كتابه فلسفة الثورة، ومهما كان فإن معالم الدور قد أصبحت الآن في وضع لا لبس فيه ولا إبهام. لهذا تم اللقاء في الساعة الثامنة مساء في بيت حسن التهامي- كبير أعوان عبد الناصر- في ضواحي القاهرة. وحضرها ناصر وعامر والكولونيلان الأمريكيان وحسن التهامي بالإضافة إليَّ (يقصد مايلز كوبلاند)، وكان الجو ودياً وبعيداً عن التكلف..

..وفيما يخصنا، نحن الأمريكيين، فكل ما نطمح إليه لا يتعدى العثور على لاعب ملائم وماهر، يشاركنا الجلوس إلى طاولة لعبة الأمم، ويؤدي دوره بكل هدوء وانسجام. أما على صعيد السياسة الداخلية، فلم نكن لنتدخل في قرارات عبد الناصر وتصرفاته إطلاقاً، ولم تكن تعنينا شيئاً، طالما أنها لا تضع مخططات سياسته الخارجية موضعاً يتعارض مع سياستنا، ويعرض مصالحنا للخطر. وليس

لنا أن نوجِّه أي انتقاد لعبد الناصر بخصوص طريقة توطيده لدعائم سلطته الداخلية، واتباعه أساليب بونابرتية..

..وقد طالبَنَا عبدُ الناصر في أيامه الأولى بأربعين مليوناً من الدولارات كمساعدة عسكرية، وما لبث أن اختصرها إلى عشرين مليون دولار، ثم مسخت إلى مليون أو مليونين من الدولارات لتغطي شراء أجهزة وأدوات للاستعراضات العسكرية كالخوذ وقرابات المسدسات الجلدية وقطع براقة من مختلف الأنواع، تكفي لإظهار جيشه بمظهر جميل عند استعراضه في شوارع القاهرة، بحيث تعكس على الضباط والجنود الشعور بالاعتزاز والفخر..

..وكان أحد موظفي سفارتنا يقول: إن المصريين يحبون البكوات، لكن عبد الناصر قام بتحطيم هذا الاحترام لحاملي ألقاب البكوات، في مصر بشتى الوسائل الخبيثة، ومنها الأفلام السينمائية، وتمثيليات التليفزيون التي تمثل رجلاً عادياً يطالب بحقوقه ويضرب الإقطاعي صاحب الأرض. إن مشاهد كهذه في قاعات السينما المحلية قد أثارت الاشمئزاز في البداية ولكن سرعان ما ألفتها الجماهير. فمشاهدة عامل على المسرح الآن ثائر على رب العمل، أو مجموعة من الفلاحين تلقي الحجارة على إقطاعي سابق لن تثير سوى موجة من الهتاف عند المشاهدين، مع أن أعمالاً حقيقية كهذه لم تكن مقبولة إطلاقا في الحياة العامة خارج المسرح..

..وكان هدف هذه الأعمال إحداث موجة من الخوف والذعر في الطبقات الأرستقراطية (طبقة البكوات) عن طريق إثارة الشكوك حولها واتهامها بإجراء اتصالات سرية مع فئات أجنبية تنوي غزو البلاد، وإحياء النظام البائد. و نظراً لأنه لا يتصور وجود فئة أجنبية فاقدة العقل والتفكير إلى الحد الذي يخطر ببالها الاعتماد على فئة البكوات المصرية للقيام بانقلاب ضد حكومة عبد الناصر، فقد كان لزاماً على الحكومة أن تقوم بتزييف الأدلة ضد المتآمرين المزعومين، ونشر

خطط خيانتهم المصطنعة والمختلقة. وكانت بعض القصص المنتقاة بعناية والمعززة بالإشاعات، تنتشر بمهارة كافية للغرض ذاته..

..إن عبد الناصر نفسه لم يكن ذا ماض عسكري عريق حتى يشكل عنصر دعاية. ولكنه بنفس الوقت أدرك حدود نشره دعايته في أوساط شعبه، كما أدرك مدى تقصيره فيما كان يجب عليه فهمه منذ زمن، وما يجب عليه أن يتصف به من حذر وخبث تجاه الرأي العام الخارجي. وباركنا نحن الأميركيين هذه الخطوات إلى الحد الذي دعا السفير كافري إلى إعارة النظام المصري أعظم الاختصاصيين في الدعاية السوداء والرمادية "باول لينبارغر" الذي كان مسؤولاً عن الدعاية في مكتب الخدمات السرية الأمريكي أثناء الحرب العالمية الثانية. وقام لينبارغر بتعليم المختصين بالدعاية من المصريين كيف يقومون بتحطيم الشخصيات المحبوبة (ومنها اللواء نجيب على سبيل المثال).

..وعندما وقعنا مع ناصر اتفاقية الجلاء عن قاعدة قناة السويس في أكتوبر ١٩٥٤، كان ضباط جهاز أمنه منهمكين في التحقيق في تلك الأدلة التي وفرها لهم نشاط فرانز بونش. وقام الاتحاد السوفييتي بشن حملة عنيفة على صفحات الصحف الشيوعية ضد ناصر، ونعت أعوانه بالاستبدادية والظلم، ورفع لواء الدفاع عن منظمة الإخوان المسلمين، وامتدحها على أنها أكثر الفئات المصرية مناهضة للإمبريالية، وأجدرها بالثقة، وعندها قام رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية في مصر بالاتصال بواشنطن وطلب منها أن تقنع الإسرائيليين بأخذ زمام المبادرة لتحطيم منظمة الإخوان المسلمين، ولكن بطريقة غير مباشرة. وهكذا أخذت الإذاعة الإسرائيلية تظهر- على طريقتها الخاصة - قدرة منظمة الإخوان المسلمين الضخمة على الإطاحة بنظام ناصر. وهكذا أيضاً ظهر كل من الاتحاد السوفياتي وإسرائيل على أنهما من مؤيدي منظمة الإخوان المسلمين، وقد اتبع رئيس فرع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية هذا "التكتيك" استناداً إلى إحدى

قواعد الدعاية، وهي "مدح العدو لتحطيمه" التي تستعمل في بلدان الشرق الأوسط..

..وفي خلال أزمتنا مع عبد الناصر، فيما عُرف بأزمة السويس، عَرف عبد الناصر كيف يصبح رمزاً لنهضة الشعب المصري المضطهد: لقد حاول إذلال كل من أذل العرب، وبعبارة أبسط، فلقد ظهر على أنه أول منتصر منذ سنوات طويلة خلت، في دولة اعتاد شعبها على أن يعتبر نفسه دائماً من الخاسرين. فلقد حاول أن يَظهر بمظهر متواضع عندما كان يصف نفسه على أنه مجرد ممثل أعلى للشعب، فقد كان يدرك الحقيقة القائلة: إن إشباع كبرياء شعب محروم أكثر أهمية من تأمين خطوات أخرى، تعزز أهدافه الأكثر واقعية..

..وبعد نجاح عبد الناصر في تنحية اللواء محمد نجيب، نجح في الظهور على أنه أول مصري لقرون عديدة ينجح في شق عصا الطاعة علينا نحن الأوربيين ويرفض الخضوع لنا، فبدأت البرامج الدعائية تذاع على الشعب مبرزة هذا الوجه لشخصية عبد الناصر ومؤكدة على مقولة "ناصر يقارع الدول الكبرى وحيداً". وبدأت التمثيليات الإذاعية تُظهِر عبد الناصر جالساً وراء طاولة المفاوضات بهدوء كامل، وببرود أعصاب فريد، ثم ما تلبث أن تنهي حواره مع الكولونيلات البريطانيين بإذاعة بعض عباراته المؤثرة والرنانة، بصوت رزين هادئ، ينبئ عن إصرار وتصميم، وعن رفض للخنوع والخضوع. وكان المذيعون يرتلون بعض المقتطفات الشاعرية من خطب عبد الناصر التي تفيض بأخبار الشعوب الآسيوية والأفريقية والعربية التي تعاني من اضطهاد الأوربيين واستغلالهم، ثم تختتم بترنيمة شاعرية تقول: "ولكن ناصراً سوف، ينقذنا من كل هذا"، ومع أن هذه البرامج كانت غاية في الابتذال والركاكة، إلا أنها كانت ذات تأثير غير قليل في نفوس السامعين من الطبقات ذات الثقافة الضحلة والإدراك السطحي. ولم تبق هناك طريقة يمكن استخدامها في إظهار شخصية ناصر إلا واستخدمت. فقد وزعت صوره في كل

مكان حتى في الكويت- التي لم تكن في يوم من الأيام ضمن دائرة نفوذه- كان نادراً ما تجد حانوتاً يخلو من صورته المعلقة في أبرز مكان فيه..

..وأخذت علاقاتنا تزداد قوة من خلال ليكلاند (المسئول السياسي في السفارة الأميركية بالقاهرة) والضباط الأحرار عن طريق محمد حسنين هيكل الذي كان صلة الوصل بينهم. وقد هيأ هيكل الجو للعديد من المقابلات بين ليكلاند وقادة الضباط الأحرار بمن فيهم عبد الناصر نفسه، واعتاد ليكلاند أن يستقبلهم في شقته المطلة على النيل بترحاب وإكرام زائدين. وأضحى هيكل ذا دور رئيسي في إلباس وجهات نظر كل من عبد الناصر والسفارة الأمريكية حلة بهية قبل نقلها إلى الطرف الآخر...

..وأعرب كيرميت روزفلت[٢٦] عن رغبته في الوقوف على نيات رجال الثورة بعدما استتب لهم الحكم ودانت لهم قطوفه. وانتهى الرأي إلى القيام بانتقاء رجل عسكري، من طراز ضباط الثورة، وانتدابه لتلك المهمة. وكان اختيار روزفلت موفقاً عندما انتزع من زوايا النسيان المستر "ستيفن ميد" الذي كان يمضي وقته في الصين في مهمات غير محددة. وانتداب شخص يكون تاريخه مليئاً بالمغامرات، مثل ستيفن ميد، سيكون له انطباع حسن في نفوس الضباط الأحرار. ولم يكد يمضي، على وصول ميد إلى القاهرة، أسابيع قليلة حتى حاز على إعجاب ضباط الثورة وملك عليهم لبهم. كان مظهر ستيفن ميد بطوله الفارع، وعضلاته المفتولة، وشعره الأصفر، وعينيه العسيلتين، وابتسامته العريضة، وبديهته السريعة، وملامحه الجذابة الناعمة- كان شبيهاً كل الشبه بمظهر الأبطال في الأفلام الأمريكية. فهو من رجال المظليين الذين انضموا إلى وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، ويملك قدرة هائلة على التقاط اللغات الأجنبية بسهولة فائقة ومنها اللغة العربية. أما

[٢٦] كيرميت روزفلت: رئيس فرع الشرق الأوسط لوكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

سلوكه فكان سلوك ضابط نموذجي في أي جيش من جيوش العالم، في حين كان تاريخ حياته المليء بالمغامرات يشكل مادة شيقة لأحاديث السهرة وولائم الليل..

على أن انتداب "ميد" أثار حفيظة عبد الناصر لاعتقاده أن وزير الخارجية دالس ما يزال ينظر إلى الثورة المصرية من خلال نفس المنظار الذي ينظر فيه إلى الانقلابات العسكرية في دول أمريكا الجنوبية. وقد أبدى هذه الملاحظة فيلسوف الثورة "محمد حسنين هيكل" والتقطها عبد الناصر..

..كان ستيفن ميد يتمتع بموهبة فائقة في معرفة الناس ووزنهم وتحليل دوافعهم ونياتهم. وما لبث أن سجل ملاحظات مهمة أثبت التاريخ صحتها وانطباقها على صفوة عبدالناصر المختارة من ضباطه الأحرار. وأخذ ميد يميل- بعد أسابيع من لقاءاته المتكررة بالضباط الأحرار- إلى الاعتقاد بأن الثورة لن تكون شبيهة بانقلاب "حسني الزعيم" في سوريا التي كانت تفتقد ميزة الاستقرار والثبات لكثرة الثوار فيها. لقد أمسك حسني الزعيم بمقاليد السلطة كما يمسك رئيس عصابة بمقاليد السلطة داخل عصابته. ولقد أضاعها لنفس السبب الذي يفقد رئيس العصابة سلطته. فأفراد العصابة يطيحون برئيسهم عندما يبدأ الشك يتسرب إلى نفوسهم بأن رئيسهم قد غدر بهم وخذلهم، لذلك لم يدم حكمه أكثر من أربعة أشهر..

..ولقد أرسل لنا ستيفن ميد ملاحظاته عن الثورة المصرية بأنها كانت من تصميم وإخراج عبد الناصر، وكان أتباعه ينقادون له بسهولة ويسر. وبعد مدة غير بعيدة كتب ميد إلى روزفلت يقول: إن هؤلاء الفتيان يرون أنفسهم كأفراد عصابة روبن هود[٢٧] المرحة، وهم مسرورون بهتاف الجماهير لهم على أنهم أبطال الثورة، ولكنني لم أجد واحداً منهم قادراً على شرح ما تريده هذه الثورة، فهم لا يكترثون

[٢٧] "روبن هود" شخصية فلكلورية إنجليزية تمثل فارساً شجاعاً، مهذباً، طائشاً وخارجاً عن القانون، عاش في العصور الوسطى، وكان يتمتع ببراعة مذهلة في رشق ورمي السهام، ويقوم بمحاربة الظلم والطغيان وسلب وسرقة الأغنياء لأجل إطعام الفقراء.

للسياسة، ولعل هذا من حظنا وحظ عبد الناصر معاً. إنهم بحاجة إلى من يدلهم إلى ما يجب عليهم التفكير به وإنجازه..

..ولم تخل مقابلات ميد للضباط الأحرار من فترات حرجة. فقد حاولوا أن يدفعوه، بعد أيام قليلة من وصوله للقاهرة، إلى إقناع عبد الناصر بنصب صف طويل من أعواد المشانق أمام قصر عابدين، لتنفيذ أحكام الإعدام بأعداء الثورة، إلا أن عبد الناصر وضع حداً لانتشار مثل هذه الأفكار عندما طلب من رجاله أن لا يتفوهوا بهذا الموضوع ثانية. غير أن بعضهم استمر في ترديد مثل هذه الأقوال، وبقيت الألسن تلوك مثل هذه الأفكار، إلا أن ستيفن ميد ما لبث أن تحول عن مثل هذا الرأي، ومال إلى اعتبار مثل هذه التصريحات شيئاً عادياً في المراحل الأولى التي تلي الانقلابات والثورات..

..ومع مرور الأيام وكثرة الأحاديث واللقاءات، بدأ ميد يرسم صورة أكثر واقعية- ولكنها أقل جاذبية- حول تنظيم الضباط الأحرار..

ويتابع مايلز كوبلاند قوله: ولم يبخل الخبراء الأمريكيون على عبد الناصر بنصائحهم في هذا السبيل، وقام صلاح سالم، وزير الإرشاد القومي، بحملة واسعة لدراسة الرأي العام لتزويد عبد الناصر بأهم المقترحات التي يمكنه بها أن يوقظ الشعب. وقد قامت سيدتان أمريكيتان بأول الخطوات في هذه الدراسة وهما من مكتب الأبحاث الاجتماعية في جامعة كولومبيا. كما قام الباحثون بإشراف صلاح سالم بالبحث والتدقيق في جميع أنحاء البلاد، واتصلوا بالفلاحين والعمال والطلاب والحرفيين. وكان الباحثون في البداية ثلاثة مصريين وبريطاني واحد وألماني، واتبعوا طريقة السؤال المباشر، وبعدها قاموا باستخدام طريقة أخرى تقوم على فهم آراء الناس عن طريق تحريك عواطفهم وإثارتهم، فيتكلم المسؤول عرضاً عن أفضل الأفلام له، وأحب الألوان إليه، ورأيه في المواضيع الاجتماعية غير الأساسية؛

وبهذه الطريقة توصلوا إلى نتائج أفضل حول حقيقة مشاعر المصريين تجاه البريطانيين والعرب..

..وفي يناير ١٩٥٤ قام "باول لينبارغر" خبير البنتاغون الفريد بفن الدعاية السوداء، بزيارة للقاهرة، وقام بتدوين نتائج دراساته، وقدمت في شكل تقارير إلى جانب ما أنجز من أبحاث على يد صلاح سالم، وقام عبد الناصر بتوسيعها بعد تدوين ملاحظات ذكية عليها، ثم جُمعت في دراسة واحدة احتفظ بها عبد الناصر في درج مكتبه وأقفل عليها..

يقول كوبلاند: حتى ذلك الحين، لم يكن ساسة العرب يكنون أي احترام لعبد الناصر بعد استلامه زمام السلطة علناً من يد محمد نجيب. وكانت نظراتهم إليه لا تختلف عن تلك التي اعتادوا أن يتبادلوها عن إنسان حديث العهد بالزعامة، قليل الخبرة بخفايا السياسة وألاعيبها. إلا أن نظرات الاستخفاف بعبد الناصر سرعان ما تبدلت إلى أخرى مليئة بالاحترام، عندما طفقوا يشاهدونه متصدراً الأخبار، يتبادل الأنخاب مع كبار زعماء العالم برباطة جأش واتزان، ودون تنازل أو استحياء. ففي خلال شهر واحد عام ١٩٥٤، استقبل عبد الناصر في القاهرة كلاً من تيتو، ونهرو، وأنتوني إيدن، والملك حسين، إلى جانب سيل متدفق من رجال الكونغرس وبرلمانات العالم ومراسلي الصحف والمجلات العالمية الذين أخذوا منذ ذلك الوقت يفدون إلى القاهرة زرافات ووحداناً. وكان شعور الشعوب العربية شبيهاً بشعور أهل الريف عندما يشاهدون- وهم في أريافهم- أحد أبنائهم يظهر في مقابلة تلفزيونية مع أشخاص على شيء من الأهمية والمكانة.

وهنا- والكلام لكوبلاند- لا بد من خلق قضية لعبد الناصر ينادي بها لتكون بمثابة "أسطورة"، فكانت الأسطورة هي "القومية العربية"؛ فأصبح كل من ينادي "بالقومية العربية" بطلاً، مع أن القومية العربية كانت مجرد جعجعة فارغة بقيت بعيدة عن كونها حقيقة. فما زال عليك أن تمضي النهار بطوله واقفاً على الحدود بين

سوريا ولبنان لإنهاء الإجراءات، ونفس الوقت عليك أن تمضيه على الحدود الأردنية السورية، إلى جانب تفتيش دقيق للمسافر وإجراءات أخرى مهينة. وما زالت العلاقات بين الحكومات العربية مترديةً وسيئة، علاوة على الإجراءات التعسفية في الشؤون الثقافية والتعليمية بين كل من العراق وسوريا ولبنان ومصر. أما اللاجئون الفلسطينيون فإنهم في الوقت الذي كان ناصر يدعوهم في خطاباته "بإخواننا العرب شعب فلسطين"، كانوا يعاملون أسوأ المعاملة في مصر والبلاد العربية المضيفة لهم.. ومع كل هذا، فقد نمت تلك الأسطورة وترعرعت وأصبحت القوة المسيطرة في سياسة العالم العربي في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات..

..كما لم يكن ناصر، يعرف إلا القليل عن العرب، بل لم يكن يشعر أنه عربي، ولم يكن قد زار أي قطر عربي أو واجه أي شعب عربي، لكنه أصبح زعيماً عربياً بعد أن دخلت كلمة "عرب" القاموس السياسي لشعوب المنطقة. ولم تفلح معرفته المحدودة وقتئذ بالعرب في تحريك محبته لهم، ولم تساعده زياراته لبعض الدول العربية منذ عام ١٩٥٢على اكتساب أية خبرة جديدة في هذا المجال، إنما أكدت له شكوكه السابقة في العرب: فالعراقيون كانوا في نظره متوحشين، واللبنانيون مرتشين فاسدين، ولم تكن بيروت في نظره أكثر من ناد ليلي مترامي الأطراف، والسعوديون قذرين، واليمنيون أغبياء متخلفين، والسوريون مخادعين لا يقدرون المسؤولية ولا يثقون بغيرهم.. إلا أن ناصراً ينكر هذا الآن.

..لقد أصبح ناصر يتمتع بشعبية لا بأس بها في أوساط السوريين واللبنانيين والليبيين والأردنيين، بعد عودته من مؤتمر باندونغ[٢٨]، حيث سيطرت على مشاعر العرب فكرة الوحدة والعروبة. وأصبح الجو العام يتجه إلى موضة عبد الناصر، وأصبح بقاء أي زعيم في السلطة بمقدار تمثله شخصية ناصر: فالزعيم الغاني

[٢٨] عقد «مؤتمر باندونغ» في مدينة باندونغ الاندونيسية عام ١٩٥٥ وحضرته وفود ٢٩ دولة أفريقية وآسيوية، وكان النواةَ الأولى لنشأة حركة عدم الانحياز.

"نكروما" مثَّل أكثر من سبعين بالمائة من طراز ناصر في الحكم، إلا أن ظروفه كانت في حاجة إلى نسبة أعلى من تلك، ولهذا لم يتمكن من الصمود أمامها. ومن هذا النوع، كان كل من سوكارنو في إندونيسيا، وعبد الكريم قاسم في العراق. أما الملك حسين فإنه لم يحاول أن يتمثل أكثر من أربعين بالمائة من طراز ناصر في الحكم، وكان ذلك أكثر مما تتطلبه ظروفه الخاصة، وهذا ما ساعده على البقاء في السلطة. إلا أن المثال الذي تمثل طراز ناصر مائة بالمائة في الحكم، لم يتحقق بعد على الإطلاق.

..وقد تولد عند "بايرود"[٢٩] انطباع أن ناصراً هو القائد الوحيد في العالم العربي الذي يمثل الاتجاه الجديد، والذي بنفس الوقت يمكن لدبلوماسي غربي أن يجري معه مناقشات مفيدة ومتزنة، كما أن ناصراً هو من النوع الذي يمكن للإنسان أن يباحثه بأي موضوع- حتى موضوع الصلح مع إسرائيل- دون أن يخرج عن تحكيم العقل ويلجأ إلى العواطف عند سوق الحجج وسرد البراهين. لهذا السبب فقد رأى "بايرود" ضرورة بقاء الطريقة التي قدمت بها المساعدات إلى ناصر حسب القاعدة القديمة القائلة: "لا يوضع الشحم إلا على الدولاب الذي يحدث صريراً" ولم يكن يدرك حقيقة هذا إلا ناصر نفسه، وزوج من الديبلوماسيين الأمريكيين، ولم يمض زمن طويل حتى أدرك ناصر أنه لا مساعدات بدون صرير، ولا منافع بدون ضجيج، وأنه كلما زاد الصرير ارتفاعاً، والضجة حدة كانت العوائد أكثر، شريطة أن لا ينفذ كل ذلك إلى خارج حدود "الأسطورة" أو يفلت من قيودها.

ويختم مايلز كوبلاند كلامه على عبد الناصر بهذه المقطوعة الشاعرية:

"لكن ناصراً لم يكن من الموفقين، ولم يكن الحظ له من المبتسمين. لقد سجن نفسه في حلقة مفرغة ما خرج منها، ولن يكون من الخارجين. وقلقت عليه حكومتنا الأمريكية قلق الحبيب على الحبيب، وشغل بال الأصدقاء، فلم يغمض

[٢٩] كان مساعدا لوزير الخارجية لشؤون الشرق الأوسط وأفريقيا.

لهم جفن ولم يهدأ لهم قرار. أراد ناصر "الاستعراض الكبير"؛ ليكسب به احترام العالم ويربح المساعدات. غير أنَّ للاستعراض الكبير، تكاليف ومصاريف، وللعالم الخارجي طاقات وأساليب، فهو عن "الاستعراض الكبير" عازف، ولنفقاته غير مستجيب. لقد تعطلت عجلات الاستعراضات الكبرى عن السير، وتوقفت محركاتها عن العمل، وغاصت في الوحول والمستنقعات، ولن تنجو منها إلا بأعاجيب ومعجزات. وفي الوقت الذي يعتبر المحللون المحنكون في لندن وواشنطن وموسكو أن سلوك ناصر لمثل هذا المسلك أمر معقول ومقبول، فإن بقية العالم قد سئمته وضجرت منه حتى تكاد إحدى تلك الدول العظمى أن توقف مجاملتها فجأة وتقول: "فليأخذ الآخرون هذا الرجل، فلقد نلت منه ما يزيد من طاقتي وما يفيض عن كفايتي"، وهنا يتقدم آخرون ليتلقفوه لقمة سائغة، ويبتلعوه هنيئاً مريئاً".

٥١- صدام مع الثورة

في بداية يناير ١٩٥٤ وقع الصدام الأول بين جماعة الإخوان والضباط الأحرار، بعد الاشتباكات التي جرت- أثناء الاحتفال في جامعة القاهرة- بين طلاب الإخوان وحزب الثورة الجديد المسمى "هيئة التحرير". كانت هيئة التحرير هي الحزب الشعبي، الذي أنشأته قيادة الثورة ليستغنوا به عن المساندة الشعبية للإخوان، وليكون سندهم الشعبي في تأييد القرارات السياسية، وهو الذي تطور بعد ذلك إلى "الاتحاد القومي"، ثم انتهى إلى "الاتحاد الاشتراكي".

عموماً، في هذا الاحتفال- لإحياء ذكرى شهداء القنال- حضر بدعوة من الإخوان "نواب صفوي" زعيم حركة «فدائيان إسلام»[٣٠] الذي ألقى كلمة حماسية، راح يشغب عليه فيها الطلاب المنتمون إلى «هيئة التحرير».

عَزَّ على الإخوان أن يظهروا أمام ضيفهم صغاراً لا حول لهم ولا قوة، فاعتدوا على طلاب هيئة التحرير، ورجال الأمن، وأحرقوا سيارة تابعة لهيئة التحرير. وبعد ثلاثة أيام، من هذه الواقعة، بدأت حملة اعتقالات طالت كثيراً من الإخوان، من بينهم المستشار الهضيبي، وعبد القادر عودة. وقد عزَّ على سيد قطب أن يبقى طليقاً بينما الإخوان معتقلون، فقام يدين هذه الاعتقالات بمقالاته النارية، فتم اعتقاله هو الآخر، وكان هذا هو اعتقاله الأول؛ حيث لم يسبق له أن اعتُقل أو سُجِن.

تم نقل بعض المعتقلين إلى معتقل "العامرية" بالقرب من الإسكندرية، ونقل بعضهم الآخر إلى السجن الحربي، وكما حدث في معتقل الطور، أثناء الحكم الملكي، حدث هنا، فتم تحويل المعتقلات إلى جامع للعبادة، وجامعة للتثقيف. كان يبدأ يومهم من صلاة الفجر في جماعة، ثم قراءة الأذكار والمأثورات، ثم درس يلقيه أحد دعاة الإخوان. ثم طابور الرياضة، فالإفطار، ففترة حرة للقراءة والمناقشة والتزاور، ثم صلاة الظهر في جماعة، وبعدها الغداء والقيلولة. ثم فترة العصر للمحاضرات والأنشطة الثقافية المختلفة حتى صلاة المغرب. وبعد العشاء، يكون هناك درس، ثم النوم.

وُضِع مرشد الجماعة وعدد من قادة الإخوان في زنازين انفرادية، ورغم ذلك فقد سُمِح لهم بفتح الزنازين معظم النهار، وكانوا يتزاورون، ويصلون جماعة، وعوملوا معاملة حسنة، لدرجة أن "اللواء نظيم" مدير السجون الحربية، كان يمر عليهم كل صباح يسألهم عن أحوالهم وطلباتهم، وكذلك طبيب السجن الذي كان

---

[٣٠] منظمة فدائيو الإسلام (بالفارسية: فدائيان إسلام) هي منظمة سياسية إيرانية ظهرت في الأربعينيات. وينسب إنشاؤها إلى مجتبى نواب صفوي. هدفت هذه المنظمة إلى إقامة دولة إسلامية، وكانت تؤمن بالعمل المسلح وخاصة الاغتيال السياسي، حيث كان من مبادئها «أن اغتيال الخونة ضد الدين والوطن لا يعتبر جريمة»

يتفقد أحوال المرضى يومياً، يقول الشيخ القرضاوي في قصيدته التي أنشأها أثناء الاعتقال الأول:

دارٌ حَلَلتُ بها أُزارُ وأُخدَمُ ونزلتها ضيفاً أُعَزُّ وأُكْرَمُ
يسعى إليَّ بها المديرُ وجندُه ويزورني فيها الطبيبُ يسلمُ
دار السلام، فليس فيها آلة تُدْمِي، وأنَّى؟ والمقص محرَّمُ

وإذا قارنَّا بين قصيدته تلك، وقصيدته التي أنشدها في أكتوبر، بعد تسعة شهور، أثناء الاعتقال الثاني، سنعرف الفرق بين الاعتقالين:

أعرفتَ ما قاسيتُ في زنزانةٍ كانت هي القبرُ الذي يُؤويني
بل ظلمتُ القبرَ، فهو لذي التقى روضٌ، وتلك جحيمُ أهلِ الدينِ
يُلقى ثمانيةٌ بها أو سبعةٌ متداخلينَ كعُلْبةِ «السردين»
انقطعتُ عن الوجود فلم أعُدْ أعنيه في شيءٍ ولا يعنيني

عموماً، في نهاية شهر مارس عام ١٩٥٤، وبعد شهرين من الاعتقال الأول، تم الإفراج عن جميع المعتقلين، بعد أن نظم الإخوان المسلمون، الذين كانوا خارج السجون، مظاهرة حاشدة، مما اضطر عبد الناصر إلى الرضوخ لمطالبهم والإفراج عن المعتقلين.

٥٢- جحود زملاء القلم

خرج سيد قطب من بوابة السجن دون أن يستقبله أحد من أصدقائه الأدباء، كما لم يزره أحد منهم في بيته. فمنذ اعتقاله الأول نأى عنه أصدقاؤه الأدباء، بينما لازمه المتدينون من الإخوان وغيرهم، وازدادوا قرباً منه وتعلقاً به. فها هو "نجيب محفوظ" الذي كان من أصدقائه المشهورين. كان يومذاك أديباً ناشئاً في الثلاثين من

العمر، قدمه سيد قطب على صديقه توفيق الحكيم، وكتب سيد قطب عنه قبل هذا اليوم بثماني سنوات في كتابه "كتب وشخصيات" عام ١٩٤٢نقتطف منه هذه الكلمات:

"أدب نجيب محفوظ، صفحة متميزة في فصل القصة المصرية الحديثة، نستطيع أن نقدمه على المائدة العالمية، ليساير نظائره في الآداب الأخرى. هذه الظاهرة حديثة العهد في الأدب المصري المعاصر، لم تبرز وتتضح إلا في أعمال قليلة من بين الكثرة الغالبة لأعمال الأدباء المصريين.. لقد كانت الريشة في يد نجيب محفوظ هادئة وئيدة، فوفق في إبراز الملامح والقسمات الجزئية، وساير الحياة مسايرة طبيعية بسيطة عميقة.. ومن الحق أن أقرر أن الملامح المصرية الخالصة عند نجيب محفوظ أوضح وأقوى منها عند توفيق الحكيم.. وكل رجائي ألا تكون هذه الكلمات مثيرة لغرور المؤلف الشاب نجيب محفوظ المرجو- في اعتقادي- أن يكون قصاص مصر في القصة الطويلة..".

لكن في المقابل انظر ماذا كتب نجيب محفوظ عن سيد قطب بعد ذلك اليوم بثلاثين عاماً، وتحديداً في عام ١٩٧٢:

"إنه اليوم أسطورة.. وبالرغم من أنني لم ألق منه إلا معاملة أخوية كريمة إلا أنني لم أرتح أبداً لسحنته ولا لنظرة عينيه الجاحظتين الحادتين، وقد أثار اهتمامي واحترامي بقوة منطقه، واقتنعت بحدة ذكائه ومقدرته الجدلية واطلاعه الواسع.. أذكر أن كاتباً قبطياً شاباً أهداه كتاباً له يحوي مقالات في النقد والاجتماع فحدثني عنه ذات يوم فقال: "إنه ذكي مطلع حساس وذو أصالة في الأسلوب والتفكير. فسألته ببراءة: متى تكتب عنه؟ فابتسم ابتسامة غامضة وقال: انتظر وليطولن انتظارك! قلت ماذا تعني؟ فقال بحزم: لن أشترك في بناء قلم سيعمل غداً على تجريح تراثنا الإسلامي بكافة السبل الملتوية".

ثم يتابع محفوظ كلامه: "..وعلى جدية أخلاقه، وحملاته الصادقة على المنحرفين، تكشف لي جانب منه لم أكن لأصدقه لو لم أخبره بنفسي. ذلك أنه كان يحتقر كاتباً صاحب مجلة ومطبعة، ويقول عنه: " لولا مجلته لما وجد مجلة تقبل أن تنشر له كلمة". ثم يختم نجيب محفوظ قوله: "وكم أدهشني أن أطالع له مقالة (لسيد قطب) يرفع فيها هذا الكاتب إلى السماء! حِرْتُ في تفسير ذلك، حتى علمت بأنه اتفق معه على نشر كتاب له نظير أجر ممتاز لم يظفر بمثله كاتب آخر! وتذكرت في الحال موقفه الأعمى من الكاتب القبطي؛ فأزعجني جداً اكتشاف ذلك الجانب الانتهازي في شخصيته، وساورني شك في صدقه وأمانته. واستقر في نفسي- رغم صداقتنا- نفور دائم منه".

***

لقد تأذى سيد من جحود أصدقائه الأدباء في حياته ومن بعد مماته، وحار في فهم هذا الجحود والوقوف على أسبابه، وشكى جحودَ أصدقائه الأدباء إلى صديقه أحمد أمين، في رسالة بعثها إليه يقول فيها: (راجعتُ كل ما خطته أقلام هذا الجيل كله عن عشرة كتب لي، فلم أعثر إلا على حديث في الإذاعة لفقيد الأدب المرحوم الأستاذ المازني، وإشارة كريمة للأستاذ توفيق الحكيم في أخبار اليوم. هذا كل ما خطته أقلام جيل الأساتذة عن عشرة كتب!).

كل تلك الأفكار كانت تطيف برأس سيد حتى وصل البيت. وصعد الدرج، في مزاج نكد، إلى الطابق العلوي إلى مكتبه، وأشعل النور وقلّب في الأوراق. لقد استهلكت الكتب ثروته وصحته، وهي لا تعود عليه بشيء، فكتاب "طفل من القرية" بيع منه حتى الآن، بعد ثماني سنين، سبع وخمسون نسخة، حتى أن صاحب دار النشر قال له ساخراً: "يبدو أن كتابك كتاب مقدس لا يجرؤ على مسه أحد"!.

إذن، سيتخلى هذا العبقري الأخلاقي، منذ تلك اللحظة، عن الأدب والأدباء وعن الصياغات الفنية، وسيعود إلى عمله الحقيقي الأصيل وهو الصياغة الكاملة لنفسه، فإذا لم يعطه الأدب والأدباء مصيراً فسوف يبتدع لنفسه مصيره الخاص، فإذا نضب معين العرفان بالجميل من ناحية الآخرين فسوف ينقب لنفسه عن ينبوع متفجر في داخله.

إن ارتداده المفاجئ عن الفن وتوجهه نحو الدين، لا ينظر إليه على الإطلاق على أنه شيء غير عادي، فقد بلغ ابن الثامنة والأربعين نقطة حرجة عصيبة. ومثلما يحدث عند كل تبدل عميق في الفكر، يبدأ هذا التبدل بتوعك طفيف للجسد ممهداً لهذه الولادة الجديدة. لقد تلون شعره فجأة باللون الرمادي، وطُرِّزت جبهته بالتجاعيد، ووهنت مفاصله. وفي غمرة انفعاله، وفي خشوع بين يدي الله، يطرح حياة الأدب والأدباء بازدراء، هذه الحياة التي أسعدته ثلاثين حولاً سعادة لا حد لها، ويسأله الإيمان بقلب متوهج متقد.

لا شك أن سيد يصطحب في إيمانه الجديد ضيق صدره المتسم بالاندفاع العاطفي، فليس يكفي أن يطلب إيماناً فحسب، كلا. إنما يجب أن يناله على الفور، جاهزاً بين عشية وضحاها كفأس مطواعٍ يستأصل ماضيه بأسره، سيد لا يريد أن ينتظر صابراً، حتى يتسرب الإيمان التدريجي إلى قلبه. كلا، بل ينبغي أن يشرق الإيمان في قلبه على الفور ساطعاً كالنهار.

في تلك الليلة شارك سيد قطب في المؤتمر الكبير الذي عقده الإخوان في المركز العام، وقد داخله العُجْب بقوة الإخوان التي أجبرت عبد الناصر على الرضوخ لمطالبهم وإطلاق سراحهم، فقال في كلمته الثائرة: "لن نعتقل بعد اليوم، ولن نمسك كالفراخ ونوضع في المعتقلات!" لكن المرشد الهضيبي ألقى كلمة مقتضبة أوصى فيها الإخوان ألا يكثروا من الحديث عما أصابهم من المحن في سبيل الله، فإنهم لا يدرون ما ينتظرهم في الغد!

في الأيام التي تلت هذا اليوم سيُقْبِل سيد على الدعوة، بحماس منقطع النظير، وسوف تزداد أعماله الإخوانية، فيشرف على إعداد الرسائل التي يصدرها قسم الدعوة في المركز العام. كما سيصدر الإخوان نشرات سرية يوردون فيها الأخبار السرية لخلافاتهم مع قيادة الثورة، ويسجلون فيها الكثير من التحليلات والتعليقات، وكان لسيد قطب دور كبير في كتابة تلك التحليلات والتعليقات!

وانهمك سيد في عمله هذا، حتى كان الاعتقال الثاني بعد حادثة المنشية في نهاية شهر أكتوبر ١٩٥٤.

***

كان ما بين الإفراج عن الإخوان والاعتقال الثاني- بعد حادث المنشية- فترة تنيف على سبعة شهور، حدث فيها تطورات خطيرة: اختفى المرشد الهضيبي فلم يُسمع له صوت ولم يُر له طيف، ولم يعد يتواجد في مكتبه أو يصدر توجيهاته، وانقسم الإخوان ما بين مؤيد للتصالح مع عبد الناصر وما بين معارض، وفشلت كل الجهود التي كانت تحاول التقريب بين الإخوان والنظام، مثل محاولة محمود عبد الحليم التي قدم فيها مذكرة رفضها الإخوان وعبد الناصر على السواء، وتحدث عنها بالتفصيل في كتابه: "الإخوان المسلمون أحداث صنعت التاريخ".

وتتابعت الأحداث بعد ذلك بسرعة كأنها الشلال المتدفق، وساد الخط المتشدد الذي كان يترأسه سيد قطب ويحرض عليه في منشوراته، وكان هذا يوافق هوى المرشد الهضيبي، وتم وصف المعتدلين بالخونة المارقين، ومنهم الشيخ الغزالي، والشيخ الباقوري، وسيد سابق، والشيخ القرضاوي.. وتم فصلهم من جماعة الإخوان!

لكن هل هؤلاء فصلوا من الجماعة حقاً؟

لقد كان في فصل هؤلاء خير للجماعة، فهذا هو التنوع الذي كان يسعى إليه ويدعو إليه مرشد الجماعة الأول حسن البنا، لقد كان يريد التنوع والتغلغل في كل ناحية من نواحي المجتمع، من حيث تريد الجماعة أو لا تريد. بهذا الفصل الذي تم لهؤلاء من جماعة الإخوان، أصبح الشيخ الباقوري وزيراً للأوقاف، وأصبح الشيخ "محمد الغزالي" مسئول الدعوة والمساجد، وأصبح الشيخ "سيد سابق" مدير الثقافة.. هؤلاء المفصولون كانوا إخواناً، لا يختلفون عن الإخوان إلا في قرار الفصل الذي احتفظت به الجماعة في سجلاتها الخاصة، لكنهم كانوا إخواناً لحماً ودماً لا يختلفون عن دعوة الإخوان، التي نادى بها حسن البنا، بل لربما كانوا أكثر معرفة وتشرباً لروح المرشد الأول ممن كانوا في خضم الجماعة يصدرون القرارات ويعطون التوجيهات. فلهؤلاء المفصولين يرجع الفضل في نشر الإسلام الوسطي في ربوع الدنيا، إنهم كالطيور المهاجرة؛ ما إن تقوى على الطيران حتى تغادر أعشاشها وآباءها وأمهاتها، فلم يعد يربطها رابط مكاني بالعش الذي نشأت فيه، إنها لو بقيت في عشها لفسدت وأفسدت. هكذا كان هؤلاء المفصولون من الجماعة بقرار من مكتب الإرشاد.

٥٣- حادثة المنشية

إن كتابة شيء عن حادثة المنشية، التي تعرض فيها عبد الناصر لإطلاق الرصاص وهو يخطب في الجماهير، تعني الرجوع إلى قراءة كافة الأوراق التي كُتبت عن هذه الحادثة ولا زالت تكتب منذ ما يقرب من سبعة عقود من الزمن وحتى يوم الناس هذا. ومع ذلك، فمن الصعب تقديم قصة معقولة عن تلك الحادثة، لأنها كما جرت في الواقع لهي من أغرب القصص؛ فعندما تمتزج فكرة شيطانية بشهوة الحكم الإنسانية، فإن خيال المخيلة ليفوق في نشاطه وحيويته، وفي توزيع الأدوار، وحبك الحكاية، أمهر القصاصين؛ إذ عمدت قيادة الثورة، لكي تستأصل

شأفة الإخوان، إلى تدبير هذه الحادثة في الوقت الذي كانت الثورة في أشد الحاجة إلى مبرر لضرب الإخوان الضربة القاضية، وإعادة رسم الصورة الشيطانية لهم.

لقد أوفد الأمريكيون، حسبما أشار مايلز كوبلاند سابقاً، مسئول الدعاية السوداء "باول لينبارغر" لإبداء اقتراحاته لإبراز نجومية عبد الناصر والتخلص ممن ينازعونه على السلطة. والأمريكيون خبراء في هذه الأدوار، فاقترح هذا الرجل المُغوي "لينبارغر" افتعال محاولة اعتداء على حياة عبد الناصر، ينجو منها بفضل شجاعته وثباته، كما يحدث مع أبطال السينما الأمريكية، وبهذا يستحوذ على مشاعر المصريين ويجعلهم يصطفون خلفه، وفي نفس الوقت يمقتون أعداءه، ويتمنون هلاكهم.

لكن لا بد لهذه المسرحية من أبطال يمثلون أدوارها، في حين أنهم لا يعرفون أنهم يمثلون، إنها شبيهة بتلك المراقبة التي تجري في حدائق الحيوانات الطبيعية، حيث تظن الحيوانات أنها في ليل دامس لا يراقبها فيه إنسان، إلا أنها في الحقيقة تكون غارقة في بحر من الأشعة تحت الحمراء (التي تجعل الأشياء منظورة في الظلام) وأبصار المتفرجين محملقة فيها، من خلف نظّارات خاصة، وهذا ما آلت إليه حادثة المنشية عام ١٩٥٤.

طفق رجال المخابرات يفتشون عن بطل لهذا الدور، حتى عثروا على المحامي الإخواني "هنداوي دوير"، ذلك الرجل النرجسي المغرور الثرثار محب الشهرة.. كان دوير قد صرح أكثر من مرة أمام عدد من الناس: "لازم نقتل جمال عبد الناصر"، فتم اعتقال "هنداوي دوير" بدون ضجيج، وبعيداً عن مكتبه، واجهوه بالتهمة فأنكرها في البداية، لكنه سرعان ما اعترف بكل شيء، بعدما تم إسماعه تسجيلاً تم وضعه في مكتبه، وعرضت عليه بعض الصور التي تظهِر شراءه مسدساً، وتم إعلامه بأن هذه التهمة عقوبتها الإعدام، لكن هناك سبيلاً واحداً لتجنب الإعدام، بل هو أيضاً السبيل الوحيد إلى منحه الامتيازات والتسهيلات:

سبيل التعاون مع رجال المخابرات وتنفيذ تعليماتهم، وذلك كله أولاً وأخيراً لمصلحة الوطن وخداع الأمريكان كما أوهموا هذا الغِر المخدوع.

وهكذا فإن أكبر حادث خداع في التاريخ الحديث كان في طريقه إلى الإخراج والتمثيل.. كان المطلوب من هنداوي دوير أن يمضي في دوره حتى النهاية، ويختار رامياً ماهراً من الإخوان، دون الإفصاح له عن الحقيقة، كي يكون الدور محبوكاً. فقام دوير بتكليف محمود عبد اللطيف، أمهر "نشانجي" منذ حرب فلسطين، وأوهمه أنه مكلف من قيادة الإخوان، وأعطاه مسدساً وبعض الجنيهات، وطلب منه إطلاق الرصاص على عبد الناصر وهو يخطب في الإسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر.

تمت مراقبة تحركات محمود عبد اللطيف، وقبض عليه في صباح يوم الحادث بتاريخ ٢٦ أكتوبر ولم يعترف بالمهمة المكلف بها من المحامي دوير، كما لم يعترف بتسلمه مسدساً، ومع ذلك تم اقتياده إلى الإسكندرية، إلى المكان الذي سيخطب فيه عبد الناصر، وعلى بعد ٣٠٠ متر من المنصة التي سيقف عليها عبد الناصر تم إيقافه، وأعطوه مسدساً محشواً بالبارود الفارغ، ووقف حوله ثلاثة حراس من رجال البوليس السري بلباس مدني، وحين شرع عبد الناصر في خطابه، قام واحد من الحراس الثلاثة، الذين يطوقون محمود عبد اللطيف، بإطلاق ثماني رصاصات في الهواء، وتم القبض على محمود عبد اللطيف كأنه هو مطلق الرصاص.

توقف عبد الناصر عن خطابه لحظة حينما دوى صوت الرصاص، ثم استأنف خطابه، وأخذ يحث الجماهير التي بدأت في التفرق والتشتت على العودة إلى أماكنها، ثم قال:

"أيها الرجال الأحرار.. أيها الرجال.. حتى لو قتلوني فقد وضعت فيكم العزة، فدعوهم ليقتلوني الآن، فقد غرست في هذه الأمة الحرية والعزة والكرامة، في سبيل مصر وفي سبيل حرية مصر سأحيا، وفي خدمة مصر سأموت".

أتم عبد الناصر خطابه حتى النهاية، ولم تتأثر أسرته التي تتابع الخطاب عبر الإذاعة، كما لم تُفسِد هذه الرصاصات مرح أطفاله الذين يلعبون في الحديقة في تلك اللحظة، كما روى ذلك كبير أمناء القصر الجمهوري "صلاح الشاهد" في مذكراته[٣١]، بأنه كان يقود سيارته، وهو يستمع إلى خطاب عبد الناصر، فلما سمع إطلاق الرصاص، أسرع نحو بيت عبد الناصر، فلم يجد في البيت ذعراً ولا اضطراباً، وأخذ يداعب أولاد عبد الناصر الذين كانوا يلعبون، ويعجب وهو يشاهد الاطمئنان التام على وجوه جميع من في البيت.

ظهرت الصحف في اليوم التالي تحمل في صدر صفحاتها الأولى نبأ القبض على المجرم (بدون نشر صورته).. قالت جريدة الأهرام: "لم يكد المجرم الأثيم يطلق رصاصاته الغادرة؛ حتى كان الجمهور قد هجم عليه، وعلى ثلاثة أشخاص يقفون على مقربة منه، ودخان الرصاص يتصاعد من حولهم، وكاد يفتك بهم؛ لولا أن بادر رجال البوليس والمخابرات بالقبض عليهم، وضبط السلاح في يد المجرم، واقتيد الأربعة إلى نقطة البوليس.. ويدعى الجاني محمود عبد اللطيف، وينتمي إلى جماعة الإخوان المسلمين".

هكذا نشرت جميع الصحف، ولم يُنشر حتى هذا اليوم ولن ينشر فيما بعد، شيء عن الثلاثة الآخرين الذين قيل إنهم ضُبطوا مع الجاني. ومضت خمسة أيام كاملة دون أن تُنشر صورة واحدة للمجرم.. وأخيراً نُشرت صورته، وآثار التعذيب واضحة تماماً على وجهه.. ونُشر تحتها تعليق يقول: "صورة الجاني، ويبدو فيها آثار اعتداء المواطنين عليه حينما تم القبض عليه".

تم اعتقال هنداوي دوير، وعومل معاملة حسنة داخل السجن الحربي، حتى يستمر المغفل في غفلته، ولم يسمح له بالاختلاط بالمعتقلين، وانتظر في نشوة طاغية قرار الإفراج عنه مع مكافأة على هذا الدور البارع الذي أداه بإتقان، لكنه تفاجأ بأن

[٣١] ذكرياتي في عهدين (صلاح الشاهد).

المحكمة تحكم عليه بالإعدام، ومع ذلك لا يزال على ثقة من تنفيذ وعد المخابرات له، وبقي مفعماً بهذا الأمل إلى أن اقتيد إلى حبل المشنقة فجراً وآثار النوم الهادئ العميق على وجهه، وبقايا أحلام سعيدة كانت تراوده، فأخذ يصرخ هلعاً معتقداً بأن في الأمر سوء فهم: "أين جمال عبد الناصر؟ إننا لم نتفق على هذا، ضحكوا عليَّ.. خدعوني.. ضحكوا عليّ، مش دا اتفاقنا.." ودفن معه السر الكبير.

يقول الدكتور أحمد شلبي، وهو لا ينتمي إلى جماعة الإخوان: "أعتقد أن الحادث مختلق، وأسطورة مصنوعة لم يستطع مؤلفوها أن يجيدوا حبكها، فجاءت بها هذه الثغرات التي كشفت عن حقيقتها، ولكن ذلك كان بعد إراقة الدماء البريئة، وبعد تعذيب عدد هائل من أصفياء المسلمين، وإذا كان الظلام قد أحاط بهذا الحادث في حينه فنرجو أن تكون أشعة الضوء التي دونّاها كافية لإبراز الحقيقة ولإنصاف المظلومين ومعاقبة الآثمين" أ.هـ

في الواقع، لست ممن يميلون إلى الاعتقاد بأن الحادث من تدبير عبد الناصر شخصياً، فالطريقة التي تصرف بها عبد الناصر، أثناء إطلاق الرصاص وبعده، كانت تلقائية إلى حد كبير، لكن هذا لا ينفي علم عبد الناصر المسبق بالحادث؛ حيث تم إبلاغه بأنه: "تم إحباط مؤامرة لإطلاق الرصاص عليك، من قبل شخص ينتمي إلى جماعة الإخوان، وتم حشو مسدسه بالبارود الفارغ، ورجال الأمن يحيطون به في المكان، وسيتم القبض عليه عند لحظة شروعه في إطلاق الرصاص".

لكن عبد الناصر، العسكري السابق، بعدما أخذ يتابع ملف القضية فيما بعد، ساوره شك في الأمر، حيث نشرت الصحف سابقاً أنه عُثر في المكان الذي يقف فيه الجاني على أربعة أظرف فارغة من عيار ٣٦ ملليمتر، وهي تختلف عن طلقات

المسدس الذي ضُبط مع المتهم، إذ إن المسدس الذي عُثر عليه مع المتهم من نوع المشط الذي لا يلفظ الأظرف الفارغة!

وفجأة، وبلا أي مقدمات، وبعد الحادث بستة أيام؛ نشرت جميع الصحف صورة عبد الناصر وأمامه عامل بناء ممسكاً بمسدس من عيار ٣٦ ملليمتر. ومع الصورة حكاية مثيرة تقول: "إن هذا الرجل عامل بناء اسمه "خديوي آدم".. كان يستقل الترام يوم الحادث عائداً إلى منزله، وعندما شاهد الناس مجتمعين، وعلم أن عبد الناصر سيلقي خطاباً، نزل من الترام واندس وسط الجماهير. وعندما دوى صوت الرصاص وساد الهرج الآلاف المجتمعة سقط على الأرض، وشعر بشيء يلسعه في ساقه.. وتحسسه فوجده مسدساً، وكانت ماسورة المسدس لا تزال ساخنة.. وأيقن في الحال أنه المسدس الذي استخدمه الجاني في إطلاق الرصاص على زعيم البلاد، ووضع المسدس في جيبه واعتزم بينه وبين نفسه ألا يسلم المسدس إلا لعبد الناصر شخصياً.

وتستطرد القصة في استكمال حبكة خيوطها، حتى لا يتساءل أحد عن السر في عدم تسليمه المسدس في نفس الليلة في الإسكندرية وانتظاره خمسة أيام.. فتقول القصة: إنَّ "خديوي آدم" رجل فقير جداً يوميته ٢٥ قرشاً، ولم يكن يملك ثمن تذكرة قطار أو أوتوبيس يحمله إلى القاهرة، فسار على قدميه من الإسكندرية إلى القاهرة، فوصلها بعد ستة أيام، وتوجه في الحال إلى مجلس قيادة الثورة، وطلب مقابلة جمال عبد الناصر.. وأعطاه المسدس فكافأه عبد الناصر بمائة جنيه!.

سيبقى السؤال قائماً بلا جواب عن هوية الشخص الذي أرسل المسدس مع هذا الرجل إلى عبد الناصر، ليقص عليه هذه الحكاية المسلية، ومن ثم يبتلعها عبد الناصر بسهولة!

هكذا، وبفضل هذا الرجل المأجور، ظهر سلاح جديد في الجريمة طلقاته من عيار ٣٦ ملليمتر، من نفس أظرف الطلقات التي عثر عليها، واختفت تماماً سيرة

المسدس الذي ضُبط في يد الجاني لحظة القبض عليه.. وبدأت في كافة محافظات الجمهورية حملة الاعتقالات المحمومة، التي كانت كشوفاتها قد أعدت مسبقاً؛ إذ شملت مختلف الفئات والمهن؛ طلاب جامعات، ومحامين، ومدرسين، وأطباء، وكتاب، وصحفيين، وعمال، وفلاحين، وضباط جيش، وضباط بوليس، وتجار..

٥٤- الاعتقال الثاني

في ٢٧ أكتوبر ١٩٥٤ وفي الساعة الثانية صباحاً كان باب منزل سيد في حلوان يدق دقاً عنيفاً بلا انقطاع، مما أفزع جميع من في المنزل، فلما فَتح سيد الباب تفاجأ بعدد من الرجال المسلحين يندفعون بسرعة إلى الداخل فسألهم بعصبية: ما الخبر؟ فكان الجواب: اسكت يا ابن الكلب وما تتكلمش!

-"أنت ابن ستة وستين كلب.. والله سوف تدفعون ثمن هذا التهجم.." ولم يتم سيد كلامه حتى انهالت عليه الصفعات والركلات، ووجد نفسه مثبتاً بالحائط، عاري الصدر والقدمين. وانتشر المسلحون في البيت يفتشون كل شيء.. لم يكن تفتيشاً، بل كان تخريباً: شقوا الوسائد والفراش بالسكاكين، كسروا الأواني، حطموا الخزَانات..

ثم اقتادوا سيد إلى حجرة مكتبه، وعلى كرسيه جلس رجل في تراخ، يرتدي ثياباً بنية داكنة، راح يعبث في مسدس أبيض لامع. كان التفتيش في المنزل يجري على قدم وساق، وما إن تمضي فترة هدوء حتى تعلو ضجة جديدة: صندوق يحاولون فتحه فيتكسر، صوت قفل حقيبة يتحطم، وفي ركن الصالة جلست أختاه حميدة وأمينة ترتجفان وتبكيان..

سألوا سيد: أين تخبئ المنشورات؟ فرد عليهم بتهكم: منشورات إيه؟

وهنا بادروه بصفعة مدوية أوقعته أرضاً، ثم وضعوا الحديد في يديه والعصابة على عينيه وجذبوه من ذراعه، وهنا وجه لهم كلمة أخيرة: أريد أن أقول لكم إن في البلد قانون، وما تفعلونه بلطجة.. فباغتوه بصفعة أخرى واصطحبوه معهم.

نزلوا درج البيت، وارتفعت أصواتهم في ضوضاء صاخبة، فلما وصلوا إلى الحديقة، ألقى سيد نظرة أخيرة على المقعد الذي كان يتسامر فيه مع الضباط الأحرار وعبد الناصر في ليالي الصيف، وزوى ما بين حاجبيه الكثين الغامقين اللذين يظللان نظراته الملتهبة، ثم غلبته حمى الغضب، وتثنت الأشجار التي اجتاحتها العاصفة وترنحت تحت صفعات ريح الخريف المجنونة، ثم زَجّوا به في سيارة شرطة (بوكس) من نوع فولكس فاجن، وجلس على المقعد الطويل، وقبل أن يغادر المكان كان هناك صوت واهن حزين يشق هدأة الليل يأتي من نافذة البيت: "مع السلامة يا خويا وماتحملش هم".

لقد تركوا أختيه حميدة وأمينة وهما تبكيان في البيت الذي لم يعد فيه شيء يصلح للاستعمال. وساروا في الطريق الذي لا يسمع فيه إلا صوت محرك السيارة الخشن، وهو يشق الشوارع والمنعطفات، يساراً ثم يميناً، حتى اقتادوه إلى مركز الشرطة مع عشرات المعتقلين وسط سيل من الضربات؛ هذا يرفس برجل ويركل بأخرى، وذاك يلكم بيد ويلطم بأخرى.

في الواقع، حتى هذه اللحظة فإن كل ما مضى كان نعيماً..

فما إن دخلوا حتى انهالت عليهم العصي والكرابيج مع طوفان من السب المقذع: اجرِ على المكاتب أنت وهو يا ابن...، حتى انتهوا، بعد دهر طويل، إلى جناح يقف في أوله ضابط يرتدي نظارة سوداء في يده سيجارة وزجاجة كوكا كولا ليستلم المعتقلين من مندوب الداخلية.

وفي مكتب التحقيق سئل عن أشياء فأنكرها، فقال الضابط:

- اسقه شاي يا صفوت[٣٢].

فإذ بالشاي خمسين كرباجاً، ثم زجوا به داخل زنزانة حالكة السواد، ولم يمهل في زنزانته ليلتقط أنفاسه ويستجمع أفكاره، فما هي إلا لحظات حتى سَمع صوت القفل الكبير لباب الحجز وهو يفتح، وتوالى فتح الزنازين وسار مع عشرات المعتقلين وأيديهم مكبلة بالسلاسل، في اتجاه مكتب المحقق، يرافقهم أكثر من عشرين شرطياً. كانت تجري كل هذه الأحداث بصمت جليدي، ودقة تامة، وإصرار عجيب حتى لكأنها تجري في عالم من الأشباح. كان المسوقون خليطاً من أبناء مصر؛ المهندس والطبيب والمحامي وطالب الجامعة والمدرس وجماهير من العمال والفلاحين والتجار.

وقف سيد بالباب طويلاً حتى استدعاه المحقق وقال له:

الحمد لله على السلامة؛ فلم يرد. فتابع قوله: أنت مبسوط؟

-إيه الحكاية وإيه اللي جابني هنا؟ انفجر سيد بغضب!

-ستعرف كل شيء. وعلشان تستريح خذ هذه الورقة واكتب كل ما تعرفه عن تنظيم الإخوان، وعن المنشورات، ومن تعرف من قياداتهم، وكيف عرفتهم..، يعني اكتب كل شيء..

كتب سيد معلومات عامة وأعطاها له فلما قرأها قال: أنت يا ابن ..، أنا لا زلت بعاملك كإنسان، لكن يجب أن أعاملك أحط من الحيوان، وأخليك تكتب وتتكلم، وفي هذه اللحظة انهال الشرطيان اللذان كانا خلفه عليه بالضرب.

وبعد فترة من الضرب قال المحقق: حاتتكلم؟

هنا امتنع سيد عن الكلام وبقي ينظر إليهم نظرات نارية متجهمة تنم عن احتقارهم وازدرائهم. فوجد نفسه منطرحاً على الأرض وقدماه موضوعتان في

[٣٢] هو صفوت الروبي الذي كان يتولى تعذيب المعتقلين بوحشية.

الفلكة، وجلس شرطي على صدره الضعيف بينما انهال زميله على قدمه بالكرباج حتى راح في غيبوبة. ثم سحبوه إلى زنزانة صغيرة وتركوه.

خيم صمت طويل طويل، وبدا ضوء النهار يتسلل من ناحية كوة صغيرة في الحائط، كان الجو بارداً، وسيد ينام ويستيقظ وهو مخدر الجسم لا يعي ما يدور حوله كأنه في كابوس لا يقوى على الاستيقاظ منه. وفجأة دون أي ضجيج يسمع، أو صوت باب يفتح انبثق صوت. كان صاحب الصوت شاباً يرتدي ملابس بلون الكاكي الفاتح، قدم له قطعة خبز وغطاء وأمره أن يحييه تحية عسكرية في كل مرة يدخل فيها عليه، كان سيد لا زال ملقى على الأرض لا يقدر على فتح عينيه إلا بصعوبة، ومن الكوة الصغيرة، لمح جانباً من السماء الزرقاء، هل كانت الساعة الثامنة أو العاشرة، أو منتصف النهار؟

***

عندما فتح باب الزنزانة، كان يسمع صوت أذان، لكن لم يدر بالضبط أهو الظهر أم العصر، واقتيد إلى مكتب التحقيق، وهو لا يقدر أن يمشي على قدميه فجروه جراً. كان يرى الشباب المعلقين على الأعواد، والسياط تلهب أجسادهم العارية، وبعضهم سلطت عليه الكلاب الضارية، وبعضهم يقف ووجهه إلى الحائط في انتظار دوره في التعذيب. كان سيد يعرف عدداً كبيراً منهم، ممن يحضرون درس الثلاثاء، أو ممن زاروه في بيته..

"ربنا معاك يا أستاذ" انزلقت هذه الكلمة إلى أذن سيد من أحد الجوانب، وتوالت بعدها أصوات الكرابيج التي انهالت على قائلها..

لم يصدق سيد ما تراه عيناه، هل نحن في مصر؟

كان سيد مستغرقاً في التفكير حتى وجد نفسه قد أجلس على مقعد في وسط حجرة رحبة، أثاثها معدني، تغطي أرضيتها سجادتان أو ثلاث، نوافذها مفتوحة،

والبرودة تعم المكان، وعبر النافذة، كانت الشمس تبدو شاحبة، وكان في الغرفة خمسة أشخاص أو ستة، غادروها بمجرد دخوله.

خيم صمت قطعه صرير أبواب، وما لبث أن دخل شخص سأله عما إذا كان هو سيد قطب، فهز رأسه دون أن يجيب، وبعد لحظة دخل رجل، يرتدي بدلة، طويل الجسم أشيب شعر الرأس، وقال متصنعاً اللطف:

أهلا يا أستاذ سيد، أتمنى ألا يكون قد ضايقك أحد.. أنا عارف إنهم سفلة، وأنت مش حمل بهدلة.. ونادى على عسكري ليحضر له كأس شاي، فأحضره بسرعة كأنما كان يحمله وينتظر الأذن فقط، ثم وضعه أمام سيد على المكتب.

قال الرجل ذو الشعر الأشيب بعد صمت لم يطل:

ياريت تجاوبني على بعض تساؤلاتي عشان ترجع لبيتك وتخرج من هذا المكان النهاردة قبل بكرة..

لقد قلت لكم كل شيء، ليس هناك أسرار في حياتي..

-إيه علاقتك بالمرشد حسن الهضيبي؟

علاقة عادية، كانت تجري بيننا حوارات عن أفضل طريقة لنشر الدعوة الإسلامية..

-هل كلفك المرشد أن تشتري آلة "رونيو" لطباعة المنشورات؟

لم يكلفني أن أشتري أنا. لكن حين أغلقتم جريدة (الإخوان المسلمون)، وبقيتْ لدي تعليقات كثيرة لم يسمح الرقيب بها. شكوت إلى المرشد هذا الأمر، بأننا لا نستطيع أن نوصل صوتنا إلى الشعب، لا عن طريق الصحف، ولا عن طريق المنشورات. فأخبرني أن مكتب القاهرة له إمكانيات، ويطبع منشورات الإخوان، فيمكن أن يطبع هذه المقالات والتعليقات، التي تقف الرقابة دونها.

فلما جئت إلى رئيس مكتب القاهرة، قال: ليس لدي إلا ماكينة صغيرة. فأبلغت المرشد، فأمر أن يُصرف ثمن ماكينة "رونيو" حديثة لهذا الغرض، ليس للمنشورات، ولكن لأعمال الطباعة بمكتب القاهرة (أيضاً)"[٣٣]

قيل إن كلمة (أيضاً)، التي وردت في آخر كلام سيد، كانت إضافة من المحققين؛ فقد كان هذا دأبهم في استجواب المعتقلين. لكن على الرغم مما قيل في هذه المسألة؛ فإن سيداً قد اشتهر بجرأته وصراحته، خصوصاً عن الأشياء التي اعترف بها الآخرون وسجلت في محاضر التحقيق، ولم تعد هناك فائدة من إنكارها؛ فهي تحصيل حاصل.

بعد التحقيق مكث سيد في السجن الحربي انتظاراً للمحاكمة.

٥٥- في السجن الحربي

السجن الحربي، مبنى مربع مكون من ثلاثة أدوار، بناه الإنجليز أيام الاحتلال لمصر؛ ليعاقَب فيه العساكر الذين يخالفون القانون، وقد قُسِّم على أساس أن يكون لكل سجين زنزانة يسجن فيها انفرادياً، أما الآن فقد وضع في كل زنزانة سبعة أو ثمانية، في حين أن الزنزانة حجرة صغيرة، نحو مترين في متر ونصف، فيها نافذة صغيرة عالية قريبة من السقف، مسورة بالحديد، مفتوحة باستمرار، لها باب أسود يُغلق بقفل من الخارج.

ما يهمنا في الأمر أن سيداً أعيد إلى زنزانته مع سبعة من المعتقلين الآخرين؛ بحيث كانوا لا يرون الشمس في النهار إلا فترات قصيرة جداً حتى كادوا أن ينسوا أن في العالم يوجد شمس وقمر، فكانوا يتشوقون إلى رؤية الشمس أكثر من شوقهم إلى رؤية عائلاتهم، وقد أشار إلى ذلك في تفسيره الظلال، بقوله:

---

[٣٣] وردت هذه الأقوال في سجل محاكمات الإخوان عام ١٩٥٤ الذي أصدرته الحكومة آنذاك.

«وكنا مدة طويلة محرومين من رؤية الشمس، وكان شعاع منها لا يتجاوز حجمه حجم القرش، ينفد إلينا أحياناً. وإنْ أحدنا ليقف أمام هذا الشعاع، يمرره على وجهه ويديه وصدره وظهره وبطنه وقدميه ما استطاع! ثم يخلي مكانه لأخيه ينال من هذه النعمة ما نال!.. ولست أنسى أول يوم بعد ذلك وجدنا فيه الشمس. لست أنسى الفرحة الغامرة، والنشوة الظاهرة، على وجه أحدنا، وفي جوارحه كلها، وهو يقول في نغمة عميقة مديدة.. الله! هذه هي الشمس.. شمس ربنا.. وما تزال تطلع! الحمد لله!» أ.هـ

وفي وقت الضحى كان المعتقلون يقفون صفوفاً صفوفاً في فناء السجن المترب، وكان كل من يمر بهم من العساكر يجرب سوطه فيهم، بينما أغنية أم كلثوم تصدح: "يا جمال يا مثال الوطنية، أجمل أعيادنا المصرية، بنجاتك يوم المنشية"!

وفي ذلك الوقت كان قائد السجن حمزة البسيوني، الذي اشتهر بتحدي القانون والنظام والدين وكل شيء حتى الله تعالى؛ حيث كان يتبجح قائلاً: هاتوا لي ربكم وأنا أحطه في زنزانة!.

وكانت الكلاب أداة أساسية من أدوات التعذيب التي استخدمت مع سيد قطب حيث سلطوها عليه، لتنهش لحمه، إلا أن هذه الكلاب كانت تخذل أصحابها أحياناً كثيرة فلا تستجيب لهم في إنفاذ ما طلبوه من شر وإيذاء، وكان الكلب يتصنع التوحش والهجوم في حضور السجان فقط، وكأن الكلب يقول "لا تؤاخذني أكل العيش مر".

أما الذين يخرون صرعى من التعذيب، فإنهم يُلَفون في بطانية سوداء من بطاطين السجن، ويحملهم بعض الجنود، ويذهبون بهم إلى صحراء العباسية، ثم يوارون التراب هناك، ويكتب في السجلات أمام أسمائهم: أُفرج عنهم يوم كذا..

لقد مر أسبوعان، وسيد ذلك الرجل المريض، مقيد اليدين والقدمين مثل مجرم قاتل، مسجون في زنزانة رطبة وباردة إلى حد الصقيع، ضاربين بعرض الحائط

الشروط الصحية البدائية لسلامة الإنسان، كانت ثيابه المهترئة تكسو جسده المرتعش من البرد، ومع ذلك لم يسمح له بقميص أو معطف يدثره.

عموماً، بعد أقل من شهر من اعتقال سيد، شكلت له محاكمة عسكرية، سميت «محكمة الثورة»، كان قضاتها من ضباط الجيش، وترأس هذه المحاكمة جمال سالم. ولما دخل سيد قاعة المحكمة، إذ بجمال سالم يسأله قائلاً:

يبدو عليك التعب يا أستاذ سيد. هل أنت تعبان؟

رد سيد بصوت واهن:

نعم! لأني كنت واقفاً على قدمي ست ساعات قبل دخولي المحكمة.

أجاب جمال سالم بلا مبالاة:

- وأيه يعني؟ كلنا نقف مدة طويلة!

وهنا ارتفع صوت سيد قطب وبان عليه التحدي والغضب فقال:

- ولكننا نحن الإخوان تطبق علينا مبادئ الثورة.

فقال جمال سالم ساخراً:

- إيه يعني مبادئ الثورة يا أستاذ سيد؟

ثم بحركة مباغتة كشف سيد رداءه عن ظهره أمام الحضور، فظهرت عليه آثار التعذيب الرهيب، ثم أردف يقول بغضب وهو يشير إلى ظهره:

- هذه هي مبادئ الثورة!

وهنا اضطر جمال سالم إلى رفع الجلسة فوراً.

لقد أراد سيد أن ينوب عن الإخوان في فضح ما يحدث في السجن، وتوصيل ما يجري في أقبية التعذيب، إلى الصحافة والرأي العام، ظناً منه أن ذلك يجدي فتيلاً..

لكن ذلك كله لم يكن إلا صيحة في واد ونفخة في رماد، ولم يجن من وراء ذلك إلا مزيداً من التعذيب والإذلال عند عودته إلى السجن. والأنكى من هذا أنه منذ الآن سوف تكون محاكمته سرية، ولن يسمح له بالذهاب إلى المحكمة، وسوف يحاكم غيابياً.

وفي الثالث عشر من يوليو ١٩٥٥، حكمت عليه "محكمة الشعب" غيابياً، بالسجن خمسة عشر عاماً مع الأشغال الشاقة..

وفي صباح يوم المحكمة جاءه حمزة بسيوني في زنزانته وقال له:

- إنك لن تذهب للمحكمة لأنك مصدور[٣٤]..

وبعد الظهر عاد حمزة بسيوني ليبلغه بمدة الحكم، فقال له سيد بسخرية:

- وأين الإعدام؟

فأجابه حمزة بسيوني بغيظ:

- لا تقلق.. جاي لك في السكة!

ونقل سيد لقضاء مدة الحكم، إلى ليمان طرة، جنوب غرب حلوان جنوب القاهرة، وسط حراسة شديدة. وفي تلك الفترة، تضاعفت أمراض سيد فأصيب بنزيف رئوي فتم نقله إلى مصحة السجن، وأخبرنا سيد أنه في ليمان طرة حيكت مؤامرات لقتله هو ورفاقه بطريقة تبدو شرعية، لكنه كان حازماً في وأد هذه المؤامرات في مهدها، فعندما كان سيد مريضاً في مستشفى سجن طرة، جاءه- ثلاث مرات- الضابط "عبد الباسط البنا" شقيق الشيخ حسن البنا، فأخذ يحدثه عن ضرورة تخليص الإخوان مما يعانونه في السجن.

إلا أن شيئاً ما بدا غريباً لسيد، وقد أشار إليه في كتابه "لماذا أعدموني" بقوله: «ومع معرفتي أن عبد الباسط لم يكن يوماً ما من الإخوان في حياة أخيه الشهيد

---

[٣٤] (مصدور) منْ به مرض من الأمراض الصدرية

حسن البنا. فقد سألته: وكيف ذلك؟ فقال: إنه كقائد لكتيبة، يضع نفسه وأسلحة الكتيبة تحت تصرفنا، لأنه لم يعد يطيق منظر طابور الإخوان في الجبل!» فأجبته بقولي: «نحن نرى أننا أدينا واجبنا، وانتهت مهمتنا بدخولنا السجون، ولم نعد نستطيع عمل شيء، فمن أراد أن يعمل من غيرنا فليعمل».

عند ذلك انقطعت زيارات عبد الباسط لسيد في مصحة السجن.

لقد تباينت آراء المؤرخين في تحليل دوافع الضابط عبد الباسط البنا، فمنهم من اتهمه بالتواطؤ مع النظام لتدبير مذبحة للإخوان، ومنهم من وصف سلوكه بحسن نية وسلامة طوية، لكنه كان بدسيسة خفية من النظام، الذي كان على اطلاع تام بتحركات عبد الباسط البنا، منتظراً هناك في الظل اللحظة المناسبة للانقضاض على الاخوان لحظة الهروب..

عموماً، أياً كان الأمر، فإن غريزة سيد كانت أسبق من تفكيره في هذه المسالة؛ حيث رفض الأمر جملة وتفصيلاً، بل جفل منه بطريقة أشعرت الضابط عبد الباسط بإهانة جارحة، وكأنه خائن متواطئ مع النظام، لهذا امتنع عن زيارة سيد مرة أخرى، وتم نقله إلى كتيبة ثانية، فلم يلتق بسيد بعد ذلك ابداً.

وهكذا عندما فشلت هذه المؤامرات بالخديعة والدهاء اضطر العسكر لتنفيذها بالجبروت والاستقواء، فيما عرف بمذبحة ليمان طرة.

٥٦- مذبحة ليمان طرة

في أوائل يونيو ١٩٥٧، وبدون مقدمات ممهدة، حدث حادث رهيب زلزل قلوب الإخوان زلزالًا شديداً، وأثر في نفس سيد قطب تأثيراً شديداً أليماً.

كان الإخوان الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة، يصعدون إلى الجبل كل يوم ليقطعوا الأحجار والصخور، كما يفعل القتلة وقطاع الطريق. وفيهم من كل الحرف والطبقات، منهم: أساتذة الجامعة، والأطباء، والمهندسون، والمحامون، والمدرسون، والتجار، والموظفون..

روى سيد قطب في كتابه "لماذا أعدموني" شهادته عن المذبحة قائلاً: "كان هناك ضابط اسمه "عبد الله ماهر"، على علاقة ظاهرة بخمسة شبان يهود مسجونين في حادث جاسوسية.. وكان هذا الضابط يحتفي بأخت واحد منهم حفاوة مكشوفة!

وبدأ هذا الضابط التحرش والاستفزاز بالإخوان بشكل ظاهر، مما أدى شيئاً فشيئاً، إلى خلق جو مشحون بالتوتر بين إدارة الليمان وبين الإخوان. واحتك ذلك الضابط بمجموعة من شبان الإخوان المندفعين، وحصل بينه وبينهم تماسك بالأيدي، انتهت المسألة بوضعهم في التأديب. وظلت خطة الاستفزاز وشحن الجو بالتوتر من جانب عبد الله ماهر، حتى جاء يومٌ، علم الإخوان الذين يخرجون للجبل أن هناك خطة لضربهم بالرصاص في الجبل، بحجة محاولتهم التمرد أو الهرب، فرأوا- تفويتاً لهذه الخطة- أن يعتصموا بالزنازين في اليوم التالي، ويطلبوا حضور النيابة، لإخطارها بما وصل إلى أسماعهم، من تلك الخطة، التي تدبر لهم. وهنا أمرت الكتيبة بضربهم بالرصاص داخل عنابرهم، بل داخل الزنازين، فقُتِل إثر ذلك ٢١ وجُرِح حوالي ذلك.. إن هذا الإجراء الذي اتخذ من إدارة السجن- وفي ظل ذلك الخيط المتسلسل من الحوادث- يدل بوضوح على أنها خط مذبحة متصلة، وراءها يد مدبرة لا يهمني الآن تعيينها.." أ.هـ

من حسن حظ سيد أنه كان في ذلك الوقت راقداً في مستشفى السجن يخضع للعلاج من النزيف الرئوي.. قبل هذا اليوم، وفي مثل هذا الوقت، كان يستأنس بسماع ضوضاء الشاحنات، والراديو، والعساكر وهم يؤدون تمارينهم الرياضية،

وكان يشم رائحة البترول المحترق المنطلقة من عوادم الشاحنات من ساحة السجن الترابية، كما كان يشم رائحة الأدوية والمطهرات المنبعثة من حجرته بالمستشفى.. أما اليوم فإنه يسمع بشكل جنوني إطلاق النار وصليات الرصاص التي بدت بلا نهاية وكأنها دهر كامل، ويشم رائحة الموت التي تخيم على ساحة السجن كسحابة سوداء.. كان يشعر بأن هذه عاصفة مجنونة لن تتوقف حتى تستنفذ قواها وتهدأ من تلقاء نفسها، كان يسمع دوي الرصاص مختلطاً بصرخات وآهات مكتومة، ودعوات ضارعة إلى الله تطلب الرحمة والغوث.

حصل سيد، من بعض الخدم الذين ينظفون غرفته، على معلومات فحواها أن قتلى من الاخوان سقطوا قبل قليل، أثناء قيامهم بتمرد واعتداءات على حراس السجن، لكنه لم يلم بكافة التفاصيل، وبعد أن خرج من المستشفى أدرك ما كان عاجزاً عن إدراكه، حينما استمع بذهول شديد إلى الشيخ حسن عبد الستار، أحد الناجين من المذبحة بأعجوبة، وقد أصيب بعاهة مستديمة، إذ أخبره بأنه في حوالي الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، حضر العقيد إسماعيل طلعت، والتف حوله المعتقلون، وما كادوا يتحدثون معه سوى دقائق معدودة، حتى حضر أحد الحراس وهمس في أذنه بشيء لم يسمعوه.. فانصرف على الفور، وما كاد يصل إلى مكتبه حتى سمعوا ضجة كبيرة في مدخل العنبر، فنظروا فإذ بكتيبة الليمان بكامل أسلحتها، وعددها حوالي ألف جندي وصف ضابط، انقسموا قسمين: قسم توجه إلى الدور الثاني، وقسم صعد إلى الدور الرابع، واصطفوا في الطرقات من الجانبين، وأخذوا وضع الاستعداد للضرب.

كل هذا تم، والمعتقلون لم يدر في خلدهم أنهم قد وصلت بهم حالة الهوس إلى الضرب في المليان.. وما كاد الجنود يأخذون أماكنهم في وضع الاستعداد، حتى رفع مدير الليمان يده بالمسدس، وأطلق رصاصة كانت بمثابة إشارة البدء، فانطلقت النيران من ألف قطعة سلاح دفعة واحدة. ظن المعتقلون في بادئ الأمر:

أن هذا الرصاص «فشنك» بقصد الإرهاب والتخويف.. لكن القتلى بدأوا يتساقطون واحداً بعد الآخر.

ولم تمض حوالي خمس دقائق حتى سمعوا صوتاً يصدر أوامره لحملة «الشوم» الغليظ من السجانين: أن يقتحموا الزنازين واحدة بعد الأخرى، ويجهزوا على من بقي على قيد الحياة. وفعلًا بدأ حمل الشوم الغليظ بالمخزن البحري. وكان به حوالي تسعة من الإخوان كان قد استشهد منهم خمسة، أما الأربعة الباقون: فكانوا في حكم الأموات، فاقدي الوعي، يسبحون في الدماء! فظنوهم أمواتاً. فتوجهوا إلى المخزن القبلي وحاولوا فتحه، إلا أن القدر كان قد سبقهم وأبى الباب أن يفتح؛ لأن رصاصة كانت قد استقرت في «الكالون» فسمكرته فأنجى الله الأشخاص الأحد عشر الذين كانوا بداخله من موت محقق.. ثم توجهوا إلى الزنزانتين المجاورتين، فأجهزوا على الستة الذين كانوا بداخلهما.

وجاء الدور على هذا الشخص الذي يروي الحكاية. فيقول: وفتحوا باب الزنزانة ولم أشعر بنفسي إلا وأنا أخرج من الزنزانة متفلتاً من جوارهم، وأجري في الطرقة نحو السلم الموصل للدور الأرضي، فسمعت طلقة، وأحسست بالدماء تسيل على وجهي. واعترضني سجان بيده شومة غليظة، هوى بها على رأسي في نفس المكان الذي أصابتني فيه الرصاصة الطائشة، ضربات قاسية متتالية.. فهويت إلى الأرض وأحسست أنني أسقط بسرعة مذهلة في بئر لا قرار لها.. تذكرت أبي وأمي وزوجتي وأخواتي وجميع أقاربي وأصدقائي، ونطقت بالشهادتين، ثم غبت عن الوعي.

ثم أفقت بعد قليل وسمعتُ صوتاً ينادي على الجرحى، وطلبوا من كل جريح أن يرفع يده لنقله إلى المستشفى.. فرفعت يدي فحضر الممرض وحاول حملي فلم يستطع، فأطلق لسانه لي بالسب، وجعل يجرني من قدمي حتى وصل إلى نهاية الطرقة، ثم بدأ ينزل السلم على نفس الوضع يجرني من قدمي، وشعرت بألم شديد

برأسي من ارتطام الرأس بدرجات السلم، فاستعنت بالله ووقفت. وفي هذه اللحظة تقدم نحوي أحد جنود الكتيبة، وصوب إلى صدري بندقيته وقال: أنت الشيخ فلان؟

لم أفهم ماذا يقصد.. واستعد لإطلاق الرصاص عليَّ، ولكن الضابط الذي كان يقف بجانبه منعه من ذلك، فقد سخره الله لي في تلك اللحظة.. نزلت مع الممرض إلى فناء العنبر، ثم وقعت، فأحضر نقالة وتعاون مع زميل له وخرجا بي إلى مستشفى الليمان، وحين ذلك سمعت من يقول لي: هو انت لسه عايش يا ابن الـ ...؟ وأشفع القول بضربة قاسية خلف أذني، جعلت الدم يندفع كالنافورة إلى أعلى.

وصلنا حجرة العمليات فرأيت جثثاً كثيرة ملقاة على الأرض والدماء تغطيها تماماً.. كان هؤلاء هم جرحى المذبحة في انتظار الدور لإدخالهم غرفة العمليات، حيث يوجد طبيب واحد عندما خرج الطبيب من الغرفة فرآني محمولاً على نقالة ونافورة الدم مندفعة مني.. أشار إلى الممرضين بإدخالي إلى غرفة العمليات، وكانت العمليات تجري بدون بنج وبأقل الإمكانيات، وأثناء العملية لم أكن أحس بأي ألم.. ثم نقلت بعدها إلى عنبر الجرحى بالمستشفى، وكنت شبه مغمى عليَّ، أفيق لحظات فأتقيأ دماً.

وكان حصاد المذبحة (٢١) قتيلًا، و(٢٢)جريحًا، و(١٤) فقدوا عقولهم! وخيم على العنبر سكون رهيب، وأخذ الحراس في إخراج القتلى والجرحى على ضوء الشموع.. وكان الجرحى المنقولون إلى المستشفى للإسعاف يقابلون في الطريق فيضربون بالعصي، حتى إن بعضهم انضموا إلى القتلى قبل أن يصلوا إلى المستشفى.

وفي اليوم الثاني من الحادث خرج من الليمان ٢١ نعشاً في جنح الظلام تحت حراسة مشددة، كل شهيد إلى قريته أو بلده.. ليدفن ليلًا بحضور أحد أقاربه..

من شدة تأثر سيد بهذه المذبحة كتب قصيدته (هبل) التي يبث فيها مشاعره وانفعالاته ويشي بها إلى عبد الناصر من طرف خفي فيقول:

هُبلٌ ...هُبلْ رمزُ السخافة والدجل
من بعد ما اندثرتْ على أيدي الأباة
عادت إلينا اليوم في ثوب الطغاة
تتنشق البخورَ تحرقهُ أساطيرُ النفاق
من قُيدتْ بالأسر في قيد الخَنا والارتزاق
وثنٌ يقود جُموعَهم... يا للخجل

هُبلٌ ... هُبلْ

رمز السخافة والجهالة والدجل
لا تسألنْ يا صاحبي تلك الجموع
لِمن التعبّدُ والمثوبةُ والخُضوع
دعْها فما هي غير خِرفانِ القطيع
معبودُها صَنَمٌ يراه ... العمُّ سام
وتكفل الدولارُ كي يُضفي عليه الاحترام
وسعي القطيع غباوةً ... يا للبطل

هُبلٌ .. هُبلْ

رمز الخيانة والجهالة والسخافة والدجل
هُتّافةُ التهريج ما ملَّوا الثناء
زعموا له ما ليس عند الأنبياء
مَلَكٌ تجَلْبَبَ بالضياء وجاء من كبد السماء

هو فاتحٌ ... هو عبقريٌ مُلهمُ
هو مُرسَلٌ ... هو عالِمٌ ومُعَلِّمُ
ومن الجهالة ما قَتَل

٥٧- في مصحة ليمان طرة

في الساعة الخامسة من عصر اليوم الرابع للمذبحة، صدرت الأوامر بإخلاء المعتقلين من سجن طرة ونقلهم إلى سجن القناطر، قيل كان ذلك من أجل إجراء الترميمات على السجن الحربي بعدما أصابه من التخريب ما أصابه.. وقيل تنفيذاً لنصيحة الخبراء النفسيين بأن ذلك في مصلحة السجناء والسجانين على حد سواء، وقيل غير ذلك من الأسباب.

قام حراس السجن بسلسلة المعتقلين في سلاسل، كل عشرين في سلسلة، وأجلسوهم على الأرض حتى آذان العشاء، ثم خرجوا بهم من باب الليمان الذي أضيئت الأنوار أمامه كالشمس، وأحيط الميدان، الواقع أمام الليمان، بالجنود المسلحين.. وأدخل المعتقلون بطريقة فجة في العربات العسكرية الواقفة، وحدث أن بعض المعتقلين، المسلسلين في سلسلة واحدة، قد ركبوا العربة بينما بعضهم الآخر ما زال واقفاً على الأرض، فجذبوا أيديهم بعنف مما سبب لهم آلاماً رهيبة، وصلت إلى حد كسر العظام..

وفي جنح الظلام، تحرك الركب المكلوم وسط موتوسيكلات الحراسة، وقد اصطف الجنود على جوانب طريق الكورنيش الذي أخلي تماماً من السابلة، ليصلوا بالمعتقلين إلى سجن القناطر.

أما سيد فقد بقي في مصحة الليمان ولم يُنقل إلى سجن القناطر، وقد أشار إلى ذلك بقوله: "وبعد مذبحة طرة، لم يعد في الليمان أحد من الإخوان معي، إلا الأخ

محمد يوسف هواش، والأخ محمد زهدي سلمان. وهذا الأخير- بحكم ثقافته المحدودة- لا يمكنه مشاركتي في أفكاري التي أطرحها. فلم يبق معي إلا محمد يوسف هواش".

وقد رَتبت إدارة السجن لسيد وضعاً خاصاً استثنائياً، بسبب أمراضه، فلم يتعرض لتعذيب أو إهانة منذ تم الحكم عليه، لقد توقف تعذيبه البدني تماماً. وكان السجانون يحترمونه بسبب هدوئه ودماثة أخلاقه وصمته، بحيث قد يمضي عليه يومان أو ثلاثة ولا يفوه بكلمة، فكانوا يخففون الرقابة عنه، ويتسامحون في معاملته كثيراً، وقيل ذلك بسبب أن سيداً، عندما كان إخوته يزورونه، ويحضرون له دجاجة أو «وزة» مشوية محمرة، ملفوفة بالأوراق، كان يتناولها بيده كما هي، ويعطيها لبعض السجانين، دون أن يفتحها أو يذوق طعمها!

هنا يطيب لسيد ألا يزعجه أحد في خلوته.. كان يشعر، وهو خارج السجن، أن الزوار يثقلون عليه، ويكلفونه جهداً، كانت أحياناً تسره المدائح التي يغدقونها عليه، وهذا يشتت فكره بعض الشيء.. لكن هنا ينأى بنفسه عن كل ما يزعجه ويشوشه، وكل ما يجعله مغروراً، متكبراً، محباً للشهرة، مفتقراً إلى الأصالة..

حقاً، لطالما خشي سيد أن ينهار تحت عبء المسؤولية التي ألقاها الشباب على عاتقه، وأصبح ينفر من هالة التقديس وتسابق الشباب على خدمته، ومن مواكب القاصدين بيته في كل يوم.. إنَّ هذا كله لم يفلح في خداع هذا الضمير النزيه، هو لا يعتبر نفسه قديساً، ولا نبياً، ولا منقذاً للعالم.. إنه إنسان له نقائصه، وفيه ضروب من العجز، هو يعي هذه النقائص، لكنه يكد في السعي نحو الكمال بحماسة لا نظير لها، وهو على استعداد للتضحية من أجل المبدأ الذي يؤمن به.. لقد خُلق للتضحية؛ لقد ضحى بحياته الشخصية من أجل أسرته، فلم يتزوج، ولم يبن

أسرة.. وضحى بوقته من أجل النقد الأدبي، وضحى بأصدقائه من أجل العقاد.. وها هو اليوم يضحي بحياته من أجل الشباب، ومن أجل المبدأ الذي يؤمن به.

في تلك الصومعة أخذ سيد يسعى لتقوية روحه بالصلاة والدعاء لوقت طويل يزداد على نحو مطرد.. لم يكن مع هذا الراهب في صومعته إلا ما يحتاج إليه الفكر ليُنقَل إلى البشرية: مصحف، ودفتر، وقلم رصاص.. ومن تلك المصحة، وبهذه الأدوات خرجت معظم كتب سيد الناضجة إلى العالم بأسره، فقد أكمل تفسيره «في ظلال القرآن»، بالإضافة إلى كتبه الأخرى: هذا الدين، والمستقبل لهذا الدين، والإسلام ومشكلات الحضارة، وخصائص التصور الإسلامي، ومقومات التصور الإسلامي، ومعالم في الطريق.. ولو سمح له سجانوه بقضاء بقية حياته في تلك الصومعة الصغيرة حيث يبذل طاقته في الكتابة والفكر والتأمل، بدلاً من ترك حبل المشنقة يلتف حول رقبته، لجعلوا من هذا الرجل أسعد مخلوق في العالم.

لقد بلغ من إرهاف حسه الفكري درجة غير مألوفة ألبتة، وقد يضطر المرء إلى الرجوع عقوداً من الزمان إلى الوراء في تراثنا الإسلامي، من أجل العثور على شعور مماثل لهذا الشعور في رقة إحساسه وحِدّة ذهنه، مقترناً في الوقت ذاته، بعقل صاف كالماء الذي كان يراه رائقاً كالبنور في المزيرة في مدرسة القرية.

فها هو ذا ينظر بكبرياء وتأفف للمتهالكين على المال، والساعين للمناصب، والطامعين في الأوسمة، والطامحين للمجد، فهذا ليس مجداً إنما فقاعات مجد، وهاهو ذا يبتسم من علٍ في ازدراء إليهم وقد اشرأبت أعناقهم صوب البريق الخاطف، وهم يحنون ظهورهم كالعبيد ليتحلوا بالألقاب، ويحسبون أنهم ملكوا السعادة والخلود..

ومن مصادفات القدر التي خدمت سيد قطب خدمة جليلة أنه قبل سجنه، كان قد تعاقد مع "دار إحياء الكتب العربية" على نشر الظلال، بحيث يقدم لها كل شهرين جزءاً. فلما سُجِن عجز عن ذلك، وكان قد أصدر ثمانية عشر جزءاً؛ فرفعت

دار النشر دعوى على الحكومة تطالبها بدفع تعويض بقيمة عشرة آلاف جنيه، لأنها تضررت من ذلك. وآثرت الحكومة السماح لسيد بإكمال الظلال في السجن، وعينت الشيخ محمد الغزالي رقيباً دينياً على الظلال، يقرأه قبل طباعته!.

يقول محمد قطب- شقيق سيد- عندما زار عبد الناصر باكستان في الخمسينيات- وسيد نزيل سجن طرة- جاءه علماء باكستان يلومونه على سجن المفكر الإسلامي سيد قطب، ويطالبونه برفع التعذيب عنه، وإطلاق سراحه! فأنكر عبد الناصر تعذيب سيد، ونفى أن يكون في السجن، وأخبرهم بأن سيداً في بيته، يتمتع بكامل حريته؛ بدليل أنه يطبع كتبه الإسلامية في القاهرة، وتصلهم في باكستان.. فلا يعقل أن ينشر كتباً لو كان سجيناً!.

٥٨- المراجعة الفكرية في سجن طرة

عندما هدأت الأوضاع في سجن طرة، أخذ سيد يستعرض شريط الأحداث الماضية التي مرت بحركة الإخوان، مثلما يستعرض أحداث مسلسل درامي، وراح يعيد ترتيب الأدوار من جديد، ويحاول أن يخرج الأحداث بإخراج جديد. لكن هل يجدي نفعاً أن نتخذ قرارات تاريخية استناداً إلى صيغ متقادمة العهد، كما يفعل الناس عندما يستعرضون مآسي الماضي، ليتبينوا وسائل الخلاص في الحاضر والمستقبل؟

لقد توصل سيد إلى أن جُلَّ المآسي التي عصفت بالحركة الاسلامية تقف وراءها القوى العالمية الصليبية والصهيونية والشيوعية التي تحارب الإسلام، وقد نجحت في تنفيذ مخططها، بحل جماعة الإخوان، وتعذيب أفرادها والحكم عليهم، بتهم مزورة ملفقة!

ورأى أن ضرب جماعة الإخوان وتغييب أفرادها في السجون، فتح أبواب الفساد أمام الشباب، ولا سبيل للخلاص إلا بإعادة نشاط الحركة الإسلامية، حتى لو كانت الدولة لا تريد ذلك.

استمر سيد يفكر ليله ونهاره ويقلب الأمر على جميع وجوهه، على مدار سبع سنين، منذ عام ١٩٥٥ وحتى عام ١٩٦٢. وأخيراً، خرج بقناعة لا تشوبها شائبة بضرورة العمل لإيجاد حركة إسلامية، امتداداً لحركة الإخوان المسلمين الموقوفة، فيقول في كتابه لماذا أعدموني: "إن الحركة الإسلامية يجب أن تستمر، وإن القضاء عليها يعد عملاً فظيعاً، يصل إلى حد الجريمة، وإن الأخطاء التي وقعت فيها الحركة يمكن أن تستبعد؛ بحيث يمكن الاستفادة من التجربة الماضية لتجنب هذه الأخطاء".

في تلك الفترة انضم إلى صومعة سيد راهب ثان يعاني من نفس المرض الرئوي الذي يعاني منه سيد، يدعى "محمد يوسف هواش". لقد كان هواش هو الرجل الذي انتدبه القدر لتلك المهمة، والذي سيساعد سيداً على إنضاج أفكاره، وتنقيح تأملاته في أحوال الحركة الإسلامية المعاصرة.

ولد يوسف هواش عام ١٩٢٣وحفظ القرآن صغيراً، وكان ممن عاصروا الشيخ حسن البنا، واستمعوا لدروسه وتوجيهاته، تخرج من مدرسة طنطا الصناعية، واعتقل في أغسطس ١٩٥٥، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عاماً، وكان ممن شهدوا مذبحة ليمان طرة، وجرح فيها، وكتب تفاصيلها التي نشرت فيما بعد تحت عنوان: "يوميات الشهيد محمد يوسف هواش"، وانتقل إلى مصحة ليمان طرة، حيث جمعت بينه وبين سيد توأمة عجيبة، فأصبح تلميذاً لسيد ومريداً له، بنفس القدر الذي كان سيد تلميذاً للعقاد ومريداً له، وبنفس سني العمر التي كانت بين الأستاذين والمريدين: سبعة عشر عاماً!

مكث الأستاذ والمريد في صومعتهما عشرة أعوام، إلى أن فرق بينهما حبل المشنقة، الذي التف حول عنقيهما في يوم واحد!

وخلاصة المراجعة التي توصل إليها الأستاذ والمريد هي ما سجله سيد في تقريره الأخير للمحققين، بقوله:

"بعد مراجعة ودراسة طويلة لحركة الإخوان المسلمين ومقارنتها بالحركة الإسلامية الأولى للإسلام، أصبح واضحاً في تفكيري- وتفكير هواش كذلك- أن الحركة الإسلامية اليوم تواجه حالة شبيهة بالحالة التي كانت عليها المجتمعات البشرية يوم جاء الإسلام أول مرة: من ناحية الجهل بحقيقة العقيدة الإسلامية، والبعد عن القيم والأخلاق الإسلامية.. ليس فقط البعد عن النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية، بل في الوقت ذاته، توجد معسكرات صهيونية وصليبية استعمارية قوية، تحارب كل محاولة للدعوة الإسلامية، وتعمل على تدميرها، عن طريق الأنظمة والأجهزة المحلية، بتدبير الدسائس والتوجيهات المؤدية لهذا الغرض، بينما الحركات الإسلامية تشغل نفسها بمطالبة الحكومات بتطبيق النظام الإسلامي والشريعة الإسلامية، في حين أن المجتمعات ذاتها قد بعدت عن فهم مدلول العقيدة؛ فلا بد إذن، أن تبدأ الحركة الإسلامية من القاعدة؛ وهي: إحياء مدلول العقيدة الإسلامية في القلوب والعقول، ثم تربية من استجاب لهذه الدعوة وهذه المفاهيم تربية إسلامية صحيحة، ولا تحاول الحركة الاسلامية فرض النظام الإسلامي عن طريق الاستيلاء على الحكم، قبل أن تكون القاعدة المسلمة في المجتمعات هي التي تطلب النظام الإسلامي وتريد أن تحكم به؛ لأنها عرفته على حقيقته.. وفي الوقت نفسه، لا بد من حماية الحركة من الاعتداء عليها من الخارج، لئلا يحدث لها ما حدث للإخوان سنة ١٩٤٨، ثم سنة ١٩٥٤..

..هذه الحماية تتم عن طريق وجود مجموعات مدربة تدريباً فدائياً، بعد تمام تربيتها الإسلامية من القاعدة.. وهذه المجموعات، لا تبدأ بالاعتداء، ولا تحاول

قلب نظام الحكم، إنما تتدخل عند الاعتداء على الحركة والدعوة والجماعة، تتدخل لرد الاعتداء، وضرب القوة المعتدية، بالقدر الذي يسمح للحركة أن تستمر في طريقها.." أ.هـ

***

هذه هي النتيجة النهائية التي توصل إليها سيد قطب وأقره عليها تلميذه يوسف هواش عام ١٩٦٢، وهذه هي النواة الأساسية التي سوف يقوم عليها- فيما بعد- كتاب سيد قطب المثير للجدل: "معالم في الطريق".

أخذ سيد يكتب الرسائل ويشرح هذه الأفكار بتوسع وإسهاب، ويرسلها إلى الإخوان في السجون وفي الخارج. وقد ساق القدر في ذلك الوقت مجموعة من الإخوان المسجونين في سجن القناطر، ليحضروا إلى مصحة ليمان طرة للعلاج.. فقام سيد بشرح أفكاره لهم، فأقروها واستحسنوها ونشروها بين زملائهم حين عودتهم إلى سجن القناطر، وتكونت، نتيجة لذلك في سجن القناطر عام ١٩٦٢، أول أسرة إخوانية تتبنى منهج سيد قطب. وفي غضون أيام قلائل، أخذ عدد الأسرة يتزايد باضطراد، وفي مقابل هذه الأسرة الإخوانية التي اعتنقت هذه الأفكار قامت أسر أخرى تعارض هذه الأفكار وتهاجمها، وتتهمها بمخالفة الخط الحركي للإخوان، حتى تطور الخلاف بين المؤيدين والمعارضين، فأخذوا يرفعون التقارير تلو التقارير حول سيد وأفكاره التي أحدثت انقسامات خطيرة وفتنة داخل صفوف الإخوان.

وكان المعارضون لهذه الأفكار هم أنفسهم المتعصبون الغلاة، أنصار المعارضة دوماً، وهم أنفسهم الذين اعترضوا على المرشد الهضيبي بحنق قبل ثماني سنوات، واحتلوا المركز العام للإخوان، واقتحموا بيت الهضيبي وطالبوه بالاستقالة من منصبه تحت تهديد السلاح، وكان أبرزهم عبد الرحمن البنا، وعبد العزيز جلال.

فها نحن نراهم اليوم منذ الآن يحتجون على كل فكرة معاكسة لتفكيرهم، لذلك لا بحث ولا نقاش حول أي أفكار جديدة، وإنهم يقرعون بعصبية شديدة جرس الاستياء لمجرد الاقتراب من هذه المسألة. وما أسرع أن يفاجئوك بقولهم: "إن هذه الأفكار لم يقرها المرشد الهضيبي وغير صادرة عن مكتب الارشاد".

٥٩- الهضيبي ومعالم في الطريق

تمتاز شخصية المرشد حسن الهضيبي بالدهاء وبعد النظر، يتصرف كباشا مطبوع حنكته السنون، قليل الكلام، يوهمك صمته بالغفلة والعزلة، بينما هو رجل رقيق الطبع، يمتاز بالذكاء وقوة الملاحظة، وبُعد النظر، بارع في تحليل الرجال، يدهشك بصموده وقوة احتماله، يقابل البطش بابتسامة ساخرة، لا يغضب ولا يحتد ولا يشكو، يكره الظلم ويرفض العنف.. إذا عاملته باحترام وتوقير وبساطة ملكت قلبه، وإذا لم تتخط الحدود الارستقراطية التي رسمها لنفسه، أخذت طريقك إلى قلبه وشغاف نفسه. اشتهر بمقولته "ما حاجتنا للمسدس ولنا لسان؟ وما حاجتنا للقنبلة ودوي صوت المظلومين أعلى من انفجار الديناميت؟".

ويعطينا الهضيبي المفتاح الذي يمكننا أن نلج به إلى شخصيته، من خلال ثلاثة مواقف يرويها عن نفسه كالتالي:

يقول في مذكراته: عندما كنت في العاشرة لفت سمعي صوتُ واحد من الزوار، في مجلس أبي، سحرتني طريقته في الحديث فأنستني كل شيء، جذبني رنين صوته، وجلست أتطلع إليه، فلما انتهت السهرة، وخرج الرجل سألتُ أبي: مَن هو؟ فقال: محامٍ!.. ومن هذه اللحظة، قرَّرت أن أدخل مدرسة الحقوق لأصبحَ لبقًا ساحرًا مثل هذا الزائر الساحر..

وقال عن نفسه وهو في الخامسة والخمسين: ذات يوم عُقد اجتماع ضخم سيخطب فيه الشيخ حسن البنا، ودخلت السرادق الكبير، وكم سمعتُ خطباء كنت في كل مرة أتمنى أن ينتهوا من خطبهم، لكن هذه المرة كنت أخاف أن يختم حسن البنا خطابه، كنت في قلقٍ مستمر من أن ينتهي قبل أن أشنف أذني وعقلي وقلبي من هذا السحر. ومن يومها بدأت أضع عقلي وقلبي في خدمة الإخوان..

وقال وهو في الخامسة والستين: منذ قرأتُ تفسير "في ظلال القرآن" انحصر أملي كله في سيد قطب، وأدركت أنه الأمل الوحيد المرتجى للدعوة الآن".

إذن، من خلال هذه المواقف الثلاثة يتبين لنا أن سحر العبارة وصدقها ورونقها ورقتها، كانت السبيل الموصل إلى قلب الهضيبي وروحه ونفسه.. فأسلوب سيد قطب، الأدبي الساحر، المتدفق على سجيته في بساطة وتلقائية، هو الذي ملك على الهضيبي نفسه وروحه، واطمأن له كل الطمأنينة فجعله ينوب عنه كمرشد للإخوان من حيث لا يطلب ولا يريد، وغض الهضيبي الطرف عن ذلك، خصوصاً وهو على يقين تام بأن سيداً يزهد في هذا المنصب، ولا يتطلع إليه، ولا يتمناه، ولا ينازع صاحبه دونه. وكان سيد- يقدم بصدق- الاحترام والتبجيل والإجلال للهضيبي، الذي يكبره في السن بنحو خمسة عشر عاماً.

لقد كان سيد والهضيبي يكملان بعضهما البعض؛ فالهضيبي ذلك الرجل الحكيم، المتحفظ، الصموت، قليل الكلام، الذي ليس بينه وبين القلم صداقة وألفة، يحتاج إلى شاب مندفع، جريء، سيال القلم، يجاري سير الأفكار الجديدة الفتية.. وسيد ذلك الثائر، السائر دوماً في الطليعة بجلبة وحماسة جنونية، الذي يأبى أن يتراجع أو ينزل تحت الأرض، بحاجة إلى أب حكيم يسنده، ويحنو عليه، ويشجعه ويبارك خطواته..

أما أولئك الشباب، الذين يسمون أنفسهم مجلس قيادة الثورة، فهم في نظر الهضيبي الارستقراطي، عاشق النظام الأبدي، مجرد فتية مشاغبين ومعربدين،

داسوا على العرف والبرتوكول، وتخطوا حدود اللياقة والأدب، ونسفوا جسور الاحترام والتبجيل، وتكلموا بصفاقة وتبجح، غير مبالين بالألقاب والمسميات، متناسين ما يليق وما لا يليق.

***

على أي حال، لقد أدرك الهضيبي بحسه الأرستقراطي صعوبة الأوضاع التي تمر بها حركة الإخوان، فقام بتصدير سيد للمشهد، هذا المعروف بجرأته واندفاعه ووضوحه وإخلاصه، فكان سيد هو المرشد الحقيقي للإخوان في ذلك الحين، لكن بدون إعلان رسمي، وبدون تكليف صريح، بيد أنه في حقيقة الأمر كان يعتبر مرشداً للإخوان منذ عام ١٩٥٥ وحتى تنفيذ حكم الاعدام عام ١٩٦٦.

كان سيد قد بدأ يرسل مقالات طويلة، بواسطة أخته حميدة، إلى الحاجة زينب الغزالي، وتقوم زينب الغزالي بتوصيل هذه المقالات إلى المرشد الهضيبي، وإلى التنظيم الإخواني الجديد، الذي بدأ يتكون خارج السجن، فأصبحت هذه المقالات منهاج عمل التنظيم الجديد، وكان الهضيبي يطلع على هذه المقالات أولاً بأول ويعجب بها ويثني عليها.

وفي أحد الصباحات، وبعد أن أسدل سيد الستار على الفصل الأخير من هذه المقالات، انبثق دفعة واحدة، من أعمق أعماق شعوره، تلك الفكرة القائلة: أن وقته قد حان لكي يذهل العالم، وقد أذهل العالم حقاً، وكانت الحركات الإسلامية هي الضحية الأولى لهذا الإذهال. وبدأ يواصل العمل في تجميع هذه الفصول في كتاب، وهو يستشعر أن هذا الكتاب سيكون كلمته الوداعية إلى هذا العالم.

وينبعث مرة أخرى، الأديب الأكثر شموخاً، رائعاً كما كان فيما سلف، ويعبر المسافة الهائلة بين ماضيه وحاضره في وثبة جريئة هائلة، وقد فرض عليه القدر الكفاح من أجل الحقيقة حتى اللحظة الأخيرة، لكن ثمة عمل أخير، وهو الأكثر

قداسة، ينتظر الاكتمال، وستكون صياغته على نحو لائق ومثالي، وإليه سوف يوجه الطاقة المحتشدة في نفسه توجيهاً رائعاً. ولم يبدع سيد قطب في أي عمل من أعماله، على هذا المدى الطويل وبهذه الحماسة، مثلما أبدع في أيامه الأخيرة في كتابه (معالم في الطريق).

وأخيراً، وبعد ثلاثة أسابيع، لا يمكن إدراك كنهها حتى اليوم، وفي الرابع عشر من مارس ١٩٦٤ كان قد تم الفراغ من هذا العمل، ونهض سيد مجهداً، وسقط القلم من يده، لم يكن يعرف أين كان، وما عاد يرى، ولا عاد يسمع، وما عاد يحس إلا بالتعب، التعب الذي لا يسبر غوره، ولم يكن له بد أن يتماسك بالاعتماد على الجدران، فسار مترنحاً، وكانت الطاقة قد زايلته، وبات الجسد متعباً، وحواسه مضطربة مشوشة، ثم سقط على السرير، ونام. فلما استيقظ كان ذهنه صافياً مشرقاً، فبدأ في تجميع فصول الكتاب من جديد ووضع عناوين لكل فصل على النحو التالي: جيل قرآني فريد- طبيعة المنهج القرآني- نشأة المجتمع المسلم وخصائصه- الجهاد في سبيل الله- لا إله إلا الله منهج حياة- شريعة كونية- الاسلام هو الحضارة- التصور الاسلامي والثقافة- جنسية المسلم عقيدته- نقلة بعيدة- استعلاء الايمان- هذا هو الطريق.

هكذا مضى سيد في النأي بنفسه عن المجتمع الجاهلي، ولم يَعُد يعرف إلا هماً واحداً، وهو أن يصوغ شخصية المسلم؛ فليس هناك من قيمة عنده إلا للخصوصية في عالم جاهل. إذن، فلنكن أصحاب خصوصية، ولنتمسك بنواة التفرد فينا على وجه الخصوص ولندعمها، ولنقم بالتصدي الواعي لعصرنا الجاهلي، ولنعزل أنفسنا عن الآخرين عزلاً قوياً، وإنه لخير للمسلم أن يتخلف، وأن يظل في الخارج واقفاً وحده حراً، ماشياً على قدميه، بدلا من قطع الطريق، في عدو سريع، وسط قطيع من المستعبَدين.

وأخيراً تمت طباعة الكتاب، وأقبل عليه الشباب، وبيعت منه آلاف النسخ، ولقد أثار الكتاب ضجة واسعة فور صدوره، وتناوله شيوخ السلطان بالنقد، وأصدروا فتاويهم بتجهيل سيد وتخطئته وتضليله، فكتب رئيس لجنة الفتوى بالأزهر، الشيخ عبد اللطيف السبكي، يقول: "أسلوب الكتاب أسلوب استفزازي، يفاجئ القارئ بما يهيّج مشاعره الدينية، وخاصة إذا كان من الشباب أو البسطاء، الذين يندفعون في غير روية إلى دعوة الداعي باسم الدين، ويتقبّلون ما يوحى إليهم، ويحسبون أنها دعوة الحق الخالصة. فالمؤلِّف ينكر وجود أمة إسلامية منذ قرون كثيرة. ومعنى هذا: أن عهود الإسلام الزاهرة، وأئمة الإسلام، وأعلام العلم في الدين، والتفسير، والحديث، والفقه، وعموم الاجتهاد في آفاق العالم الإسلامي.. إنهم جميعـًا كانوا في جاهلية، وليسوا من الإسلام في شيء، حتى يجيئ إلى الدنيا سيد قطب!".

عموماً، بتلك الطلقة في الصميم، يصيب هذا العبقري الوتر الأرَنَّ من الفكر المعاصر ويُحدِث فيه رجفة، بل ويقلبه رأساً على عقب، ولقد كان الواقع الإسلامي المعاصر تواقاً إلى هذه الرجفة. لقد كان سيد قطب في كل كتبه كشافاً بذاته عن طبيعته؛ إذ نفض عن كل جزء من نفسه جزءاً نارياً من روحه إلى العالم، وعلى هذا النحو يلم به المرء، بصورة كاملة، جزءاً فجزءاً، غير أن ظاهرته ما كانت ليكتب لها البقاء لولا أنه تمكن في عمله الأخير من أن يعطي الحد الأعلى من نفسه ويسمو بها تماماً، فقد ارتفع في (معالم في الطريق) بنفسه، بتلك العبقرية التي قلما يهبها القدر لعبقري أكثر من مرة.

٦٠- الإفراج الثاني والأخير

في مايو ١٩٦٤ أفرج عن سيد بوساطة الرئيس العراقي عبد السلام عارف، الذي كان مقرباً من عبد الناصر، وكان معجباً بتفسير "في ظلال القرآن"، الذي كان يقول عنه "لقد كان أنيسي في فترة اعتقالي أيام عبد الكريم قاسم".

خرج ابن الثامنة والخمسين في حرارة الصيف اللاهبة، متعباً، مكرهاً، كان يرى ظله الكئيب وهو ينطبع على الأرض المتربة، ويجر ساقيه متثاقلاً منهكاً متابعاً طريقه إلى مسكنه، لا يكاد يرفع طرفه إلى العربات اللامعة السريعة التي امتلأت بها الشوارع، أو إلى المتنزهين الذين يثرثرون متمهلين ومتضاحكين لا يفكرون بشيء، أو إلى السيدات بأثوابهن العصرية البراقة وهن أمام المحلات الزجاجية يسألن عن العطور والألبسة والأحذية..

وأخيراً.. وصل إلى الشارع المشجر الذي طالما سار فيه، ولكن أين تلك الأيام الجميلة حين كان لا يزال في شَرْخ الشباب، يكتب نقداً ويذهب إلى مقهى الفيشاوي ويناقش الأدباء. أما الآن فتتوكأ الذراع المرتعشة في كل خطوة، لشد ما تقدمت به السن في السنة الأخيرة، فالعينان اللتان كانتا من قبل متوهجتين ترقدان الآن خامدتين تحت جفنين ثقيلين يغشاهما ظل قاتم.

كان سيد متعباً من الجدال، خصوصاً من فكرة أصبحت واضحة لديه وضوح الشمس، ومتعباً من هذه المعارك الجارية في الفراغ، إنه متعب من أولئك الثرثارين، الذين لا ينفكون يجادلونه حول أفكاره ومرجعيتها، ومتعباً من الإشراف على تربية الجماعة التي اقتنعت بأفكاره، وليس في الوقت متسع، وليس في النفس رصيد من الصبر، فهو لا يشتهي إلا الراحة وحيداً، ساعات طويلة هادئاً، بعيداً عن كل ما يتعلق بالسياسة، كان يقضي يومه في الحديقة، حيث كانت شمس أكتوبر الخريفية تصبغ أوراق الأشجار بأشعتها النحاسية، كان لا يقابل أحداً غير أعضاء النظام الخاص، فهو يريد أن يستريح من جميع المؤثرات، يريد أن يستجمع شتات نفسه،

وإلى جانبه دوماً كتاب مفتوح لا يقرأ فيه، يشعر أنه مسوق إلى مصير يجهله، مشوش التفكير، لا يبت في الأمور بصرامة وحزم، تاركاً الأحداث تأتي إليه بدل أن يسارع إلى لقائها.. وها هو ذا الوقت يفر الآن بسرعة، الوقت الذي كان فيما مضى يبدو طويلاً، وها هو الصمت يسود أخيراً، ذلك الصمت الذي كان يحبه فإنه أصبح الآن يخشاه، فلم يعد يجد الفرصة سانحة للتفكير والتبصر كما كان من قبل.

في تلك الأيام، كان سيد يرى أحلاماً مفزعة؛ فقد روى الصحفي "محمود الركابي" حواراً دار بينه وبين سيد في منزله؛ يقول الركابي جئت إلى منزل سيد فلما جلست معه قلت له:

الحمد لله على السلامة. ما شاء الله. صحتك عال العال، ولم يبق إلا العروسة!

وهنا ضحك سيد جداً، ثم قال: أية عروسة[٣٥] تقصد؟

قلت: لكلتيهما خلقنا!

وبعدما تحدثنا قليلاً. ثم سألني فجأة: هل لك في تأويل الأحلام؟ لقد رأيت البارحة ثعباناً أحمر اقترب مني ولف نفسه حولي فاستيقظت من ساعتها ولم أنم!

قلت: اسمع يا سيدي. هذه هدية سيقدمها لك أحد المؤمنين، وهي ملفوفة لفات بخيط أحمر. وإن شئت أحضرتها لك الآن : فخذها، واستأنف النوم!

قال: ولماذا لا يكون تفسيرها أن أكون أنا الهدية المقدمة للمؤمنين؟

قلت: أليس بقاء الصالحين أنفع للدعوة الإسلامية؟

قال: ليس دائماً. بل ربما كان ذهابهم أنفع! وأنا لا أتعمد التهلكة، ولكن يجب أن نتعمد الثبات، مع علمنا أن في الثبات التهلكة.

قلت: يا رجل لا تتشاءم هكذا. فالقوم يسيرون نحو الاعتدال.

---

[٣٥] "العروسة": تمثال من الخشب على شكل إنسان فاتح ذراعيه ورجليه على شكل "٨"، يحتضنه المسجون، ويضع رأسه في فتحة دائرية، بجانبها فتحتين صغيرتين لليد تغلق عليه.

قال سيد بعدما هز رأسه بأسى:

- ستعلم غداً!

٦١- خبايا علي عشماوي

لم تخطئ الرؤيا، ولم يشتط الحدس، فلم يمض شهران على هذا الحوار، حتى كان سيد يحتضن العروسة في السجن الحربي ويجلد بقسوة، حتى تمزق لحمه وغرقت ثيابه بالدماء.

فالثعبان الأحمر كان قد اقترب منه والتف حوله، وتمثل هذا الثعبان في "علي عشماوي" ابن السابعة والعشرين، الذي يعتبر لغزاً محيراً، سال في الكتابة عنه حبر كثير، ومع ذلك لا زلنا نجهل الأجوبة القاطعة عن ذلك الشخص، ولن نعرفها أبداً، وكل التحقيقات والمحاضر لا تميط اللثام عن ذلك اللغز.

وعلى مدار التاريخ، إذا وجد العبقري، فلا بد أن يقترن به التلميذ الذي يحمل أفكاره، مثلما كان ابن القيم في حياة ابن تيمية، ومثلما كان رشيد رضا في حياة الشيخ محمد عبده. كذلك لا بد أن يقترن به الخائن الذي يخدعه ويُسْلمه إلى حتفه، مثلما فعل يهوذا الإسخريوطي بالمسيح عليه السلام.

لقد كان علي عشماوي من أكثر الأشخاص الذين وثق بهم سيد قطب حتى يومه الأخير، فكان قبل الاعتقال يأتي إلى بيت سيد بدون ميعاد، وكان سيد يصطحبه هو وخطيبته إلى المصيف في رأس البر ليقضي بينهم أياماً، هروباً من حرِّ القاهرة، وكأنهم عائلة واحدة.. أما بعد اعتقال عام ١٩٦٥، فكان علي عشماوي لا يزال يجلس بجانب سيد قطب في المحكمة ويناجيه كأنه صديق حميم، ويهمس سيد في أذنه:

– طبعا أنا لا أصدق ما يقال عنك.. أنا أعلم كل شيء عنك، وينبغي الرد على هذه الأقاويل، بأن نظل نتحدث سوياً بمودة أمام الجميع!.

والغريب أن سيد قال ذلك، في الوقت الذي كان فيه أحد ضباط المباحث، يقترب من قفص المحكمة، وابتسامة متملقة ترتسم على شفتيه، ويهمس في أذن علي عشماوي:

– أنت رتبتك إيه؟ نقيب واللا رائد، ولا أكثر من كدة، ولا أقل من كده..؟

فقد كان يعتقد أنه أحد الضباط المدسوسين على الإخوان.

ويضحك علي عشماوي بسخرية ويقول:

– احسبها زي ما تحسبها .. المهم أنكم تنبسطوا.

لقد كان علي عشماوي الوجه المقابل للمحامي هنداوي دوير، الذي ورط جماعة الإخوان في حادثة المنشية، وها هو ذا علي عشماوي يورطهم في تنظيم ١٩٦٥، الذي أدى إلى مذابح الإخوان وتسبب في إعدام سيد قطب.

كان "علي عشماوي" شاباً وسيماً، ذكياً، مرحاً، خفيف الظل..، وتلك أولى منح القدر للمحتالين كي ينصبون فخاخهم بأريحية لضحاياهم الأبرياء.

وفي إحدى ليالي الجمعة من أغسطس ١٩٦٥اعتقل علي عشماوي، وخط في مذكراته بأنه تعرض لتعذيب رهيب، يفوق كل احتمال، على يد حمزة بسيوني وشمس بدران لعدة أيام، قبل أن يبوح بما لديه من أسرار، لكن مصادر أخرى، غير موثوقة، تؤكد أنه اعترف بكل شيء في صبيحة ليلة الاعتقال، لكني أشك في ذلك، وأميل إلى تصديق روايته بأنه تم تعذيبه. وكان قد تم اعتقال سيد قطب في مطلع أغسطس عام ١٩٦٥، بعد مضي أربعة عشر شهراً من الإفراج عنه بوساطة الرئيس العراقي عبد السلام عارف.

اقتيد علي عشماوي إلى السجن الحربي، وما إن اجتاز بوابة السجن حتى رأى من الأهوال ما لا يمكن لعقل أن يتخيله، وتم إيقافه أمام مكتب "شمس بدران"، الذي تنفسح أمامه حديقة في وسطها نافورة ماء. وفي هذه اللحظات جاءوا بشاب يدعى "محمد عواد"، كان يعرف بشاعر الإخوان، وظلوا يضربونه، ثم ألقوا به في النافورة، التي تقع في الحديقة، وما انفك صفوت الروبي، يضرب رأسه في حائط النافورة حتى تهشم رأسه تماماً وفارق الحياة.

هكذا ظل علي عشماوي واقفاً يرى صنوفاً من التعذيب الذي لم يخطر له على بال، وكان كل من يخرج أو يدخل إلى مكتب شمس بدران من الضباط، ينظر إليه نظرة شزراء يتطاير منها الشرر، ثم اقترب منه أحدهم وقال له: "قل". فأجابه عشماوي: ماذا أقول؟ فكان يكررها مراراً، ويرد عشماوي بالإجابة نفسها، فلطمه وذهب. ثم جاءه أحد الضباط وأدخله الغرفة، وفي لحظة دخوله انقض عليه "صفوت الروبي" وآخرون فمزقوا ملابسه وطرحوه أرضاً، بحركة مفاجئة تدربوا عليها بمهارة.

قال له الضابط الجالس على الطاولة:

- أنت رجل المصارعة الياباني!.. إن كنت مصارعاً حقاً، فصارع صفوت أمامي.

عقدت الدهشة لسان علي عشماوي فلم يرد، ثم بدأ التعذيب الشيطاني لساعات متواصلة، وكان شمس بدران يقول له:

-لقد اعترفوا عليك، ونحن نعلم أنك أنت الجوكر.

وظلوا يضربونه حتى فقد الوعي، فأعادوه إلى وعيه مرة أخرى بأن أعطوه "ماءً وسكراً" فاستعاد حيويته قليلاً، ثم عاودوا تعذيبه من جديد..

وفي تلك اللحظة، سمع وقع أقدام على البلاط وصرير باب ينفتح، ودخل الغرفة شخص طويل أبيض، بوجه متعجرف، وعينين لا ترمشان، وشفة ممدودة بعناد، ذو شوارب ضخمة، وشعر أشيب. وما إن رآه شمس بدران حتى وقف له باحترام وتملق وهو يقول: تفضل يا باشا..

ثم تابع شمس بدران قوله: إن لم تعترف فإن الباشا سيتكفل بك. كان الباشا هو "حمزة بسيوني" الذي اقترب منه، وبدأ يمارس عليه التعذيب الذي تلقاه في دورات، على أيدي خبراء في "موسكو" حتى فقد علي عشماوي السيطرة على كل شيء في جسده، وانهار جسمه انهياراً تاماً، وأحس بأن عقله أصبح مشلولاً؛ فأعطوه كأس ليمون به كثير من السكر، فلما شربه بدأ يحس بعودة الدورة الدموية إلى جسمه، وبدأ يستعيد وعيه، وكلما انهار جسمه، قبل أن يستسلم عقله، كان يتم حقنه بالمنشطات التي تساعد على الحفاظ على وعيه حتى يعترف؛ حتى أصبح أمام خيارين لا ثالث لهما: إما أن يجلس وينفذ ما يطلب منه ببساطة، وإما أن يموت.

هكذا بدت ساعات من التعذيب المتواصل، الذي كان يهدف إلى تفكيك ذهن "علي عشماوي" بدهاء، لتشويه إحساسه بالمسئولية أمام مبادئه، إلى درجة أنه لن يعترف فحسب، بل إنه سوف يصبح شريكاً مستعداً لموالاة المحققين. وكان لسان حاله يقول: إذا لم يعد بإمكانك خداع المحققين، فإن أفضل شيء تفعله هو أن تثرثر أكثر من اللازم.

لقد تم وضع استراتيجية مفصلة لتحقيق هذه الغاية، بحيث تؤدي إلى إلحاق الأذى به وإجبار عقله وجسده على الخضوع، ومن ثم الاستسلام لإرادة الجلادين، من خلال قصف عقل عشماوي بالأسئلة ليلاً ونهاراً، حتى بدأ القلق والرعب يدبان في قلبه وعقله، وبقي رهن غرف الاستجواب لساعات طوال، يتناوب عليه محققون يجبرونه على الوقوف لمدة ست وستين ساعة متواصلة، حتى أضحى من

الصعب التعرف على ملامحه. وحينما كان يطلب جرعة ماء أو الذهاب إلى الحمام، كان يتم ابتزازه من خلال ذلك؛ فقد كان المحققون أذكياء، وعديمي الضمير في استغلال هذه الحاجة لانهياره واستسلامه.

كانت قدماه وساقاه متورمتين، في حين كان يتم الضغط على عقله لتزداد مفاهيمه تشوشاً، وتتقوض كل قيمه ومعاييره، فلا يعود يؤمن بأي شيء إلا ضمن المنطق الذي يتم إملاؤه وتلقينه إياه من أولئك الطغاة، الذين هم أقوى منه بطبيعة الحال.

كان المحققون يعرفون جيداً بأن أفكار علي عشماوي تنطوي، تحت السطح، على تناقضات داخلية؛ فاستخدموا هذه المعرفة لإرباك عقله وهزيمته، في حين أن التعاقب الدوري والمستمر للمحققين، جعل من المستحيل عليه أن يستمر في التفكير المنطقي المستقيم. فما إن يبدأ عشماوي، بالكاد، بتوليف نفسه مع أحد المحققين، حتى يتم تغيير المحقق لتشتيت تركيزه، مما يضطره للبدء من جديد بالتركيز مع محقق آخر؛ فكانت رغبته في الانهيار والاستسلام تنمو وتزداد باضطراد، وتتردد أمامه دوماً صدى عبارتهم: "هؤلاء الأشخاص الذين تصفهم بأنهم أصدقاؤك، قد خدعوك، واعترفوا بكل شيء".

لقد مارس رجال المخابرات مع علي عشماوي لعبة قذرة بحيث أوهموه أن الإخوان خونة؛ فكانوا يقتادونه ليسمع أقوال بعض قادتهم، الذين كانوا يجبرونهم على ترديد عبارات محسوبة تحت التهديد، ثم يأتون بعلي عشماوي ليسمعهم خفية وهم يرددون هذه العبارات، ثم من جانب آخر يوحون إلى جماعة الإخوان بأن علي عشماوي خائن، وبهذا قطعوا الطريق أمام عشماوي للرجوع إلى الإخوان، واستغل المحققون هذا الأمر لتخويف علي عشماوي من الإخوان وتصويرهم له بأنهم الغول الذي فغر شدقيه لابتلاعه، فلم يعد ثمة مأوى يفر إليه من شبح الإخوان غيرهم!

إن هذا الهجوم الدقيق والمحسوب، على أضعف المواقع في عقله وضميره ونظامه الأخلاقي، سوف يشل عقله ويقوده إلى دهاليز الخيانة؛ لدرجة أن وصل به الخنوع السلبي للمحققين، أن أصبح يتوق لأمر واحد فقط: كلمة ودية من حراسه، الذين كانوا في كل مرة، يحقنون بها دماغه الهشة. ومن ثم، تم تعزيز الوهم بالحب والقبول، الذي بدأ يعمل بطرق عديدة، ساعدت في النهاية على العثور على ألف مبرر وعذر للاستسلام والهزيمة.

لقد كان ألم التعذيب الجسدي، يؤدي به إلى فقدان وعيه المؤقت ونسيان التعذيب، لكن ما إن يستيقظ حتى تبدأ لعبة الترقب والتساؤل: "هل سيحدث هذا لي مرة أخرى، ومتى؟ وهل يمكنني الصمود أكثر من ذلك؟

هكذا كانت التوقعات المبهمة تشل إرادته، وهكذا كان توقع تجدد نوبات التعذيب، تزيد من قلقه وتحطمه، فيبدأ في التساؤل من جديد: "من أنا لأصمد في وجه كل هذا العذاب؟ ولماذا يجب عليَّ أن أكون بطلاً؟

بيد أن استسلام العقل للجلادين، لا يحدث دفعة واحدة، إنما يحدث تحت تأثير الإجهاد النفسي والجسدي والعقلي. ويعرف المحققون، بأن في فترة الاسترخاء المؤقت، يقوم الشخص باجترار ما واجهه أثناء التعذيب، فيبدأ عقله في الإعداد للاستسلام النهائي، ومن خلال هذا التوتر، بين اجترار ذكريات التعذيب والترقب- الذي يتم تكراره لأيام وأيام- يستنفذ العقل طاقاته، ويصل إلى حالة تقديم التنازلات والإجابات التي يريد المحقق الحصول عليها.

لكن هل كان عشماوي غير مدرك لما يقوم به؟ وهل كان ذلك مجرد غباء؟ هل أصيب بعدم الوعي، أو عدم القدرة على الاختيار بين الولاءات المتضاربة؟ وهل يمكننا أن نطلق عليه صفة "خائن"؟ وكيف يمكن لرجل أن يجلس، ويكتب شيئاً يعرف بأنه خطأ، ومع ذلك يستمر في الكتابة ويشعر بأن ما يكتبه حقيقة؟

بلا شك هناك أشخاص أكثر قابلية لغسيل المخ من غيرهم، وقد يكون ذلك جزءاً من استجابتهم الفطرية. لكن ربما يكون السبب، الأكثر مأساوية، في حدوث الخيانة، هو جمود العقل البشري؛ فالشخص الذي لديه احتياجات التبعية المفرطة، أو "الأنا" الضعيفة الضائعة، والشخص الذي يمكن بسهولة الإيحاء إليه، يمكن عادة أن يتم إغراؤه وجره إلى مستنقع الخيانة، للدرجة التي تجعله يتفاخر بما فعل، لأنه في الأساس غير منسجم مع ذاته، ويعاني عقدة النقص، والفخر، والغرور..

إن جرثومة "الخيانة" تنشأ، بادئ ذي بدء، من تنازلات الفرد عن مبادئه ومعتقداته، وبعد أن يتم التوصل إلى هذه التسويات الأولية، يصبح من السهل عليه الاستمرار في تقديم تنازلات أكثر فأكثر، فينتهي الأمر به إلى أن يصبح شخصاً مصنوعاً يرغب في بيع نفسه. فالخائن الحقيقي هو شخص لديه أوهام أنانية وقناعة واعية بأنه هو وحده الذي على الحق، وأنه نوع مختلف من الخائن الطاهر البريء. بيد أن معظم الخونة يتقاسمون صفتين مشتركتين فيما بينهم: الأولى عدم الاعتراف بالخيانة، والثانية التطوع لتقديم تبريرات لا تحصى لخيانتهم. بل، ويحيطون خيانتهم بشبكة معقدة من السفسطائيات، والمثاليات، والتبريرات.

على أية حال، بدأ عشماوي يعترف، ثم بدأ تدريبه على قبول اعترافه، بقدر ما يتم تدريب حيوان ما لأداء الألاعيب والحيل. ثم بدأ يعيد تكرار القول الزائف في عقله، حتى أصبح، وبشكل مستمر، مجبراً على تكرار التفاصيل الخيالية والوهمية في ذاكرته، للدرجة التي أقنعته في النهاية، بأنه قد ارتكب كل ذنوبه الملفقة، وأعماله الزائفة ضد نفسه وضد الآخرين، كما لم يعد عليه واجباً أن يقنع نفسه أكثر، بل أصبح أداة مطواعة في أيدي محققيه، وقد تم تلقينه بما يجب أن يقوله، كطفل تمت تهدئته بالكلمات اللطيفة الناعمة.

إنه أصبح الآن جاهزاً تماماً ليدلي بالاعترافات التي يرغبون بها. وهاكم بعض ما اعترف به:

"إنه انتظم في صفوف الإخوان في سن الرابعة عشرة، لكنه لم يجد الإخلاص لدى كل من عرفهم من جماعة الإخوان، ، فهو قد بايع "محيي هلال" على السمع والطاعة، لكنه وجده شخصاً انتهازياً، بلا ضمير، لا يهمه إلا مصلحته الشخصية، وعندما عملا معاً في مشروع تجاري لحساب الاخوان، كان أكبر التجار المورِّدين لمشروعهم "فيكتور نجرين" يهودي مصري، أشرف على تجهيز المشروع منذ البداية، واقترح أن يحضر فتاة يهودية تجلس على "الكيس" حتى تدير رؤوس الإخوان، كما يقول.

واختبأ "محيي هلال" في بنسيون، تديره فتاة يهودية تأوي فيه بنات الليل.. وعندما ذهب إليه علي عشماوي، فتحت له فتاة كانت ترتدي ملابس فاضحة، وقادته إلى غرفة محيي هلال فوجده قد أطلق شاربه، وصفف شعره "ع الموضة" فسأله كيف جاء إلى هذا المكان، فقال إنه اتصل بالتاجر اليهودي "فيكتور نجرين" الذي أبدى شهامة كبيرة في مساعدته، ودله على هذا البنسيون، ثم ساعده في الهروب من مصر.

ويذكر عشماوي بأن محيي هلال كان قد تورط مع البنوك، وأخذ قروضاً كثيرة لم يقم بتسديدها، ثم دبر حريقاً للمؤسسة التجارية حتى ينجو من دفع الأقساط. وكان يشاركه في الشركة "أبو سبع" الذي أصيب بأزمة قلبية أودت بحياته عندما علم أن أمواله قد ضاعت، وهي كل ما يملك إذْ قد باع أرضه التي ورثها عن والده ليضعها في هذا المشروع.

أما الحاجة زينب الغزالي، فهي: "شخصية تحب السيطرة والإمساك بزمام الأمور، ولا تتورع في إلقاء التهم على غيرها إذا لزم الأمر لتنجو بنفسها، كما أنها تحوم حولها شكوك كثيرة، ويتهمها بعض كبار الاخوان، مثل منير الدلة وسيد قطب، بأنها على اتصال بالمخابرات الأمريكية".

لكن زينب الغزالي تكيل له الصاع صاعين في كتابها الشهير "أيام من حياتي" فتقول: "أثناء التحقيق معي في السجن الحربي جاء علي عشماوي، وكان يلبس بيجامة من الحرير المهفهف، نظيفة، أنيقة، وشعره ممشط، لا يبدو عليه أي أثر للتعذيب، فلما رأيته، واستعرضت في ذهني حالي وحال الآخرين، علمت، بل تيقنت، أن هذا المخلوق قد خان أمانة الله، وشهد على إخوانه زوراً.. وكان "شمس بدران" يعامله بمنتهى الرقة، فصرخت في وجهه قائلة: أنت كذاب أشر، وهيئتك تفضحك.. الإخوان معلقون على الأعواد، تقطع السياط أجسادهم، وتنهشهم الكلاب، ويتقلبون في ألوان العذاب، وأنت على هذه الهيئة؟.. أنت مأجور رخيص!".

وينفي علي عشماوي في مذكراته التهمة عن نفسه بقوله:

"في صباح أحد الأيام فوجئت بزنزانتي تفتح. وتدخل الأخت "حميدة قطب". فقالت لي: إن الحاجة زينب الغزالي قد افترت عليها كثيراً في التحقيقات، وادَّعتْ أنها هي التي قامت بكل الأدوار. وكانت في يدها ورقة مكتوبة أعطتها لي وقالت: اقرأها بسرعة وأرجوك ساعدني، ثم أعدم الورقة كي لا تصل إلى يد أحد". كان في الورقة كل ما قالته الحاجة زينب الغزالي عنها، والأمور التي تريدني أن أصححها في تحقيقات النيابة، وبهذا أكون قد وضعت الحق في نصابه، وقد رفعت عنها الظلم الذي يمكن أن يلحقها إذا تحملتْ وحدها كل هذه الاتهامات. فهذه الأدوار لو تحملتها أخت واحدة فسوف تأخذ حكماً بالإعدام، أما إذا وزعت الأدوار، واعترف كل واحد بدوره فيمكن أن نخرج من حكم الإعدام إلى أحكام بالسجن للأختين..

..لقد كان بعض الإخوة يتنكر لجزء مما فعل ويلقيه على شخص آخر، ووجدتُ أنه ما دام اعترف الجميع، ولم نعد نخفي شيئاً، فعلى الأقل لا بد أن يتحمل كل واحد وزر ما فعل، ويتحمل نتائجه حتى النهاية، وهذا كان دوري طوال فترة

التحقيق: أن أرد الأمور إلى مكانها؛ فمثلاً حينما عُذّبت الحاجة زينب طلبوا مني أن أواجهها بما فعلت، وكانت قد أنكرتْ جزءاً منه ووضعته على عاتق حميدة قطب، فقلت لهم: إنها فعلت كذا وكذا. وحميدة فعلت كذا وكذا، ولابد لكل واحد أن يتحمل نتيجة فعله، ومن يومها والحاجة زينب الغزالي لا تغفر لي هذا الموقف، حتى أنها كتبت تهاجمني بشدة وتفتري عليَّ افتراءات، وهي تعلم أنها غير صحيحة".

***

ويبدو كما أن الحاجة زينب الغزالي لم تغفر لعلي عشماوي هذا الموقف، فإن علي عشماوي لم يغفر لسيد قطب بأنه أهانه وصغره أمام الجميع يوماً ما، فنجده عاجزاً دوماً عن إخفاء عاطفته السلبية تجاه سيد قطب- فهو في نظر عشماوي- شخص متردد، لا يصلي الجمعة، يكفر الناس، ولا يأكل ذبائح المسلمين إلا اضطراراً؛ فهو يعتبرها كذبائح أهل الكتاب، يقول عشماوي:

"أخبرتنا الحاجة زينب الغزالي، أن الأستاذ سيد قطب، أرسل عن طريق أخته "حميدة" رسالة، قرأها علينا الشيخ عبد الفتاح اسماعيل، وكانت حوالي عشر صفحات تحدث فيها عن العقيدة، ووجوب تصحيح الاعتقاد أولاً.. وتصحيح الاعتقاد لا يكون إلا بمعرفة الرب المستحق للعبادة، وأنه لا عبادة إلا لله.. ومعنى "لا إله إلا الله" عند سيد قطب هو إيمان المسلم بالله ورسوله إيماناً قاطعاً ينفي أي تبعية، أو خضوع لغيره، ثم يخلع ما دون الله بعدم الخضوع لأي شخص، أو فكر، أو عادة، أو عُرْف يخالف أمر الله.. كما يجب إعادة تذكير الناس بهذا المفهوم لإعادة بعث العقيدة الإسلامية في نفوس المسلمين الذين تاهوا عن الطريق وانحرفوا عن أصل الايمان.."

ويعلق عشماوي على هذا بقوله: "وترتب على هذا أمور كثيرة خطيرة، منها: اعتبار الناس كفرة، وعدم جواز أكل ذبيحتهم، أو التزوج من نسائهم، ويجب اعتزالهم واستباحتهم.. الخ، وقد جاءني أحد الإخوان وقال لي: إنه سوف يرفض

أكل ذبيحة المسلمين الموجودين حالياً، فذهبت إلى الأستاذ سيد قطب وسألته عن ذلك فقال: دعهم يأكلوها، فليعتبروها مثل ذبيحة أهل الكتاب!".

وسيد قطب، لدى عشماوي، شخصية مترددة لا يثبت على قول، ويتراجع في كلمته التي يقولها، ويسوق للدلالة على ذلك هذه الواقعة:

"أرسلت أطلب شحنة سلاح من الخارج، بناء على تعليمات الأستاذ سيد قطب، فجاءني الرد بأنه تم إرسال الشحنة، فذهبت فرحاً إلى الأستاذ سيد قطب فلما قرأ الرسالة، قال: إن هذا أمر جيد، ولقد أحسنت صنعاً بطلب هذا السلاح الذي جاء في وقته المناسب، وأخذ يعطيني بعض النصائح والتعليمات عن كيفية نقل السلاح، فقال لي بالحرف الواحد: "يمكنك أن تضع السلاح في أوعية مثل "القفة" التي ينقل فيها البلح والدوم، وأن يوضع السلاح وفوقه بلح ودوم، وأن تملأ عربة النقل بهذه الشحنة على أن تكون شحنة بلح ودوم قادمة من أسوان، وأن يتم تجهيز مكان في إحدى القرى لتخزين هذا السلاح تخزيناً مركزياً لا يعلم عنه أحد شيئاً حتى يتم الاحتياج إليه واستعماله في حينه. وطلب مني أن أجمع القيادة وأخبرهم برأيه، وأجهز كل شيء يلزم الشحن..

وبعد الاجتماع ذهب الشيخ عبد الفتاح إسماعيل إلى سيد قطب، فعاد يقول: "إنه سأل الأستاذ سيد: هل أعطى تعليمات لك لكي تتسلم شحنة السلاح، فنفى ذلك". وهنا أحسست بإحباط شديد وخيبة أمل كبيرة، فقد كان الأستاذ سيد قطب بالنسبة لي المثل الكبير للقائد والمفكر والفيلسوف الذي كنت متأثراً به إلى حد كبير. لكنه- بعد أن أنكر ما قاله لي أمام ثورة الشيخ عبد الفتاح إسماعيل- سقط في نظري، وقلت للشيخ عبد الفتاح إنني سوف أذهب للقائه وذهبت إليه في صباح يوم جمعة وواجهته، فرجع في كل كلمة قالها لي بشدة وقال: إنك قد فهمت الأمر خطأ، فأنا لا أقصد المعنى الذي فهمته!

يقول علي عشماوي: في تلك اللحظة أحسست أنني قد ضيعت عمري، وحياتي وسرت بعيداً في طريق خطأ، وانكسرت في نفسي أشياء كثيرة لا يمكن جبرها، وأجهشت بالبكاء أمامه وأمام من كان معي من الإخوة. وأحس الأستاذ سيد قطب أن موقفه في غاية الحرج، فلما جاء وقت صلاة الجمعة، قلت له: دعنا نقم ونصلي، وكانت المفاجأة حين علمت– ولأول مرة– أنه لا يصلي الجمعة، وقال: إنه يرى– فقهياً– أن صلاة الجمعة تسقط إذا سقطت الخلافة، وأنه لا جمعة إلا بخلافة، وكان هذا الرأي غريباً علي تماماً، وشكرته، وخرجنا– ومن معي – من منزله".

أما رواية سيد قطب عن السلاح، في كتابه "لماذا أعدموني" فإنها تختلف عن رواية عشماوي، فيقول: "إن علي عشماوي زارني على غير ميعاد، وأخبرني أنه كان من حوالي سنتين– قبل التقائنا– قد طلب من أخ في دولة عربية، شحنة من الأسلحة، حددها له في كشف. ثم ترك الموضوع من وقتها. والآن جاءه خبر منه أن هذه الأسلحة سترسل– وهي كميات كبيرة حوالي عربية نقل– وأنها سترسل عن طريق السودان خلال شهرين.. كان هذا قبل الاعتقال بمدة، ولم يكن في الجو ما ينذر بخطر قريب. ولما كان الخبر مفاجئاً، ولم يكن ممكناً البت في شأنه، أجلناه حتى نبحثه مع الباقين، فاتفقنا على موعد لبحثه معهم. وفي اليوم التالي– على ما أتذكر– وقبل الموعد، جاءني الشيخ عبد الفتاح اسماعيل، وحدثني في هذا الأمر، وفهمت أنه عرفه طبعاً من علي عشماوي، وكان يبدو متخوفاً منه وغير موافق عليه، وقال: لا بد من تأجيل البت في الموضوع حتى يحضر الخمسة.. وفي موعد أخر كان الخمسة عندي وتقرر تكليف علي عشماوي بوقف إرسال الأسلحة من هناك حتى يتم الاستعلام عن مصدرها وعن مصدر النقود التي اشتريت بها، فإن كان من غير الإخوان تُرفَض، والاستفهام كذلك عن طريق شرائها دفعة واحدة أو مجزأة وطريقة إرسالها، وضمانات أنها مكشوفة أم لا؟ وبعد ذلك يقال للأخ المرسل ألا يرسلها حتى يخطره بإرسالها.. ومضى أكثر من شهر– على ما أتذكر– حتى وصل للأخ علي عشماوي ردٌّ مضمونه الباقي في ذاكرتي: أن هذه الأسلحة بأموال إخوانية

من خاصة مالهم، وأنهم دفعوا فيها ما هم في حاجة إليه لحياتهم، تلبية للرغبة التي سبق إبداؤها من هنا، وأنها اشتريت وشحنت بوسائل مأمونة.. ولا أتذكر إن كان هذا الرد أو رد تالٍ جاء بعده قد تضَمَن: أن الشحنة أرسلت فعلاً، ولا يمكن وقف وصولها".

أما أكثر الأشياء خطورة، والتي طلب رجال المخابرات من علي عشماوي كتابتها، فهي آراء سيد قطب في الثورة وفي جمال عبد الناصر، وبسبب هذه الأقوال أصر عبد الناصر على إعدام سيد قطب، وقد كتب علي عشماوي ما يلي:

"قال لنا الأستاذ سيد قطب: إن الإعداد لثورة ٢٣ يوليو بدأ أثناء حرب ١٩٤٨، وإن حصار الفالوجا كان فرصة ذهبية لليهود؛ لأن جمال عبدالناصر كان موجوداً في هذا الحصار، فتم تجنيده لحساب اليهود في ذلك الوقت. وربطت علاقة قوية بينه وبين "ايجال آلون" الضابط المنوط بالاتصال بين اليهود وبين جمال عبد الناصر. ومن ثم بدأت علاقته بالأستاذ محمد حسنين هيكل منذ ذلك التاريخ؛ حيث كان الأستاذ هيكل مراسلاً حربياً في فلسطين، وهذا سر تقريب عبد الناصر له، إلى جانب أن هيكل اتصل بالأمريكان بعدما ذهب إلى حرب كوريا مراسلاً حربياً؛ حيث تم ربطه بالمخابرات الأمريكية هناك، وأصبح أحد رجالهم النشطين في مصر. لذلك كانت الثورة تعرف طريقها جيداً، إنها كانت تعمل على رفع شعار الإسلام ثم تذبح المسلمين بسيف مكتوب عليه "لا إله إلا الله محمد رسول الله..

...وكان أحد الأهداف الرئيسية لثورة ٢٣ يوليو؛ إبعاد الناس عن الإسلام، لكن بأسلوب آخر غير الذي تم في تركيا. لقد جعلوا لهم واجهة إسلامية وشعارات إسلامية، وبهذا يكون الخَطْبُ أكثر مكراً، وأشد إيلاماً.. وبهذا استطاعت الثورة أن تقوم بإيذاء شديد للإسلام ومبادئه وعاداته وأعرافه وتقاليده المتأصلة في النفوس. وبدأت تحاربها واحدة واحدة، حتى نالوا من الإسلام ككل، وبات الناس يعبدون الله وهم هياكل بلا روح.. وكانت خطة جمال عبد الناصر في

هدم الإسلام، تقوم على هدم اقتصاد مصر أولاً، حتى لا تكون هناك ثروات تساعد في نشر الدعوة أو تقوي شوكة المسلمين، فقام بالتأميم، ومصادرة أموال الناس، ووضع الحراسات عليهم، بل إن الأمر تعدى إلى هدم اقتصاد البلد في كل شيء، على سبيل المثال، فإن منطقة كمنطقة حلوان التي لو كانت موجودة في أي بلد من بلاد الدنيا لاعتبروها منتجعاً سياحياً للاستشفاء، ونظموها وجملوها، واستفادوا من جوها. لكن رجال الثورة- بدلاً من أن يفعلوا ذلك- ملأوا حلوان بالمصانع والمداخن والإسمنت والتلوث..

..أما من الناحية الأخلاقية، فقد ساعدوا على اختلاط المرأة بالرجل واختلاط الفتاة بالشاب، فأقاموا المعسكرات المختلطة بين الجنسين في الجامعة؛ فكانت تحدث فيها مهازل كثيرة؛ وكانوا يأخذون الفتيات لإقامة المهرجانات الرياضية في أعياد الثورة وغيرها. وكانت الفتيات يتغيبن عن منازلهن ويعشن مع الشباب ليلاً ونهاراً بلا رقيب ولا حسيب، وبتشجيع من الدولة على أن يعشن دون وازع من خلق، ودون رقابة أخلاقية، حتى وصل الأمر بمعهد التربية الرياضية أن يعطي الفتاة شهادة تفيد بأنها فقدت بكارتها أثناء التدريب، ولك أن تتصور ما تفعله هذه الشهادة في عقل الفتاة!. لقد جاءتها "الرخصة" لكي تعيش كيفما تشاء وتفعل ما تريد..".

أما عند سؤال عشماوي عن الشخصيات التي أدرجت في قائمة الاغتيالات، عند شروع الحكومة في ضرب الحركة الاسلامية، فإنه أجاب بقوله: "شخصية الرئيس جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، وزكريا محي الدين.. أما المنشآت التي تقرر تدميرها، فهي: مبنى الإذاعة والتليفزيون، ومحطات الكهرباء، والقناطر الخيرية.. ثم عقب عشماوي على ذلك بقوله: لما عرض موضوع نسف المنشآت اعترضت أنا على نسف القناطر الخيرية، بقولي: إن مثل هذا العمل لن يفيد أحداً إلا القوى الصهيونية التي تقولون إنها تنفذ مخططاتها لتخريب الدول العربية، وإننا

بهذا نقوم بالتخريب نيابة عنهم، وبناءً على اعتراضي استبعدوا القناطر الخيرية، لكنهم أصروا على تدمير باقي المنشآت".

كما لا يغفر "علي عشماوي" لجماعة الاخوان بأنها كانت السبب وراء طلب زوجته الطلاق منه، بسبب اعترافاته على إخوانه أثناء التحقيق، فيقول: "بدأ الإخوان يؤذونني إيذاء شديداً، فكانوا يسبونني بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، وأصدروا فتوى بأنني كافر، خارج عن جماعة المسلمين، فاعتبروا زواجي باطلاً، ولا بد لزوجتي أن تطلق مني. وكان نتيجة تلك الفتوى أن زوجتي- التي كنت قد تزوجتها قبل أن أدخل السجن بفترة- جاءت تطلب الطلاق، ولم يؤلمني هذا الأمر، فقد كنت أتوقعه. لقد جاءت بالمأذون معها، وجلست عند مأمور السجن، وتم الطلاق في هدوء، وإمعانا في الإيذاء والإيلام؛ فإنهم زوجوها من أحد الإخوان الموجودين في السجن، وعقدوا العقد وهو مسجون، وكانوا يقولون إننا طلقناها لموقفك من الجماعة، وليس لأنك مسجون".

٦٢- الاعتقال الأخير

في الحقيقة، لم يكن اعتقال سيد شيئاً مفاجئاً له، بل كان يتوقعه وينتظره، ففي يوليو ١٩٦٥ اعتقِل أخوه محمد قطب، وأرسل سيد، مع ابن أخته رفعت، رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى المباحث العامة، احتج فيها على طريقة اعتقال أخيه محمد، واستنكر كيف لا يعرفون مكان اعتقاله حتى الآن، وكتب في ذلك قصيدته الخالدة:

أخي أنت حرٌ وراء السدود أخي أنت حرٌ بتلك القيود
فأطلق لروحك إشراقها ترى الفجر يرمقنا من بعيد
أخي قد أصابك سهمٌ ذليل وغدراً رماك ذراعٌ كليل
ستُبترُ يوماً فصبرٌ جميل ولم يَدْمَ بعدُ عرينُ الأسود

أخي هل تُراك سئمتَ الكفاح وألقيتَ عن كاهليك السلاح
فمن للضحايا يواسي الجراح ويرفع راياتها من جديد
أخي إنني اليوم صلب المراس أدُك صخور الجبال الرواس
غداً سأشيح بفأس الخلاص رؤوس الأفاعي إلى أن تبيد
أخي إن ذرفتَ علىّ الدموع وبللّت قبري بها في خشوع
فأوقد لهم من رفاتي الشموع وسيروا بها نحو مجد تليد
فإن أنا مُتّ فإني شهيد وأنت ستمضي بنصر جديد

لكن الشيء الأكثر مأساوية من اعتقال أخيه محمد، والذي آلم سيد قطب كثيراً، بل لم يكن يتوقعه أبداً، هو اعتقال "رفعت" ابن اخته نفيسة، وقد كان شاباً رياضياً ممشوق القوام في الرابعة والعشرين، وكان سيد يحبه كثيراً، ويغدق عليه كل ما ينطوي عليه قلبه من عاطفة البنوة المستكنة فيه، إذ لم يحظ بالزوجة والولد، فكان يعتبره ابناً له..

فوجئ سيد، وهو في غرف التحقيق، بالجلادين يقتادون شاباً يدفعونه أمامهم، وينهالون عليه بالسياط والصفعات والركلات، ثم طرحوه أرضاً، فإذ بالشاب رفعت بكر شافع، ابن أخته نفيسة، وقد أخذوا يسومونه صنوف العذاب الشيطاني، ليعترف على خاله بأشياء لا علم له بها، لكن الشاب أبى الكلام ولاذ بالصمت، لأنه ببساطة ليس لديه ما يقوله؛ إذ هو بعيد كل البعد عن معرفة خصوصيات خاله، أو معرفة أسماء ضيوفه وزائريه، فلم يكن يهتم بهذه الأشياء أصلاً، كان اهتمامه منصباً على الرياضة واللياقة.. وهنا انهال الجلادون، على هذا الشاب الغض الطري الساذج، بكل ما وسعهم من بطش وجبروت حتى لفظ أنفاسه بين أيديهم، وشوهد سيد يبكى لهذا المنظر الأليم الذي فطر قلبه، وكانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي بكى فيها في أقبية التعذيب!

في تلك الليلة أعفي سيد من التحقيق، واقتيد إلى زنزانته برفق لم يألفه، وما إن أغلق عليه باب زنزانته حتى راح يبكي ابن أخته في صمت وجيع..

يذكر المهندس "مصطفى راغب" هذا الحادث بقوله: «..دخل سيد قطب الحجرة، ثم دخل بعده شاب، وبدأت عملية التعذيب للشاب، وبدأ صوته يرتفع ويعلو.. ثم بدأ يخف شيئاً فشيئاً حتى خَفَتْ تماماً.. ولا أدري ما الذي حدث، فلما استدعوني استقبلني شمس بدران على باب الحجرة، في حالة فزع شديد، ولونه مخطوف.. ولأول مرة- على غير عادته- أجلسني على الكنبة ورأيت آثار دماء في أرضية الحجرة، وسجادة ملفوفة بشيء ما!

قال لي شمس بدران: ما حكم هذا القتيل الذي قتل في التعذيب؟ قلت: قالوا لك عني أني مفتي؟ قال: هو يعتبر إيه؟ قلت: هو لقي ربه.. وربنا مطلع على قلبه، ولا يعرف القلوب إلا الله..

وعلمت أن هذا الشاب هو ابن اخت سيد قطب، الذي استشهد من التعذيب أمام خاله».

***

على أية حال، بعدما كتب علي عشماوي تقريره المفصل، البالغ ثماني صفحات، أخذت الشرطة تبحث عن الأسماء الواردة فيه، وبفضل المخبرين المدربين تم إلقاء القبض على أعداد مهولة في فترة وجيزة، وإلى جانب المخبرين الذين يتقاضون أجراً، انضم عدد لا يحصى من المخبرين المتطوعين بلا أجر.. فعندما تقوم الدولة بضبط مواطنيها بالترهيب، لا بد أن تزهر نبتة الوشاية المقيتة، فيتحول الجميع إلى وشاة، لا لشيء إلا ليبعد التهمة عن نفسه أنه ارتكب مخالفة ضد النظام.

وما لبثت السجون أن امتلأت عن آخرها، حتى إن مدراء السجون أبلغوا مجلس قيادة الثورة أنهم لم يعد بوسعهم استقبال أي سجين جديد. بل إن التعذيب الشنيع كان يمارس ليس على من ثبتت بحقهم تهم فحسب، إنما على المشتبه بهم أيضاً، ولولا عقيدتهم الراسخة أن المنتحر مخلد في النار، لآثروا جميعاً الانتحار، الذي هو أفضل من أن تمتهن إنسانيتهم إلى هذا الحد في أقبية التعذيب، ذلك أن مصر لم تعرف في تاريخها هذا الكم المخيف من الاعتقالات والمحاكمات والتعذيب، كمثل الذي عرفته إبان الحكم الناصري باسم الثورة. لقد تحطمت الكرامة الذاتية للأفراد، وتوقع كل فرد أن يُطرق باب بيته في الليل أو في النهار للزيارات المفاجئة، فارتخت الأخلاق تدريجياً، وانبجس الخوف الجماعي الذي استسلم له تدريجياً حتى أشجع الشجعان، ولم تلبث الخمارات وبيوت الدعارة، بفضل الترويض الناصري، أن امتلأت بالزوار، ليس لممارسة الرذيلة فحسب، بل لإثبات حسن السير والسلوك، وأنهم ليسوا إخواناً، ولا شأن لهم بالسياسة.

٦٣- لماذا أعدموني

في الثاني والعشرين من أكتوبر ١٩٦٥ انتهى سيد من كتابة تقريره المفصل للمحققين، وقد نُشِر هذا التقرير فيما بعد في كتاب بعنوان "لماذا أعدموني"، وفي هذا التقرير يبدو سيد قطب أشد حيوية وأكثر تبصراً، وهذا التقرير يُظهِر بأي صفاء ذهني غدا سيد في لحظاته الأخيرة. وفي الحقيقة لم يكن هذا تقريراً بل كان لغماً. هذا اللغم وضعه سيد بطريقة حاذقة للغاية لكي لا ينفجر على الفور في الموقع المرغوب.

كان سيد يود أن يكتب كلمة أخيرة مؤثرة؛ يضطر المحققون والمسئولون إلى قراءتها اضطراراً، ليس حباً في كتابات سيد، ولا إعجاباً بأسلوبه، إنما لمعرفة المزيد عن علاقته بالتنظيم، لكن أنَّى له ذلك!

وفي لحظة باهرة جاءته الفرصة المواتية على طبق من ذهب، حينما أجبره المحققون على كتابة تقرير مفصل، بخط يده، عن علاقته بالإخوان المسلمين وشباب التنظيم السري، فكتب هذا التقرير بأسلوبه الأدبي الرشيق ووضع في ثناياه- بذكاء شديد- كل ما أراد قوله. تداول المحققون والمسؤولون هذا التقرير وقرأوه. وقد أجبر المحققون سيد قطب على إعادة كتابة التقرير البالغ قرابة ستين صفحة لإضافة جملة "سيادة رئيس الجمهورية" قبل اسم جمال عبد الناصر الذي ذكره بادئاً غفلاً بدون ألقاب، لكن لا بأس أيها الأوغاد، فأنتم لا تعرفون ما خبأته لكم في ثنايا هذا التقرير! هذا ما قاله سيد وهو يعيد كتابة تقريره.

ولقد أثر هذا التقرير في كل من قرأه واطلع عليه من العساكر والضباط والمحققين والوزراء، حتى كاد يحدث انقساماً في الرأي بينهم، كعادة كتابات سيد عندما تخرج من القلب، وهاجم بعضُهم التقرير، ووصفوه بأنه "يدس السم في العسل". وتأثر بعضُهم بالتقرير مثل نائب رئيس الجمهورية "كمال الدين حسين" الذي على إثر قراءته بعث رسالة إلى جمال عبد الناصر جاء فيها: (اتق الله! ولا تكن ممن قال الله فيهم (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم!). وصلت الرسالة إلى جمال عبد الناصر، فأصدر قراره باعتقال الوزير وإيداعه السجن، ثم توعد جمال عبد الناصر سيد بقوله "والله عال يا سي السيد، عايز تؤلب عليَّ رجالتي كمان!" ووصل التقرير إلى الصحف ونشرته جريدة الشرق الأوسط على حلقات تحت عنوان: "لماذا أعدموني!".

وافتتح سيد تقريره بقوله:

"لقد كتبت بياناً مجملاً قبل هذا، تنقصه تفصيلات كثيرة، كما تنقصه وقائع وبيانات كثيرة.. ولقد أسيء فهم موقفي، وتقدير دوافعي في كتابة ذلك البيان، على ذلك النحو، وأرجو أن يكون في هذا التقرير الجديد المفصل ما يفي بالمطلوب، ويجعل موقفي مفهوماً على حقيقته. والله يعلم أنني لم أكن حريصاً على نفسي، ولا

قصدت تخليص شخصي بذلك الإجمال!.. لكنني- ويجب أن أعترف بذلك- كنت أحاول، أولاً وقبل كل شيء، حماية مجموعة من الشباب الذي عمل معي في هذه الحركة، بقدر ما أملك، لاعتقادي أن هذا الشباب من خيرة من تحمل الأرض في هذا الجيل كله، وأنه ذخيرة للإسلام وللإنسانية، حرام أن تبدد وتهدر، وإنني مطالب- أمام الله - أن أبذل ما أملك لنجاتهم، لذا كان ذلك البيان المجمل، الذي لا يحتوي كل التفاصيل الدقيقة، وهذا هو كل ما أملك في الظرف الحاضر للتخفيف عنهم. وقد يشملني هذا التخفيف ضمناً، لكن، ويعلم الله، أن شخصي لم يكن في حسابي، وقد احتملت المسؤولية كاملة، من أول كلمة، وقلت:

إنه آن الأوان أن يقدم إنسان مسلم رأسه، ثمناً لإعلان وجود حركة إسلامية، وتنظيم غير مصرح به، قام أصلاً على أساس أنه قاعدة لإقامة النظام الإسلامي، أياً كانت الوسائل التي سيستخدمها لذلك. وهذا في عُرف القوانين الأرضية جريمة تستحق الإعدام!. كما يجب أن أبين، في هذه المقدمة القصيرة، أن تقديمي ذلك البيان الأول المجمل بهذا القصد، هو واجبي كمسلم؛ فالأسير المسلم لا ينبغي له أن يدل على من وراءه من جند الإسلام، ولا يكشف مَقَاتِل المسلمين وعوراتهم ما أمكنه.

لكني الآن، وقد تبين أن هذا الشباب قد أقر بكل تفاصيل أدواره الخاصة والعامة، وأنني بهذا التقرير لا أدل عليهم بشيء، فقد ارتفع الحرج عن صدري، في ذكر كل التفاصيل، مع محاولة ترتيبها ترتيباً زمنياً بقدر الإمكان..

ثم ختم تقريره بقوله:

هذه نهاية كلمات رجل يستقبل وجه الله، يخلِّص بها ضميره، ويبلِّغ بها دعوته إلى آخر لحظة، والسلام على من اتبع الهدى.

السجن الحربي في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٦٥

سيد قطب

في العشرين من ديسمبر ١٩٦٥ انتهى التحقيق مع سيد وإخوانه، وأصدر جمال عبد الناصر قراراً بتشكيل محاكم عسكرية لمحاكمة الاخوان، كان قضاتها من ضباط الجيش، وكانت المحكمة برئاسة الفريق أول "فؤاد الدجوي" الذي كان حاكماً إدارياً لقطاع غزة عام ١٩٥٦، يقول الصحفي الشهير مصطفى أمين: "عندما وصلت إلى نيويورك بعد العدوان الثلاثي على مصر، فوجئت بجميع تليفزيونات أمريكا تعرض فيلماً لِلِّواء فؤاد الدجوي حاكم غزة، وهو يستسلم للجيش الإسرائيلي، كان الفيلم مُهيناً للجيش المصري، وكان الحاكم الدجوي يقف ذليلاً أمام ضابط إسرائيلي يقدم له الخضوع، ويثني على الجيش الإسرائيلي وشجاعته وقوته ومروءته وإنسانيته، ويدلل على هذه المروءة بأن زوجته كانت مريضةً وأن اليهود نقلوها إلى مستشفى في تل أبيب لإجراء عملية جراحية لها.. وعندما عدت الى القاهرة، ورويت للرئيس ما نطق به اللواء الدجوي في التليفزيون، قال لي الرئيس: إنه سمع بنفسه هذه الأقوال، وإن الدجوي أسير حرب في إسرائيل الآن، وإنه ينتظر عودته مع الأسرى ليحاكمه محاكمةً عسكريةً وليُضرب علنًا بالرصاص. وعاد اللواء الدجوي من الأسر، ولم يحاكَم، ولم يعدَم رميًا بالرصاص، وفوجئتُ بعد ذلك بأن الاختيار يقع دائماً على الدجوي ليكون قاضياً في أي محاكمة يرى المسئولون أن أدلتها ضعيفةٌ ولا أساسَ لها".

٦٤- المحاكمة

في مطلع أبريل ١٩٦٦ عقدت محاكمة سيد قطب، وتطوع محامون من كل جهات الريح الأربع للقدوم إلى مصر والدفاع عنه، لكن الحكومة منعتهم، كما رفضت حضور مندوب عن "منظمة العفو الدولية" بصفة مراقب..

في صباح يوم المحكمة دخل سيد قاعة المحكمة، وعلى شفتيه ترف ابتسامة ساخرة من المهزلة التي يراها أمامه: ضباط جيش، لا يفقهون في القضاء شيئاً، أصبحوا قضاة يحاكمون الناس، أما رئيس المحكمة فهو "فؤاد الدجوي" المعروف بالسفه والحمق.. جلس سيد قطب في القفص وعن يمينه جلس يوسف هواش، وبجانبه الشيخ عبد الفتاح إسماعيل، وعن يساره جلس علي عشماوي، وافتتحت الجلسة، وبدأ المحامي في مرافعته، قائلاً:

- إن هواش كان يرى في سيد قطب أستاذاً لا يفارق كتابُ الله عينيه.. وهو محل احترام الجميع في السجن..

وزمجر الدجوي صائحاً بالمحامي:

- إيه عرفك يا استاذ.. احترام إيه.. دا مجرم مرتكب جريمة.. يحترموه إزاي في السجن؟

فأجاب المحامي: لمظاهر التقوى..

فيقاطعه الدجوي مرة أخرى: مين قالك إنه كان محترم في السجن؟

فيرد المحامي: معلش.. بلاش دي.. نرجع لموضوعنا..

وهنا يهمس سيد قطب بصوت سمعه من معه في قفص المحكمة، ويقال إن الدجوي سمعه أيضاً:

- وأنت هل كنت محترماً عندما كنت تهين الجيش المصري في التلفزيون الإسرائيلي أمام العالم كله؟

ويلتفت الدجوي موجهاً الكلام إلى سيد قطب:

- إيه.. في حاجة.. ما هي علنية.. الجلسة علنية! ما هو أنا شايفك بتكلم اللي جنبك، ومن حركات فمك بتقول إنه محصلش.. اسمعني دلوقتي عشان الصحافة بتكتب..

وبعدما انتهى المحامي من مرافعته نادى الدجوي بصوته الجهوري : سيد قطب إبراهيم!

خرج سيد ببطء من القفص، وسار أمام المنصة متعباً متظاهراً باللامبالاة التامة. لكن القريب من عقل سيد ونفسه، كان باستطاعته أن يلاحظ شيئاً واحداً: أن لم يكن سيد قطب أبداً أشد تنبهاً، وأكثر تيقظاً، وأقوى تصميماً على مجابهة الدجل منه في هذه الليلة!

الدجوي: قل لنا معلوماتك المفصلة عن التنظيم، وعن صلتك به..

وما إن نطق سيد بأول كلمة حتى قاطعه الدجوي بقوله:

زعق شوية.. علشان أنا بيني وبينك متر ونصف ومش سامعك.. أنا عايز الكل يسمعك.. يا سيد يا قطب..

سيد: سأجتهد بقدر ما أستطيع.. إن صلتي الحقيقية بالتنظيم تعود إلى..

الدجوي: (مقاطعاً) لا.. وقف بقا.. أنت بتقول صلتك الحقيقية.. يعني يوجد صلة غير حقيقية؟ لأن يوسف هواش (وكيلك ونائبك وخليفتك) أقر بأن أختك حميدة أبلغتك وأنت في السجن عن التنظيم..

سيد: (ببرود) يُسأل يوسف هواش عن هذا..

الدجوي: ما يسألش ولا حاجة.. أنا باقول كلامه.. كمل كلامك..

سيد: ..أنا عرفت أن هناك شباباً يقرأ لي..

الدجوي: صلتك كانت إيه بالشباب ده؟ .. رد بقا يا اخويا؟

سيد: (سكت سيد وقال بعد تنهد) حميدة أبلغتني أن الحاجة زينب الغزالي تقول: إن هناك شباباً يقرأ كتاباتك، ويحب أن يستزيد من أفكارك..

الدجوي: مين اللي كان يأخذ مسودات كتاباتك؟ حميدة؟

سيد: (بضيق) لا أدري!

الدجوي: (بسخرية) هل حميدة بلغت درجة الأستاذية؟ عشان تقدر تأخذ من الكتب؟

سيد: (بحزم، ونظراته تشي بأنه يقصد الدجوي) هي تفهمها أحسن من كثير من المتعلمين.. هذه كل الصلة التي كانت بيني وبين هؤلاء الشبان، وأنا في السجن..

الدجوي: الشبان يعني التنظيم؟

سيد: أنا قلت الشبان!

الدجوي: شبان .. شبان .. ما فيش حاجة حا تنفعك! ألم تعلم أن الشباب اللي عايز يقرأ لك مسلح؟

سيد: لم أعلم إلا أنه شباب مسلم!

الدجوي: عبد الفتاح إسماعيل ليه كان عايز يزورك؟

سيد: كان يريد أن يتزود من..

الدجوي: (متظاهراً بخفة الدم) يتجوز مين؟

سيد: (باحتقار) يتزود علم .. مش يتجوز، هناك فرق بين الكلمتين؟

الدجوي: (يشعر بالحرج) طيب وبعدين..

سيد: "محمد قطب" طلب مني أن أسمح بمقابلة الحاج عبد الفتاح.. وزينب الغزالي أيدت كلامه..

الدجوي: يعني يقابلوك بالواسطة.. الواسطة من محمد والتزكية من زينب!

سيد: أنا واضح جداً في تعبيري!

الدجوي: (بغضب).. يعني إيه؟ هو أنت شايف أني متعثر في الفهم؟

سيد: (بازدراء) لا.. العفو!

الدجوي: وعبد الفتاح اسماعيل، وعلي عشماوي قابلوك فين؟

سيد: مش فاكر!

الدجوي: مش مهم تفتكر أو ما تفتكرش.. إحنا يهمنا مقابلتك لأعضاء التنظيم الخمسة!

سيد: (باستغراب) أعضاء إيه؟

الدجوي: القيادة يا أخي ..

سيد: سميهم كما تحب!. أنا أقر رأياً يسجل للتاريخ!.

الدجوي: رأيك مالوش موضوع عندنا.. أنا عايز أعرف أنت قلت لهم إيه.. أنا بقالي ٢٠ دقيقة في ٤ سطور، ومستعد أقعد معك أربعة أيام.. يعني من الآخر مين مِنْ أفراد قيادة التنظيم كان يتصل بك وحده؟

سيد: علي عشماوي!

الدجوي: وقال لك إيه علي عشماوي؟

سيد: أخبرني عن أسلحة ستأتي من السعودية، وأن هذه الأسلحة كان قد طلبها منذ سنوات، قبل أن ألتقي به طبعاً، ثم نسي الموضوع، حتى جاءته أخيراً رسالة تفيد بأن الأسلحة شحنت بالفعل.

الدجوي: يعني قبل أن تتولى أنت قيادة التنظيم؟

سيد: نعم!

الدجوي: (وقد بدا عليه الضيق) مش ده اللي حصل.. أنت عايز تأكلني وأكلك في الكلام!

سيد: (بسخرية) لا ما فيش داعي..

الدجوي: لما قلت لعشماوي استلم السلاح.. كان ليه؟

سيد: كان لحساب تأمين التنظيم.

الدجوي: (بسعادة) خالصين يا عم سيد!

الدجوي: ولما سئل عشماوي عن الاغتيالات، قال: إنك أضفت اسم مدير مكتب المشير، ومدير البوليس الحربي!

سيد: ليقل عشماوي ما يريد، أنا أقرر الحقيقة!

الدجوي: وعشماوي هل يقرر الكذب؟

سيد: هذه كانت مجرد اقتراحات، لم يلتفت إليها أحد، والذي يقترح يقترح!

الدجوي: وأنت كان اقتراحك إيه؟

سيد: كان اقتراحي تحويل التنظيم إلى تنظيم إسلامي تربوي..

الدجوي: وما دام تنظيم إسلامي تربوي ليه يكون سري؟

سيد: عشان الجماعة ممنوعة، لا بد أن يبقى سرياً، حتى لا يأتي خطر على وجوده، ويعذب أعضاؤه في السجن الحربي والقلعة، كما حدث سنة ١٩٥٤وسنة ١٩٦٥، ثم يحكم عليهم بالشنق كما حدث في..

الدجوي: (وقد فقد أعصابه) أنت كذاب فيما تقوله.. هذه هي السموم التي تنفثها فيمن حولك..

سيد: (بدون تأثر) أنا أسجل كلامي للتاريخ!

الدجوي: أنت قلت إن المرشد وافق.. والتنظيم أحس بصفتك القيادية من أول لقاء!

سيد: (بحزم) أخشى أن تكون هذه أقوال شخص آخر..

الدجوي: (بعصبية) نعم يا أخويا؟.. أنا باقول بالنمرة، ومحاميك موجود، وإذا قال الكلام ده مالوش أصل نستبعده.. إنت زعلان ليه؟

ويتفحص الدجوي الأوراق التي أمامه.. ويرتبك ويغير الموضوع عندما يكتشف صدق ملاحظة سيد قطب، وأنه كان يناقشه من أقوال متهم آخر!..

الدجوي: قلت إيه يا سيد قطب عن المجتمع الحاضر.. بس اوعى تسرد لي "معالم في الطريق" كله!

سيد: أين هو "معالم في الطريق"؟ لا معي، ولا مع الناس!

الدجوي: (يغير الموضوع مرة أخرى) قرر علي عشماوي أنه بعد استعراض موضوع الاغتيالات بالأسماء، أنك وافقت عليها وأضفت إليها مدير البوليس الحربي ومدير مكتب المشير!

سيد: "علي عشماوي" كان واحد من خمسة!

الدجوي: حصل ده ولا ما حصلش؟

سيد: ما حصلش!

الدجوي: لازم عشماوي ما بيفهمش خالص.. لأنه برضه قال إنك قلت لهم يجب أن ننشط لتنفيذ أهدافنا بالقوة، ونصطدم مع الحكومة في أي وقت في ساعة الصفر..

سيد: عند الدفاع عن النفس!

الدجوي: وكل كلامك عن الهجوم وترتيب موجة الهجمات والتنفيذ عندما تحدد أنت عنصر المبادأة، راح فين؟

سيد: يوجد أربعة غير عشماوي!

الدجوي: كمان حميدة قطب قالت: إن أهداف التنظيم هي إسقاط الحكم الحاضر.. وأظن حميدة قطب دي ثقة.. تفضل محلك!

سيد: تسمح لي بكلمة!

الدجوي: إن كان فيه حاجة قولها للأستاذ المحامي!

وهكذا أنهى الدجوي محاكمة سيد، بأن منعه من قول كلمته الأخيرة.

***

استمر الدجوي يناقش المتهمين من الإخوان حوالي شهراً، وبعد ثلاثة أشهر أصدر الدجوي حكماً بالإعدام على سبعة أشخاص منهم: سيد قطب، ويوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل، وعلي عشماوي، ونفذ حكم الاعدام فيهم جميعاً، ما عدا واحداً هو "علي عشماوي" الذي تم الإفراج عنه وتسهيل سفره إلى أمريكا ليعيش هناك، يقول علي عشماوي في مذكراته:

"وكنت في السيارة مع سيد قطب يوم الحكم، فجاء الشيخ عبد الفتاح إسماعيل وقال: "إعدام"، ثم جاء يوسف هواش وقال "إعدام" لكن الأستاذ سيد قطب قال: لا تقولوا إعدام، بل قولوا شهادة. وفي الحقيقة كان سيد قطب يتوقع إعدامه قبل صدور الحكم، وأخبرنا قبل ذلك بأن رجال الثورة قالوا بأنهم أخطأوا حين لم يعدموه عام ١٩٥٤، وسارت بنا السيارة إلى السجن الحربي.. وفي الطريق دار بيننا حديث أتذكره جيداً، بدأه الأستاذ سيد قطب بقوله: لو تلوثت يد جمال عبد الناصر بدمائنا فسوف يزول ملكه خلال سنتين أو ثلاث".

يا لهذه النبوءة الغريبة التي تصدر عن هذا السجين البصير، القابع في سيارة عسكرية مظلمة!

٦٥- الإعدام والنكسة

وفي يوم الاثنين الموافق ٢٩/ ٨/ ١٩٦٦ وعند الفجر كانت نجمتان تبهتان ببطء في الجهة الشرقية، وتباشير ضوء تنبعث من كوة الحجرة الصغيرة، وينقطع النوم رويداً رويداً، عن جفني سيد.. وفي الساعة الرابعة، حين كان الليل ما زال مدلهماً في أروقة السجن وفي الزنازين، كان بضع حراس يتقدمون نحو الحجرة.. استخرج السجين من سجنه وهو مرتدياً بجامته، وللمرة الأولى منذ زمن طويل رأت عيناه نصف المفتوحين ضوء الفجر، وستكون المرة الأخيرة وإلى الأبد. مشى الرجل الأعزل المكدود وسط صلصلة القيود، ومن دون مقاومة للجنود، وثمة ابتسامة رضية صبورة ترفرف على شفتيه، أضفت على وجهه الحنطي جلالاً كاملاً.. كان ينطق بقوله تعالى: "أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله" غير أن الجنود لا يريدون موعظة، بل يريدون ترقية.

في تلك اللحظة، ظهر مسئول كبير في السجن لينتزع من سيد آخر انتصاراته، إذ عرض عليه أن يكتب بخط يده ندمه واعترافه بتعاونه مع جهات أجنبية لقلب نظام الحكم، لكن معنويات سيد ارتفعت في اللحظات الأخيرة، واشرأبت نفسه، ورفض العرض مجدداً وقرر بحسم أنه مستعد لكل شيء في سبيل قناعته.

وهكذا لم يبق أمام سيد قطب سوى السبيل المأساوي. وانطلق الموكب الجنائزي. كان في المقدمة رئيس السجن ومعاونوه، وقد ارتدوا أوسمة الرتب، وسار السجين عبر الممر الطويل، وأمامه عدد لا حصر له من العساكر الصامتين الخاشعين، ولفيف من أزلام التعذيب المأجورين، وبشكل متواصل راح "شمس بدران" يكلم سيد ويسير بجواره خطوة بخطوة ويطلب منه أن يكتب إقراراً في اللحظات الأخيرة ينكر فيه آراءه. كانت إجابة سيد قاطعة: "إنَّ إصبع السبابة الذي يشهد لله بالوحدانية في الصلاة، ليرفض أن يكتب حرفاً واحداً يقرّ به حكم طاغية".

ابتعد شمس بدران عن ضحيته خائب الرجاء، وأصبح على السجان أن يؤدي مهمته الكئيبة، فلم يتردد في لف الحبل حول عنقه بغلظة، وعندها تراءى له الشيخ عبد الفتاح الشرقاوي وهو يقرأ القرآن بصوته الملائكي في بيتهم، وتراءت له أمه وهي تتسمع من وراء الشيش للقرآن وهو يتلى في بيتهم وهو صغير. وتراءت له إشراقة الشمس الذهبية من وراء الأفق البعيد فوق حقول القرية، وتراءى له والده وهو يأخذ بيده لتسجيله في المدرسة، وتراءت له نفسه وهو طفل صغير يلعب في مدرسة القرية أيام فيضان النيل، ويشرب من الماء الرائق كالبلور من مزيرة المدرسة، وتراءى له ابن أخته رفعت وهو يرتدي أبهى حلله ومقبلاً على خاله لاحتضانه.. لقد عادت حياته بأسرها في لحظاته الأخيرة بشكل مكثف، وتناهى إليه صخب الماضي بأسره؛ الحياة التي يبدو أنه لم يعشها على الوجه الذي تمناه، فكل الأغلاط وأوجه التقصير، وكل ما كان خاوياً بدا يكتسب معناه مرة واحدة، وغدا كل شيء كما أرادت إرادته بالضبط: نقياً، لا شائبة فيه، بل وضع الموت نفسه بصورة كاملة، تحت تصرف الشهيد.

وما هي إلا لحظات حتى سمع دوي الجسد وارتطامه بالهواء بعد تعليقه بحبل المشنقة، وترتد الهامة التي يلفها حبل المشنقة، وتنثني على الكتف، وتنطفئ العينان الرماديتان الكبيرتان اللتان رأتا العالم رؤية خالفت كل رؤية أبناء عصره. والآن فحسب يدرك الشهيد أخيراً حقيقة كل أفكاره ومعناها!

وفي أيام قلائل يتطاول البنيان الرائع لموت هذا الشهيد، فلم يعد يتعرض لحسد الآخرين، أو إزعاجهم وسعيهم له بالدسيسة والنميمة، ويقف له المجد لاهثاً من وراء الأبواب الموصدة. وفي الخارج يتزاحم المراسلون والصحفيون والفضوليون والمخبرون ورجال الشرطة.. وأمام السجن كانت تتطلع أخته، حميدة وأمينة، وقد هدهما الحزن، لتريا محياه عن بعد، وعلى القرب من فرشته كانت ترقد كراسة

مغلقة وفوقها قلم رصاص يشكو الوحدة، فما عادت يدا الشهيد قادرة على الإمساك بالقلم.

وما إن أذيع بيان إعدامه حتى عمّتْ موجة من السخط والاستنكار أرجاء العالم الاسلامي، مما حذا بجمال عبد الناصر، بعد الاستنكار الذي عم العالم الاسلامي بأسره، لإعدام سيد قطب، أن يبذل كل ما في وسعه، ليتملص من مسؤوليته تجاه الاجرام المتمثل في إعدام سيد قطب. فأذيع أن جمال عبد الناصر بذل جهده مع مجلس الثورة، (وكان جثمان سيد قد دخل في قبره من مدة) لكي يخفف حكم الإعدام عن سيد إلى حكم ألطف، وربما إلى البراءة. ولا يجد المرء في المحاضر الرسمية ولا في اجتماعات مجلس قيادة الثورة كلمة واحدة عن هذه الجهود المزعومة. ومن هو الساذج الذي يمكنه أن يصدق أن جمال عبد الناصر، بالذات، الذي وحده من فرض هذا الاعدام فرضاً، قد أصبح بين ليلة وضحاها شخصاً عادياً بلا تأثير وبلا سلطة، بحيث لم يتمكن من إلغاء عقوبة الإعدام!

صحيح أن فكرة تخفيف حكم الإعدام قد راودت جمال عبد الناصر في حالة واحدة لا غير، وهو أن يطلب من سيد قطب الاسترحام بإنكار آرائه في اللحظات الأخيرة.

يا للانتصار الذي يسعى إليه البكباشي في لحظته الأخيرة، إن أمكن أن ينتزع من سيد الاعتراف، وهو قاب قوسين أو أدنى من حبل المشنقة، بأنه كان على صلة بجهات مشبوهة، ليذيع هذا الإعلان، بعد تنفيذ الإعدام، ويثبت بأن البكباشي كان على صواب!

يا للانتصار إذا مُنِع الشهيد من الموت كشهيد في سبيل معتقده، وبل نطق في اللحظات الأخيرة وأمام العالم بأسره بأنه خائن.

لكن البكباشي جمال عبد الناصر لن يلبث أن يدرك أن سيد قطب الميت، أشد خطراً عليه بكثير مما كان عليه في حياته وبكتاباته.

لم تكد بضع سنين تمر منذ قيام الثورة حتى تغيرت القاهرة تماماً: اختفت اللحى والجلابيب، فرغت المساجد إلا من الطاعنين في العمر، أصبح غطاء الشعر للنساء شيئاً نادر الوجود، بل إن وجوده أعجوبة الأعاجيب، اختفت الأحزاب واقتصرت على حزب واحد، الحزب الاشتراكي، الذي وقفت جميع الأحزاب بجانبه تتملقه وتنافقه. في البداية ابتهج الجميع لسكرة التوحد، لكن خيبة الأمل ما لبثت أن غزت النفوس.

أما إجراءات التعسف، فقد أدت إلى الشعور بالاستياء، حتى لدى أعز أنصاره. لكن تهشيم الهالة الذاتية للدكتاتور يحتاج دائماً إلى مناسبة واضحة ومفهومة، وهذه المناسبة لن تتأخر، وهي نكسة ١٩٦٧، فإذ بسلطان الديكتاتور يتوقف بغتة كنور شمعة إذا انطفأ، ولأول مرة بدا المصريون يرتابون في قوة نظام الثورة وبطولة الدكتاتور التي بدت زائفة. بل إن غالبية الذين ذاقوا ويلات هذا النظام كانوا يدعون سراً أن تنتصر إسرائيل على جيش مصر وتكسر سطوة هذا النظام، لدرجة أن الشيخ الشعراوي سجد لله شكراً بعد نكسة ١٩٦٧.

باحتقار بالغ، لاحظ الناس ما حدث فاشمأزوا من النظام ورجال الثورة، بل عبثاً اخترعت قيادة الثورة مسرحية دنيئة بقصد سرقة الانتباه عن المرارة العامة من الهزيمة، فلا بد من مسرحية من مسرحياته الكثيرة التي يتقنها جيداً، قدم جمال استقالته وتنازل عن الحكم، خرجت الجماهير المرعوبة لئلا تتهم بمعاداة النظام وتقتاد إلى أقبية التعذيب، خرجوا يهتفون: (عبد الناصر رايح فين إحنا نشيلك جوا العين- الشعب بينادي: عبد الناصر زعيم بلادي- عبد الناصر يا حبيب بكرة ندخل تل أبيب- عبد الناصر يا حبيبنا، اسمك مرسوم جوا قلوبنا- يا أمريكا لمي

فلوسك احنا وناصر بكرة ندوسك- ما تقوليش ما تقوليش، عبد الناصر غيره مفيش).

على أي حال، ثمة جزء كبير من عصمته، التي كانت تعني له عاملاً نفسياً أساسياً لتوطيد سلطته، قد تهشم بعد النكسة، وأصبحت خيبة الأمل جلية، لكن من حسن حظه أنها تمددت فقط، ولم تتحول إلى حشد، مع أن المؤيدين له قد أضحوا منذ زمن أقلية من حيث العدد، بينما في المقابل انبثقت المعارضة من جهات مختلفة، وتحركت بدوافع مختلفة، لكنها لم تتجمع أبداً كقوة صادمة، إنما تجمع المعارضون من كل المجالات والطبقات، من دون رابط بينهم، منهم: ملاك الأراضي الذين انتزعت أملاكهم، وإلى جوارهم أصحاب الشركات الذين أممت شركاتهم، ومنهم الباشاوات الذين زال سلطانهم، ومنهم الفنانون الذين صودرت أموالهم، ومنهم الذين طردوا خارج السور، فراحوا يتكتلون تدريجياً، ومنهم المتدينون الذين يتأذون من موجة الانحلال التي غزت بلدهم، من دون أن نغفل طبعاً البائسين القابعين وراء القضبان في السجون.

بعد النكسة لم يحدث في بادئ الأمر أي شيء في العلانية، لا شيء فوق المعتاد. كل ما هنالك أن قصر القبة أصبح شيئاً فشيئاً شديد الهدوء، وأخذ الزوار النادرون المعجبون بالزعيم يقلون شيئاً فشيئاً، وأخذت قوات الحرس الجمهوري تظهر بعض البرود. إنهم الآن ينفذون المظاهر حباً في الشكليات لا حباً في الرئيس، فهم ما يزالون يرفعون أيديهم ويضربون الأرض بأحذيتهم كلما مر الزعيم من أمامهم، لكنهم لم يعودوا كالسابق يتزاحمون للحصول على حظوة محادثته. وتبقى النظرات مظلمة لا تعبر عن اهتمام، والهتاف "عاش ناصر" الذي كان مألوفاً في الشوارع لم يعد يتردد صداه. لم يكن هنالك عداوة مكشوفة، إنما الحرارة التي كانت سابقاً تمتزج بالاحترام الإجباري قد اختفت. إنهم لا يزالون يطيعون الرئيس، لكنهم تراجعوا عن حب البطل، ولا يزال الرئيس يخدم باحترام، لكن لم يعد هناك أي

تسابق. ولم تكن رغباته تعاكس علناً، إنما تقابل بالصمت، الصمت المشاكس العنيد.

وصدقت حينئذ نبوءة سيد قطب التي أطلقها وهو قابع في عربة السجن والتي تقول: "لو تلوثت يد جمال عبد الناصر بدمائنا فسوف يزول ملكه خلال سنتين أو ثلاث".

تم بحمد اللهَّ وفضله

كتابي القادم بإذن الله

حياة حسن البنا

(رواية)

الفهرس

مقدمة	٤
استهلال	٣
الميلاد	٦
المجاذيب	١٠
فيضان النيل والأخ الأكبر إبراهيم	١٥
مدرسة القرية	٢١
انقلاب الشيخ أحمد	٢٧
الأفنديات في مدرسة القرية	٣٣
حرحور ومخاوف	٣٦
شغف خاص	٣٩
الموالد والأعياد	٤٢
حملة صيد العفاريت	٤٧
كتب الأسرار	٤٩
الريس بركات	٥٤
نفيسة وسميحة	٥٨
نضوج مباغت	٦٢
ميلاد محمد قطب	٦٦
إلى القاهرة	٧٠
في مدرسة المعلمين	٧٣
الوابور	٧٦
عودة إلى الريف	٨١
لقاء عباس العقاد	٨٣
أمير الشعر وأمير البؤس	٨٧
صديقان متغايران	٨٩
ندوة حسن القاياتي	٩٥
صداقات وعداوات	٩٧
معارك النقد وغوغائية الأدب	١٠١
مقالات مجهولة	١٠٥

موت الأب	١٠٩
حميدة قطب	١١٢
موت الأم	١١٦
أمينة قطب	١٢٠
منزل العائلة الكبير	١٢٥
بين العقاد وطه حسين	١٣٠
الفتوة بين سيد قطب والعقاد	١٣٦
إلى أمريكا	١٤١
في عرض البحر	١٤٥
نيويورك	١٤٩
أكذوبة تحرير العبيد	١٥٤
بدائية الشعب الأمريكي	١٥٨
الفن الأمريكي	١٦١
الأمريكيون والاسلام	١٦٥
احتقار	١٧٠
سان فرانسيسكو وما بعدها	١٧٤
من أمريكا إلى الاسكندرية	١٧٧
بين الثورة والإخوان	١٨١
لقاء الشيخ أبي الحسن الندوي	١٨٣
لقاء جمال عبد الناصر	١٩٠
ثورة ٢٣ يوليو	١٩٣
دهشة وذهول	١٩٨
من الثورة إلى الاخوان	٢٠٢
عبد الناصر والمخابرات الأمريكية	٢٠٦
صدام مع الثورة	٢١٩
جحود زملاء القلم	٢٢١
حادثة المنشية	٢٢٦
الاعتقال الثاني	٢٣٢
في السجن الحربي	٢٣٧

مذبحة ليمان طرة	٢٤١
في مصحة ليمان طرة	٢٤٧
المراجعة الفكرية في ليمان طرة	٢٥٠
الهضيبي ومعالم في الطريق	٢٥٤
الافراج الثاني والأخير	٢٥٩
خبايا علي عشماوي	٢٦١
الاعتقال الأخير	٢٧٥
لماذا أعدموني	٢٧٨
المحاكمة	٢٨١
الاعدام والنكسة	٢٨٨
الفهرس	٢٩٥